أبحاث في سنن
تغير النفس والمجتمع

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

العمَل
قُدْرَة وَإرَادَة

جودت سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى : 1400 هـ - 1980م
الطبعة الثانية : 1404 هـ - 1984م

عدد نسخ الطبعة الثانية (3000) نسخة
طبعت في مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري
بموافقة وزارة الإعلام - مديرية الرقابة
تحت رقم 9937 بتاريخ 1983/10/26

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ
وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِه الَّذِينَ اصطفَى

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ترددت كثيراً في نشر هذا الكتاب ، وأخرْتُ طويلاً إتمام كتابته ، ولم يكن هذا لشعور بأن الموضوع لا يستحق الاهتمام ، بل لشعوري بأن ما كتبته لا يبرز المشكلة بما تستحق من تقدير ، إذ أن كثيراً من الموضوعات التي تناولتها كنت أراها غير وافية ، وكما قال أحدهم : « لو انتظرت حتى يتم الأمر لما ظهر الكتاب » . ومقابل هذا الشعور كنت أُحِسّ بارتياح في بعض الجوانب التي حالفها الوضوح إلى حدّ ما ؛ وهذا ما جعلني أتجاوز التردد إلى الإقدام على نشر الكتاب وهكذا سنة الله في خلقه . والذي آمله من القارئ أن يرى الجانبين حتى لا يرى الكتاب من سقط المتاع ، ولا يرى أنه غاية ما ينبغي يكتب في هذا الموضوع ، وذلك لنخرج مما تعوّدناه وهو أن نرى الأعمال : إما طاهرة مقدسة ، أو دنسة حقيرة ...

وحيث أن من المعتاد أن يفهم الناس الأمور من خلال ذواتهم ، لا كما هي في الواقع ؛ يمكن أن يقال : إن هذا البحث يقدّم الوسائل على الغايات ، وليس هناك شيء أبعد من هذا ، فالأمر ليس موضوع تفاضل ، وإنما هو تكامل ، أي : وضع الأجزاء في مكانها الصحيح ليقوم الكلُّ بالوظيفة المحددة .

وإذا ظننت أيها القارئ أنني قد أطلت البحث فبعثت الملل في نفسك ، فرجائي أن تحاول بحث هذا الموضوع بتفاصيل أفكاره وتطبيقاتها مع الناس ، فإذا وجدت حتى المستويات الفكرية الرفيعة – بالنسبة إلى واقعنا – لا تفهم الموضوع كما هو معروض في ها الكتاب ، فستشعر حينذاك أنه بحاجة إلى بسطٍ وتوضيح وتصريف القول فيه .

وإذا وجدت أن المشكلة جديرة بالبحث حقاً ، وأن جذورها عميقة في الأمة – وربما شعرتَ بأن ما جاء في هذا الكتاب غير كاف ، وأن ما سقته من الأدلة غير وافٍ – فستجد في الكتاب زاداً لا بأس به يساعد على بحث المشكلة ، وذلك إذا بذلت الجهد في جمع شتات الأدلة من مواضعها المبعثرة في الكتاب .

ومع هذا كله فإنني أتوقع من الذين يريدون أن يفهموا الأمور على وجوهها أن يحملهم هذا الفهم على القيام بأحد عملين : إما عمل في العمق ، أو عمل في الاتساع ، أو القيام بهما معاً . فعمل العمق : زيادة في الإدراك والتوضيح للمشكلة . وعمل الاتساع : يفتح أعين من تعنيهم المشكلة ليعوا القضية . وكلا العملين يساعد على توجيه طاقات الشباب كلها نحو سلوك طريق الفلاح .

وقد يرون أنني أخطأت ، أو قصرت في بعض التطبيقات على القواعد ، أو أن القواعد لم تستوفِ الشروط والإحترازات ... إن هذا أو ذاك يقوم بتصحيحه وتكميله الذين يهمهم هذا الأمر ، فمنْ درَّبَ نفسه على هذه الممارسة يتبين له : كيف يتم كل من التصحيح أو التكميل على يد أولئك ، وكيف يفوت المؤلف مثل هذه الأمور .

ولابد لنا أن نتناول في هذه المقدمة الإشارة إلى أنه يقتضي التغيير في أساليب العمل الإسلامي ، كي يتوافق مع سنن التسخير ، أو يكون أقرب إلى هذه السنن بدل أن يتجنبها أو يعاكسها .

فمثلاً : إن إيجاد طريقة للعمل على أساس الواجبات ، غير العمل على أساس الحقوق .. والرسول ρ علمنا أن نعطي الذي علينا ، ونسأل الله الذي لنا وهذه هي الطريقة المضمونة . فقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة أن النبي ρ قال : « إنها ستكون بعدي أَثَرَةٌ ، وأمور تنكرونها ، قالوا يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : تُؤدونَ الحقَّ الذي عليكم ، وتسألون اللهَ الذي لكم »[1] .

---

[1] البخاري كتاب المناقب : باب علامات النبوة ، حديث رقم 3408 .

وإن النتائج تختلف رغم حتميتها تبعاً لما نمارسه من الأسباب من سيرٍ في طريق الواجبات ، أو من عكس للموضوع وتطلع إلى حقوقنا وإهمال لواجباتنا ، أو عدم النظر إلى النتائج دون الأسباب المحققة لها نظرةً دقيقة . والتطلع إلى إصلاح أهل السياسة دون إصلاح حال المجتمع ، عمل من أعمال المطالبة بالحقوق دون أداء الواجبات ؛ أو النظر إلى رؤية النتائج دون رؤية الأسباب . . .

كما أن التطلع إلى الوصول إلى الحكم عن طريق العنف أنموذج آخر لعكس القوانين ، وإن المسلمين اليوم قد عكسوا كثيراً من القوانين ، وبأشكال مختلفة مع حسن النوايا ، وإن تغيير النظر إلى التثقيفية – التغييرية – البسيطة العميقة ، والتي لا تقبل النكسات ، لا قدرة لنا على رؤيتها . . .

لا عجب إذن أن لا تُطرح البدائل وطرائق العمل الجديدة المختلفة إلا في القليل النادر جداً . بل إن البدائل وطرق العمل الجديدة لا تدخل في صورة عمق في الفهم ، وإنما في صورة ملجأ للعاجزين . وهناك شبه إجماع بين الفرقاء – اليمين واليسار وما بينهما – على طرق التغيير بإتيان البيوت من ظهورها لا من أبوابها ، فجميعهم يسلكون سبيل المطالبة بالحقوق لا سبيل أداء الواجبات ، ويهتمون بتنظيم الدولة لا بإنشاء المجتمع ، ويعتمدون أسلوب العنف والإكراه لا أسلوب الإقناع العلمي والتفهيم .

فبدل الواجبات – والمجتمع – والعلم : (القدرة) ، نجد البدائل المؤسفة : الحقوق – والدولة – والقوة : (الإرادة) . ويكاد يكون الإجماع على أن هذه البدائل هي القانون الطبيعي ، بل القانون المقبول عندهم . وإن كان هناك من ينكر فبشيء من الحياء ؛ وأنا واحد منهم .. وليس هناك الكثير من هذا النمط .

وهذا الكتاب محاولة لإلقاء أضواء على الموضوع رجاء أن تجد القضية مزيداً من الأنصار ، إلا أن أبرز البدائل لطرائق العمل المعتادة يكون في بعض الأحيان محيراً ؛ ولا يجد السند الكافي ، لأننا في حقيقة الأمر لم نقطع شوطاً في دعم اتجاهنا من الناحية النظرية والناحية العملية .

وهذا يجعل من الضروري أن يتوفر لهذا الاتجاه أناس من ذوي الكفاءات والنظرات النافذة العملية ، الذين لا تخدعه الطرائق التي تبدو في بادئ الأمر أنها قريبة المنال .. وهذا ما يفسر معنى الابتلاء الوارد في القرآن الكريم ، ابتلاء ذكاء الإنسان في رؤية الأسباب الصحيحة ، لأن النظرة العجلى تفسر الأمور تفسيراً سطحياً ؛ كما فسروا قديماً حركة الشمس بأنها هي التي تدور حول الأرض . وربما كانت حركة الشمس آية للإنسان في قابلية وقوعه في التفسير الخاطئ لما يظنه واضحاً جداً ، ليراجع مفاهيمه وأعماله لا سيما حين تتأخر العواقب عن أوقاتها التي قدّر الله لها قدرها . . . والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب والله وراء القصد وهو يهدي السبيل .

جودت سعيد

27 رمضان 1399 هـ

الفصل الأول

مُصَطلحَات البَحث

لا يتحقق عمل ناجح بغير إخلاص وصواب ، فما لا نريده ولا نخلص له لا نعمله ، وما لا نعرف طريق تحقيقه لا نسعى إليه ، ولو سعينا إليه بغير طريقه فلا نصل إليه . ونذكر مثلاً يقرِّب معنى الإخلاص والصواب (الإرادة والقدرة) حتى نعرف بعد ذلك المصطلحات التي تدل على المعنى نفسه أو ما هو قريب منه .

فموقف الأم من الابن المريض في حرصها على شفاء ولدها يمكن أن نسميه موقف إخلاص (إرادة) ، حيث أم موقفها نحو ابنها المريض لا يداخله غش أو خداع ، وإنما هو إخلاص كامل لإرادة الشفاء . فهذا هو الإخلاص كشيء واضح قريب المأخذ يمكن أن نقرِّب به محتوى الإخلاص (الإرادة) بادئ ذي بدء . ولكن هذا الموقف الذي تحمله الأم نحو ابنها المريض يمكن أن نراه منفصلاً بدرجات متفاوتة عن المعرفة الدقيقة للعلاج الذي سيكون سبباً في شفاء هذا الابن ، وإن المعرفة الاختصاصية الحاذقة لعلاج هذا الابن المريض يمنك أن نسميها : الصواب (القدرة) .

فإذا تبين لنا بهذا المثل الجانب الذي يطلق عليه الإخلاص (الإرادة) والجانب الذي يطلق عليه الصواب (القدرة) ، فسنجد هذا المثل منطلقاً لبحث هذين المعنيين بعد أن استندنا إلى فهم أولي واضح لكل منهما ، وذلك أن :

1 – الإرادة (الإخلاص) : هي حب تحصيل أمر ما وإرادته والإخلاص له .

2 – القدرة (الصواب) : هي معرفة كيفية تحصيل هذا الأمر المراد .

هذا (وقد قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (سورة الملك : الآية 2) قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً لم يقبل ؛ حتى يكون خالصاً وصواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة) [2] .

وتوضيح معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) هو موضوع هذا الكتاب ، وذلك لأهميته وتعلقه بمشكلة المجتمعات البشرية عامة ومشكلة المجتمع المسلم خاصة .

وسنذكر هنا جدولاً من المصطلحات التي يمكن أن تؤدي معنى الإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) مع تقديم المصطلح الذي يخص الإرادة :

1- الإخلاص والصواب .

2- إيّاك نعبد وإياك نستعين .

3- لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

4- الغاية والوسيلة .

5- لماذا وكيف ؟

6- البواعث المعللة والطرق التنفيذية .

7- الموثوق والمضطلع .

8- العدل الضابط .

9- الأمانة والقوة .

10- الحفيظ العليم .

11- القاعدة والقمة .

12- اللاشعور والشعور .

13- العاطفة والفكر .

---

[2] ابن تيمية – كتاب العبودية – ص 32

وقد ذكر ابن تيمية قول الفضيل هذا في أكثر من عشرة مواطن في الفتاوى . وذكر مثل هذا في كتاب النبوات ص 87 – طبع القاهرة 1346 هـ .

14- الأخلاق والعلم .

15- القلب والعقل .

1- الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) :

قال ابن تيمية في جواب سؤال عن الهمِّ والعزم والإرادة : (... الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة ؛ فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم[1] . ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل ، لم تكن الإرادة جازمة وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال ولم يفعلوه ؛ وإن كانت هذه الارادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتاً كثيراً ، لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً . وهذه المسألة إنما كثر فيها النزاع لأنهم قدَّروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل ، وهذا لا يكون .

وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل ، فقد يعزم الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئاً في الحال . والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل ، بل لا بد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل ، وهذه هي الإرادة الجازمة . والإرادة الجازمة إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه ، كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام ، وله ثواب الفاعل التام وعقاب الفاعل التام)[1] .

وقال رحمه الله في مكان آخر : (... ومما يوضح هذا أن سبحانه وتعالى – في القرآن – رتَّب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة : « من كان يريد العاجلة » – الإسراء 17 – .

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب » – الشورى 20 – .

وحيث لم يوجد فعل أصلاً فهو همٌّ . وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجئ في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب)[2] .

ويقول أيضاً رحمه الله : (... فإذا عُرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز ، يُجرى صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب . أما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها ، فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة ، بل هو الهمّ الذي وقع العفو عنه ، وبه تأليف النصوص والأصول)[3] .

وعلى الرغم من أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقرر في وقت مبكر هذا القانون الثابت في حصول العمل ، يشيع – في العصر الحديث – بين شباب المسلمين فكرة تقول : « إن التخطيط السليم لا يقتضي بالضرورة الوصول إلى الهدف » . كما نجد أيضاً من يقرر : (والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها ، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها . ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج ، وإنما هي الإرادة الطليقة التي تنتج الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواء) .

---

[1] أي : استيفاء الشروط وانتفاء الموانع .

[1] ابن تيمية – الفتاوى – طبعة الرياض – 1382 هـ – المجلد العاشر – ص 722 .

[2] المصدر السابق – ص 747 .

[3] المصدر السابق – ص 765 .

ملاحظة : كلما ورد ذكر فتاوى ابن تيمية ، فالمقصود بها هذه الطبعة .

ويبحث ابن تيمية هذا الموضوع من حيث الثواب والعقاب الأخرويين ، ولا يبحث الموضوع من الناحية الدنيوية – أي النتائج الاجتماعية في الحياة – فهو يقرر أن الإرادة إذا كانت جازمة فلا يؤاخذ الإنسان بما عجز عنه كحال البكائين :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرجٌ إذا نصحوا لله ورسوله . ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » (سورة التوبة : الآيتان 91،92) .

ولكن الجانب الذي نبحثه نحن هو النجاح الدنيوي ، فالذي يعمل ما يقدر عليه اليوم يتمكن غداً مما عجز عنه اليوم ، فإذا لم يفعل ما يقدر عليه اليوم ظل عاجزاً .

ولكن المهم عند ابن تيمية – رحمه الله – أنه يقرر أن الإرادة الجازمة والقدرة التامة توجبان العمل ضرورة . فإذا تخلف العمل فينبغي أن يبحث عن السبب ، وهذه أرضية مهمة للانطلاق منها في البحث ، وهذا ما أردته .

ووجهة نظري أن الذي ينقص المسلمين ليس من جانب الإرادة ، وإنما من جانب القدرة . ولكن نظرهم في هذا له مداخلات بحيث يعطِّل قيمة الارادات ؛ وهذا ما أردتُ شرحه في هذا الكتاب ولعلي وفقت إلى إلقاء بعض الأضواء على هذا الموضوع ، ومهما يكن فإن تحديد الموضوع بهذا الشكل له قيمة ، ولهذا رأيت أن أجعل عنوان بحث الكتاب (الإخلاص والصواب) . وكلا المصطلحين مما استخدمه المسلمون في بحوثهم وهما واردان في القرآن : « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ... » (سورة البقرة : الآية 236) ، « ولو أرادوا الخروج ... » (سورة التوبة : الآية 46) ، « عباد الله المخلصين ... » (سورة الصافات : الآية 40) « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (سورة عمَّ : الآية 38) ، « إن خير من استأجرت القوي الأمين » (سورة القصص : الآية 26) .

والأستاذ مالك بن نبي يستخدم هاتين الكلمتين كقانون رياضي ومعادلة لبحث قانون حركة المجتمع فيقول : (إن إرادة المجتمع وقدرته تضيفان على وظيفة الحضارة موضوعية وفعَّالية ، أي أن جملة العوامل المعنوية والمادية اللازمة لتحقيق تقدم الفرد تصبح موضوعية ؛ وذلك بأن تتحول إلى سياسة وتشريع ، فيمثلان عالم الأفكار في هذا المجتمع على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي تمثيلاً مباشراً)[1] .

2- إيّاك نعبد وإيَّاك نستعين (سورة الفاتحة : الآية 5) :

ومن مصطلحات الإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) ، العبادة : وهي إخلاص العمل لله . « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » (سورة البينة : الآية 5) . والاستعانة : هي تسخير ما خلق الله عليه الكون من السنن والأسباب . فالدين الحق : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع الله . والاستعانة المطلوبة : أن يعلم العبد سنن الله ويستعين بها على تنفيذ أمر الله .

يقول ابن تيمية – رحمه الله – : « وكل عمل لا يعين الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا ينفع ، فما لا يكون به لا يكون ، ومالا يكون له لا ينفع ولا يدوم . فلذلك أمر العبد أن يقول : إياك نعبد وإياك نستعين »[1] .

ويقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسير الآية : « وتقديم نعبد على نستعين لأن العبادة له هي المقصودة ، والاستعانة هي الوسيلة إليها »[2] .

---

[1] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 151 .

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج 8 – ص 76 .

[2] تفسير ابن كثير لآية « إياك نعبد وإياك نستعين » .

والناس بالنسبة للعبادة والاستعانة أربعة أصناف :

1- من يعبد ويستعين وهذا هو صاحب الصراط المستقيم .

2- من لا يعبد ولا يستعين فأولئك كالأنعام .

3- ومنهم من يعبد ولا يستعين مثل بعض الذين يتركون ممارسة الأسباب في الحياة مُدَّعين التوكل على الله .

4- ومنهم من يستعين ولا يعبد .

وعموماً يمكن القول بأن المسلمين يغلب عليهم في الوقت الحاضر أنهم يعبدون الله ولا يستعينون بسننه . كما يمكن أن يقال أيضاً بأن العالم الغربي في هذه الظروف يمثل الصنف الذي يستعين بسنن الله والوسائل التي خلقها ، فهم يتمتعون بنعم الله ولكنهم لا يعبدونه ، ويأكلون من رزقه ولا يشكرونه .وقليل من الناس من يجمع العبادة والاستعانة « وقليل من عبادي الشَّكور » (سورة سبأ : الآية 23) .

هذا في مستوى الفرد – ولهذا قيل : من العجائب ، فقيه صوفي وعالم زاهد – أما في مستوى المجتمع فالموضوع فيه أعمق وأدق ، ولهذا وصف الله أهل « إياك نعبد وإياك نستعين » بأنهم الأمة الوسط .

وجاء في صحيح مسلم ما يدل على أن « إياك نعبد وإياك نستعين » هو العهد الذي بين الله وبين العبد ؛ عن رسول الله ρ : يقول الله تعالى : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل : إذا قال : الحمد لله ربِّ العالمين ، قال : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثنى عليَّ عبدي . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله : مجَّدني عبدي . وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سال . وإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمتم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »[2] .

وهذه مشكلة الأمم فمنها من تستعين بالأسباب والوسائل التي وضعها الله تعالى ولا تعبده ولا تتعرف على أمره في العبادة . ومنها من تعبد الله ولكنها تغفل عن أمره بالاستعانة والتعرف على سننه وأسبابه . وعلى الشباب المسلم العابد الخاشع أن يتعلم الاستعانة بسنن الله تعالى على إقامة أمره .

3- لا اله إلا الله محمد رسول الله :

وجدنا أن الإخلاص ما كان لله وحده ، والصواب ما كان على السنة التي جاء بها رسول الله ρ وهما الغاية والوسيلة . والدين كله يدور حول الشهادتين ، فإحداهما تتضمن الإخلاص – ولهذا سميت السورة التي تتضمن التوحيد بسورة الإخلاص – والشهادة الأخرى تتضمن الصواب ، وهما ما جاء به رسول الله ρ :

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (سورة آل عمران : الآية 31) .

وهنا ينبغي أن نشير إلى جانب علينا أن لا نغفله وهو أن عبادة الله بما شرع الله هو أمر نسلّم به ، وأما تسخير هذا الكون لهذا الشرع ففيه غموض . فالشريعة تأمرنا أن نفهم طرق هذا التسخير من الكون ذاته لا من الكتاب ، سواء في مستوى المادة أو في مستوى المجتمع :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (سورة فصلت : الآية 53) .

فالله سبحانه وتعالى أمرنا أن نأكل من رزقه الذي أحله لنا وكسبناه من طرقه ، فتحديد الحلال من الرزق وتحديد الحلال من طرق الكسب هو الذي يرجع إلى الشرع في معرفته ، وهو موضوع (الحلال والحرام) وأما كيفية تحصيل هذا الرزق وتسخير الأرض

---

[2] رواه مسلم في كتاب الصلاة .

والشجر والدواب على أساس السنن المودعة فيها ، فهو ما يأمرنا الله تعالى به أن نتعلمه من النظر والممارسة ، وهذا ما قال عنه رسول الله ρ : « أنتم أعلم بأمور دنياكم »[1] .

وإذا نظرنا إلى هذه القضية من جهة أن الله يأمر بها فهي داخلة وموجودة في شرع الله من هذا الجانب . وأما إن فُهم أن الله يوضح لنا هذا في الكتاب أيضاً ، فهو ليس كذلك . وكثيراً ما يخفى هذا التفصيل بين ما فصَّل الله لنا في الكتاب من الأمر الشرعي ، وبين ما امرنا الله أن نتعلمه من تأمل الواقع الكوني ، وبالتالي يتبادر إلى أذهان كثير من أهل الإخلاص أن الاهتمام بتعليم آيات الله في الآفاق والأنفس إعراض عن آيات الله في كتابه الكريم . ويقول في هذا ابن تيمية :

(... وإذا كان لا بد من بيان شهادته للعباد ليعلموا انه قد شهد فهو قد بيّنها بالطريقتين : بالسمع والبصر ، فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة ، والبصير يُعاين آياته المخلوقة المنظورة ، وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك ... وأما الطريق العياني فهي أن يُري العباد من الآيات الآفاقية والنفسية ما يُبين لهم أن الوحي الذي بلغته الرسل عن الله حق كما قال الله تعالى : « سنريهم من آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (سورة فصلت : الآية 53) »[1] .

وكذلك سنن تسخير المجتمع ، فهناك سنن كونية خلقية عامة تخضع لها المجتمعات في عملية التغيير ، ونتعلمها من النظر إلى سير الذين خلوا من قبل . فمثلاً هناك سنن عامة كونية لبناء البيوت ؛ أما بناء البيت المسلم الشرعي فهو شيء آخر .

وضربنا المثل بزرع الأرض وبناء المجتمع ، وقد يعترض معترض بأن هذا مثل ذاك . والجواب : إن المثلية هنا هي خضوع كل منهما للسنن لا أن السنن هي نفسها ؛ أي في الخضوع للسنن من حيث قواعدها الصارمة لا من حيث نوعها .

ولهذا ضرب رسول الله ρ مثل الهدى الذي بعثه الله به ، بالغيث الذي يكون سبباً لنبات الزرع . ثم تتصرف في هذا الزرع وفق أوامر الله الشرعية الخُلُقية ، ولكننا نستنبتها وفق أوامر الله الكونية الخَلْقية « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (سورة الأعراف : الآية 54) . أي له السنن الكونية الخَلقية والسنن الشرعية الخُلقية ، أي : الربوبية والألوهية .

والرسول ρ شبه الهدى بالماء والمجتمعات بالأرض ، وبيَّن أن العلاقة بين الماء والأرض والهدى والمجتمع ، تخضع لسنة كونية طبيعية أو شرعية أخلاقية[1] .

والله سبحانه وتعالى يعلمنا السنن الشرعية في الكتاب المنزل ، ويعلمنا السنن الطبيعية الكونية في آياته في الآفاق والأنفس ، ويأمرنا في كتابه بأن نتعلمها من مكانها في الآفاق والأنفس . ولهذا مع ما يأمرنا الله به من المنهاج الشرعي (الأمر والنهي) يأمرنا الله تعالى بالسير والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل وهو منهاجه الكوني ؛ فكل منهما مأمور به . ولكن الذي ينبغي أن لا يفوت الذي يقوم بعملية التغيير ، هو تحديد الجانب الذي يلزم لحل المشكلة : هل هو الجهل الذي يحيط بمعرفة الحلال والحرام ، أم أن المشكلة في الذي يعرف الواجب والحرام ، ثم يعجز عن عمل الواجب وترك الحرام ؛ أم في الذي لم يعد يبالي بالواجب والحرام

---

[1] صحيح مسلم – كتاب الفضائل .

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج 14 – ص 187،189 .

[1] استنتاجاً من الحديث الذي يريه البخاري عن أبي موسى عن رسول الله : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا منه وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » . رواه البخاري في كتاب العلم .

ولا بكيفية تحقيقهما ؟ . والمهم أن لا نخلط في أن معالجة كل واحد من هؤلاء يختلف عن الآخر وأن بحث هذا الكتاب يتعلق بالقسم الثاني وعلاجه ، أي بالذين بيدهم الكتاب ولا ينتفعون مما فيه بشيء لذهاب العلم الذي يبينه حديث ذهاب العلم .

ويقول في هذا ابن تيمية : « ... إن بم يقصّ علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا ، وغنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين في المقتضي للحكم »[1] .

4- الغاية والوسيلة :

ومن مصطلحات الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) : الغاية والوسيلة ؛ إلا أن الإخلاص معناه : الحالة التي تحدث عند الإنسان المخلص ؛ ولكن الغاية : هي الأمر المراد والمخلص له ، إذ يمكن أن تفهم الغاية على أنها المثل الأعلى الذي يتوجه الإخلاص إليه .

أما الوسيلة فهي الاستخدام الصحيح للإمكانات المتاحة ؛ وتشمل الأشياء والأفكار ، أو الآفاق والأنفس وسننهما ، أو القدرات المادية والفهمية .

يقول ابن المقفع : « أما بعد : فإن لكل مخلوق حاجة ، ولكل حاجة غاية ، ولكل غاية سبيلاً ؛ فغاية الناس وحاجتهم : صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل لدركها العقل الصحيح . وإمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ... فعلى العاقل أن يعلن أنّ الناس مشتركون مستوون في الحب لما يوافق ، والبغض لما يؤذي ، وان هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والأكياس ، ثم اختلفوا بعدها في خصال . من ذلك أن العاقل ينظر في ما يؤذيه وف ما يسره فيعلم أن أحق ذلك بالطلب - إن كان مما يحب - وأحقه بالاتقاء - إن كان مما يكره - أطوله وأدومه وأبقاه »[1] .

وهنا يمكن تصحيح فكرة « الذرائعية » حيث يدنيها بعضهم إدانة مطلقة دون تحفظ . وأكثر الخطأ ينتج عن الادانات العامة من غير نظر إلى الحالات الخاصة ؛ بل الصواب أن يكون هنا صحة الفكرة الذرائعية وخطأ الحالة الخاصة ، ذلك أن النفع لا يمكن أن يدان إلا إذا كان نفعاً عاجلاً زائلاً وغير مستمر دائم ، فطلب الدائم المستمر من النفع هو الصواب على الإطلاق ، لهذا يدين الله الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة : « كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » (سورة القيامة : الآيتان 20،21)

.

وبعض الناس يرون النفعية في الأنانية الفردية ، بينما مصلحة الفرد الدائمة ليست في الأنانية الفرية بل في إيثار المصلحة العامة على المصلحة الفردية ؛ فالمصلحة العامة هي الأدوم والأنفع على طول الزمن ، وحصر النفع في المصلحة الخاصة فهمٌ خاطئ لمعنى المنفعة .

5- لماذا وكيف ؟

هذان المصطلحان سؤالان عن الإرادة والقدرة ؛ « لماذا أفعل ؟ » سؤال عن الإرادة ، « كيف أفعل ؟ » سؤال عن القدرة .

ويقول الأستاذ مالك بن نبي في هذا : (والتاريخ مستوى من الحضارة يتم إنجازه ، إنما يمثل النشاط المشترك للأشياء والأشخاص والأفكار المتاحة في ذلك الحين بالذات ، أي في الأوان نفسه الذي يواكب عملية إنجازه . وهذا الحكم المسبّق يجب أن نجعله قابلاً للإدراك بتطبيق طريقة التقسيم والتحليل :

ومن هنا يتعين علينا أن نحلل التاريخ إلى أجزائه الذرية . فالنشاط الفردي يمثل ضمن بعض الشروط المعينة ذرة من التاريخ ، ويمكننا أن نتمثله ضمن أكثر أشكاله بساطة في صورة نشاط الصانع اليدوي المنكب على عمله والمقص في يمناه ؛ أو في صورة

---

[1] ابن تيمية - الفتاوى - ج 14 - ص 322 .

[1] ابن المقفع - مقدمة الأدب الصغير .

نشاط الجندي المسلح ببندقيته في ميدان القتال . فهذان يصنعان التاريخ إذا تحقق لهما توفرّ الشروط العادية . ونحن نلاحظ في كلا الحالتين : أن نشاط العمل اليدوي أو الفلاحي أو الحربي إنما يتم إنجازه ابتداءً من حدين مشاهدين هما : الإنسان وأداته . وإن كان الواقع أن هذين الحدين المشاهدين يخفيان واقعاً أشد تعقيداً ، لأن النشاط لا يتم إنجازه فعلياً إلا ضمن شروط من شأنها أن تقدم بالضرورة جواباً عن سؤالين هما : كيف يكون ذلك ؟ ولماذا يكون ؟

فالإنسان لا يتصرف كيفما اتفق ولا دونما أسباب ، وإلا جازف بالاضطلاع بمهمة مستحيلة إن فقد الجواب عن كيف ؟ أولا معقولة إن فقد الجواب عن لماذا ؟ .

والنشاط البشري لا يمكنه أن يُحدَّد بمعزل عن الطرائق التي تشرط إنجازه العملي ، ولا بمعزل عن بواعثه المعلّلة ...)[1] .

6- البواعث المعللة (الإرادة) والطرق التنفيذية (القدرة) :

يقول مالك بن نبي رحمه الله : « وفي النشاط المشترك للمجتمع يتداخل عالم الأشياء مع كل من عالم الأشخاص وعالم الأفكار . وغني عن البيان أن هيكل هذا النشاط – حتى ولو كان النشاط بدائياً – ينطوي بالضرورة على البواعث من ناحية ، ومن ناحية أخرى على الطرق التنفيذية : بواعث ذات صبغة معنوية ، وأفكار تقنية . ولكن هناك دائماً تفوّق من جانب أحد هذه العوامل ، وبهذا التفوّق – الذي يتضح في طريقة المجتمع في السلوك والتفكير – يتميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات[1] .

ولا يتميز المجتمع النامي بقلة الوسائل المادية – الأشياء – فحسب ، وإنما يتميز بقصور في الأفكار ، ويتجلى هذا القصور بصفة خاصة في طريقة استخدامه بفاعلية أو بعدم فاعلية للوسائل المادية المتوفرة لديه مع عجزه عن إيجاد غيرها ، كما يتميز بصفة خاصة في طريقة طرحه لمشاكله أو عدم طرحها على الإطلاق عندما يتغاطى عن أية رغبة عابرة تدعوه إلى دراستها .

وعلى هذا الأساس ، فالأرض مثلاً هي الوسيلة المأمونة – كما يقول اليوم الاقتصاديون الذين يدرسون مشاكل العالم الثالث – لضمن إقلاع مجتمع ما من مرحلة أولية إلى مرحلة ثانوية مثل الصين الشعبية منذ عام 1951 .

إلا أننا نلاحظ أن أكثر الأراضي خصوبة في العالم – وهي أراضي العراق وإندونيسيا – لم تمكِّن هذين البلدين من الإقلاع لأن قصوراً حقيقياً في الأفكار يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي على شكل خمول معوّق يشبه – من وجهة نظر علم الاجتماع – الخصائص النفسية الاجتماعية التي يتميَّز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر ، ويستطيع أن يتناول هذه الصورة بالشرح والتفسير كل من المؤرخين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ؛ كل بطريقته الخاصة .

وسنحاول أن نقدّم هنا لهذه الصورة تفسيراً نفسياً اجتماعياً معتمدين على نظرية الأعمار الثلاثة ... »[1] .

7- الموثوق والمضطلع :

حينما نريد استخدام أي إنسان في أي عمل : نراعي فيه جانبين وهما :

1- هل يخدمنا بصدق وأمانة ويخلص في العمل دون أن يسرق أو يخون ؟

2- هل يُحسن هذا العمل الذي سنكلفه به ؟ .

وقد تناول ابن خلدون ها الموضوع بهذين المصطلحين ، وهو الذي وضعهما فقال : (فصل في أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعي) :

---

[1] مالك ابن نبي – آفاق جزائرية ص 161 - 163 .

ولمالك محاضرة كاملة في هذا الموضوع – لماذا وكيف – في نادي الطلبة المغاربة بدمشق عام 1972 .

[1] يتحدث الأستاذ مالك فيما يلي عن جانب القدرة الفكرية والمادية ولا يتحدث هنا عن الإرادة (البواعث المعللة) . – المؤلف .

[1] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي – ص 39 - 41 .

« ... فالخديم ... لا يعدو أربع حالات : إما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده ، وإما بالعكس فيهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده ، وإما بالعكس في إحداهما فقط ..

فأما الأول : فلا يمكن أحداً استعماله بوجه ، إذ هو غني عن أهل الرتب باضطلاعه وثقته ، ومحتقر للأجر لقدرته على أكثر ، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه .

وأما الثاني : فلا ينبغي لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه في الأمرين معاً فيضيّع عليه لعدم الاضطلاع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى . فهو على كل حال كلٌّ على مولاه . فهذان الصنفان لا يطمع أحد في استعمالهما . ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين : موثوق غير مضطلع ، ومضطلع غير موثوق . وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ، ولكل من الترجيحين وجه ، إلا أن المضطلع ولو كلن غير موثوق أرجح ، لأنه يُؤمن من تضييعه ، ويحاول على التحرز من خيانته جهد الاستطاعة . أما المضيّع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه .

فاعلم ذلك واتخذه قانوناً في الاستكفاء بالخدمة ، والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء »[1] .

8- العدل الضابط :

في مصطلح الحديث يعرفون الحديث الصحيح : « بالحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ، ولا يكون شاذاً ولا معللاً »[1] . فمما يشترط في راوي الحديث أن يكون عدلاً ضابطاً . والعدل : هو الذي يتوفر فيه الإخلاص لله . والضابط : هو الذي لا تشتبه عليه الأمور لوعيه وقوة ذاكرته ، وهو الذي يوصل إلى الصواب ويجنب الوقوع في الخطأ .

ورواية الحديث شهادة ، وشرطها العدالة والضبط . وهما الإخلاص في الشهادة والصواب فيما يشهد به ، ويقول الله تعالى في هذا : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » (سورة الطلاق : الآية 2) ، هذا جانب الإخلاص في الشهادة ، أما في تحقيق الكفاءة ففيه قوله تعالى : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » (سورة البقرة : الآية 282) وذلك ليتحقق الصواب أي الضبط .

والأمة المسلمة منوط بها أمر الشهادة :

« لتكونوا شهداء على الناس » (سورة البقرة : الآية 143) .

فعليهم أن يوفروا شرطي الشهادة ، أي عليهم أن يشهدوا للحق وبالحق ، لله وبالقسط .

والقيام بوظيفة الشهادة يقتضي الحضور والشهود لأكبر كَمٍّ ممكن من القضايا زماناً ومكاناً ، حتى لا تبقى قضايا لم يشهدوها ؛ وهذا يقتضي عملية مسح وتصنيف واختزال لأحداث البشر في الزمان والمكان ، ليكون أداء الشهادة على وجهها الصحيح ، وهذه ليست وظيفة فردية وإنما هي وظيفة جماعية .

والتكليف بهذه الشهادة يمثل هذه المهمة ، ففيها ابتلاء يحمل على الإشفاق وإثارة تحمل على الاستنفار التام لكامل الطاقة ، لأنها وظيفة تثبت بها جدارة الإنسان لأن تسجد له الملائكة وينقض توقعاتها بإقامة العدل وحقن الدماء .

9- الأمانة والقوة :

قال تعالى : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » (سورة القصص : الآية 26) ، « وإني عليه لقوي أمين » (سورة النمل : الآية 39) .

---

[1] مقدمة ابن خلدون – كتاب التحرير – ص 330 – القاهرة 1966م .

[1] مختصر علم الحديث لابن كثير – القاهرة – 1936م .

والقوة والأمانة : تقبلان الصواب والإخلاص . والقوة تعني القوة المادية ، وقد تعني قوة الفهم ، وقد تعنيهما معاً . فالمتبادر من قوله تعالى : « إن خير من استأجرت القوي الأمين » (سورة القصص : الآية 26) القوة المادية ، وقد يكون نوع من قوله تعالى : « وإني عليه لقوي أمين » (سورة النمل : الآية 39) قوة العلم بدليل ما جاء بعده : « قال الذي عنده علم من الكتاب .. » (سورة النمل : الآية 40) . وأما قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (سورة الأنفال : الآية 60) ، فإنه يشمل المعنيين معاً : القوة المادية والقوة الفهمية .

والقدرة الجسدية مع أهميتها تتراجع لتأخذ المقام الثاني ، لأن القدرة العلمية الاختصاصية تتقدم على القوة الجسدية دون أن تلغيها . وفي هذا أيضاً يقول الله تعالى : « وزاده بسطة في العلم والجسم » (سورة البقرة : الآية 247) ، حيث جعل بسطة العلم مقابل بسطة الجسم ومقدماً عليه ، وتبرز أهمية العلم على مرِّ الزمن ، والقوة المادية تعود تابعة لقوة العلم .

ومن هذا الباب أيضاً قوله تعالى : « أولي الأيدي والأبصار » (سورة ص : الآية 45) . فـ (الأيدي) تعني : القدرة المادية ، و(الأبصار) تعني : العلم والفهم .

ويمكن أن يُلاحظ أن القدرة والإرادة – مع أنهما تمشيان متوازيتين – يمكن رؤيتهما في مكان ما متقاطعين ، لأن الإخلاص يتولد في جانب من الجوانب من القدرة الفهمية ؛ كما أن القدرة الفهمية يمكن أن ينظر إليهما مرة كنتيجة ومرة أخرى كسبب ، فالإخلاص يساعد على تحصيل القدرات ، والقدرات تساعد على تحصيل الإخلاص ، ولا جدوى من بحث أيهما أولاً إذ هما كالزوجين لابد منهما لتحصل العمل الناجح في الدنيا والمتقبل في الآخرة .

10- الحفيظ العليم :

قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » (سورة يوسف : الآية 55) .

وبما أنه عرض نفسه للقيام بخدمة ، قد قرن هذا العرض – وهو أن يجعل على خزائن الأرض – بمؤهلات من يناط به أمر الخدمة ، وهما الحفظ والعلم . فالحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص ، والعلم فيه جانب الصواب والكفاءة والاقتدار ؛ وقد كان عليه السلام كذلك عند التطبيق العملي .

11- القاعدة والقمة :

يمكن أن نرى موضوع الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) بحسب الموضع أو المكان في (القاعدة والقمة) بالنسبة للمجتمعات ، فالقاعدة هي الجمهور وعامة الأمة والسواد الأعظم . والقمة هي النخبة والقيادة الفكرية في الأمة وصاحبة الوعي لتوقعات الأحداث في سير الأمم ، وقيادة القاعدة على جادة الصواب عند حلول الأزمات الاجتماعية وحدوث الفتن والظلمات .

فالقاعدة : هي موطن الإخلاص والطاقات المتفجرة التي تأتي بالأعمال المدهشة حين تستخدم الاستخدام الصحيح وتقاد القيادة السليمة .

وأما القمة : فهي موطن الفهم والكفاءة في استخدام الطاقات في أجدى الوجوه ، فهي بمنزلة القوة الفكرية في الجسد ، والقاعدة تمثل سائر القوى والجوارح . وهنا يحدث لبسٌ في العالم الإسلامي في فهم معنى القمة[1] ، حين يفهمون القمة بمعنى

---

[1] اللبس بين المكانة والكفاءة : فهذه غير تلك ، وبعبارة ثانية اللبس بين النتيجة والسبب ، فإذا نظرنا إلى النتيجة ولم نرَ أسبابها الحقيقية وفرضنا لها أسباباً وهمية يصير بذلك بعدنا عن النتيجة مزدوجاً . وفي صورة ثالثة : كالأمي الذي رأى قدرة القراءة في المنظار فسعى لشراء النظارة ليحصل قدرة القراءة . فهكذا يحدث الخلط بين تحصيل المنصب وتحصيل الجدارة ، فيتوجه الجهد إلى

القيادة السياسية ، ولا يخطر لهم أن القمة في القيادة الفكرية هي التي توجه الأمة وترشدها وتمدها بالبوصلة في متاهات الحياة ، وهؤلاء غالباً لا يكونون في موضع القيادة المتبادرة إلى الذهن في الظروف الراهنة .

ومن المشاكل هنا أن تطلعات الشباب لا تتوجه إلى أن يحققوا مثل هذه الوظيفة ، بل بنوع من الآلية التي لا يُشعر بها ينحرف سعيهم من الجانب الفكري إلى الجانب السياسي .

ومن طريف ما يذكر مالك بن نبي – رحمه الله – في هذا الموضوع – ويثير الغبطة من نفاذه الدقيق إلى مكامن المشكلة – بحث (الطفل والأفكار) حيث قال : « إن المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول الأشياء ، تتخذ الميول الفردية الاتجاه نفسه . ولقد حدث أن سألت طفلاً في إحدى البلاد العربية عما يعطونه في المدرسة – ولم يكن استخدامي للفعل « يعطي » مقصوداً – إلا أن الإجابة التلقائية كانت : إنهم يعطوننا بسكويت ! ومن الواضح أن معنى الإعطاء في نظر هذا الطفل ، لا يتم إلا في عالم الأشياء حتى لو استعمل اللفظ في المجال المدرسي عند صياغة السؤال »[1] .

فهذا ما أردناه حين قلنا : إن الناشئ المسلم يحرف القيادة الفكرية إلى القيادة السياسية . وهناك جانب آخر من فساد العلاقة بين الإخلاص والصواب بين القاعدة والقمة ، فحين تكف القمة عن التفكير السليم ، وتجعل الأفكار تدور حول الأشياء (البسكويت في مستوىً والسياسة في مستوى آخر) بدل أن تخضع هذه الأمور للأفكار ، فإن القاعدة أيضاً تكف عن العمل السليم فلا تعود تقوم بواجبها في المستوى الشعبي سواء فيمن يتلقى التثقيف الإسلامي أو فيمن يُلقِّن الثقافة الإسلامية في الوعي والضمير الشعبيين ؛ فمن هاهنا تحدث الخسائر التي لا يمكن أن تعوض والتي يتابع مالك بن نبي شرحه لها بقوله : « وهكذا يدفع الإنسان الجزية عن اندماجه الاجتماعي إلى الطبيعة وإلى المجتمع في الوقت نفسه . وكلما كان المجتمع متخلفاً في نمائه ارتفعت قيمة الجزية »[1] .

12- اللاشعور والشعور :

يمكن أن يقال بوجه من الوجوه إن الإخلاص والصواب يقابلان (اللاشعور والشعور) . فاللاشعور : هو الميل أو النفور الذي يجده الإنسان في نفسه دون معرفة سببه . والشعور : هو الوعي .

وفهم اللاشعور أصعب من فهم الشعور وخاصة بسبب ما يقوم به في النفس ، بما يتصل بالمسؤولية وعدمها ؛ فإثباته يجعل أمام الإنسان إشكالاً في هذا الجانب إلى ما يضاف إليه من غموض إدراكه . وقد وصف ابن تيمية اللاشعور وصفاً دقيقاً كظاهرة من الظواهر فقال : « ... إن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والرادات وغيرها من الصفات مالا يعلم أنه قائم بنفسه ، فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به ، فوجود الشيء في الإنسان غير شعور الإنسان به »[1] .

وهذا وصف دقيق لظاهرة اللاشعور . ويطيل البحث في إثبات الظاهرة ويقارن حاسة الشعور بحاسة البصر ولكنه – رحمه الله – ل يبحث الموضوع 0 فيما أعلم – من ناحية المسؤولية ولا كيف يتكون عند الإنسان ، كما لا يبحثه من الجانب الاجتماعي وإنما يتناوله كظاهرة تحدث للإنسان .

تحصيل المنصب دون السعي الدائب لتحصيل الجدارة ؛ ومما يُسهل الوقوع في هذه المزلقة رؤية الخلط بينهما كثيراً في الواقع ، فكأن الخطأ يبرر خطأ مثله ، أو يبرر سعياً لإزالة الخطأ بخطأ أكبر .

[1] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 36 .

[1] مالك بن نبي – مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ص 36 .

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج 16 – ص 343 .

وينبغي أن نعلم أن اللاشعور هو في أصله شعور تحوَّل إلى لاشعور إما بالنسيان أو بالإيحاء للفرد دون شعور منه ، وقد يكون في مرحلة الطفولة أكثر ما يكون ، كما يمكن أن يحدث بالتنويم المغناطيسي . وبهذا نعلم أنه لا يوجد لاشعور إلا وكان يوماً ما شعوراً ولو عند شخص آخر ، حيث أنه لا يشترط أن يكونا في رجل واحد .

ويمكن أن نلاحظ هذه الحالة من قوله تعالى :

« وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا : إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (سورة البقرة : الآيتان 11،12) .

وإن وظيفة التغيير لما بالأنفس يشمل الشعور واللاشعور أيضاً ، فالفرد قد يتمكن وقد لا يتمكن من كشف لاشعوره كما لاحظ ذلك ابن تيمية ، وقد لا يتمكن من تغييره لأنه يحتاج إلى شروط اجتماعية . ولكن المجتمع يمكن أن يقوم بمثل هذه الوظيفة إذا تعلَّم كيف يقوم بها ، وقد لا يتعلم ذلك فلا يتدخل ، فيحدث التغيير دون إشراف واعٍ ، أما إلى خير وإما إلى شر لأنه خرج من سلطان الوعي . وهذا ما يمكن أن يفسر به سبب انهيار الحضارات حيث يكف المجتمع عن السيطرة على تغيير ما بالأعماق . وقد لاحظ هذه النقطة ابن خلدون دون أن يدرك إمكانية التدخل من المجتمع للسيطرة عليه . ولا يشترط أن يكون عند كل فرد الوعي لهذا الموضوع ، ولكن لابد من الكتلة الحرجة – الفرض الكفائي – من الأفراد للإشراف على سلامة المجتمع من هذا الجانب .

ويمكن أن يفهم مصطلحاً الانفعال والفعل على ضوء اللاشعور والشعور ؛ لأن الانفعال نتيجة اللاشعور ، والفعل نتيجة الشعور . ولا يفهم مما تقدم أن الإخلاص يكون في اللاشعور فقط بل يمر في الشعور ، ولكن غالباً ما يكون في اللاشعور ، فإن معظم الأمة تخلص لمثلها الأعلى دون وعي دقيق ، وهذا ليس عيباً – على الإطلاق – والعيب ألا يوجد من الواعين ما يسد الحاجة في هذا الموضوع .

13- العاطفة والفكر :

وكذلك يمكن أن نُحل في مصطلح الإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) ، مصطلح (العاطفة والفكر) . فما يقال عنه عاطفة إنما تكوّن من ميول كنتيجة لعوامل مختلفة – كما بحثنا في اللاشعور – أما الفكر فيقصد به الشعور والوعي عادة . وما يكون فكراً عند بعض الناس قد يكون عاطفة عند آخرين ، – وليس في هذا ما يعاب – ولكن العواطف قد تكون سلبية أو إيجابية ، وحتى الإيجابية منها بحاجة إلى وعي لقيادتها وتوجيهها ، حتى لا تتحول إلى نتائج سلبية أثناء الصراع الفكري .

والفكر مصدر الفعل ، وآلته العقل ، وموضوع ما في الكون . والفكر : عملية نظر في الكون واستنباط السنن التي تسير الأمور عليها ، ويقول محمد إقبال – رحمه الله – في هذا :

« أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية للطبيعة هو أنها تبعث في نفس الإنسان الشعور بمن تعدُ هذه الطبيعة آية عليه »[1] .

أي ما يُعنى به القرآن أن يوجه الفكر إلى ما الكون دليل عليه ، فهذا الكون رمز وآية . وهكذا يعرض القرآن الموضوع ؛ والقرآن الكريم معجزة رسول الله ρ :

« ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أو من أو آمن عليه البشر ، وإنما الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أني أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

---

[1] محمد إقبال تجديد التفكير الديني – ص 21 – القاهرة 1955م .

[1] صحيح البخاري – كتاب الاعتصام .

كان الأنبياء يأتون بمعجزات إلا أن هذه المعجزات ذهبت ولم تبق ، ولكن معجزة محمد ρ قائمة تتجدد يمكن أن يراها كل إنسان على مدى الدهر ؛ وكان المشركون يطالبون بآيات كما أرسل الأولون ، فأتى الجواب من السماء أن آيات الكتاب تكفي :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (سورة العنكبوت : الآيتان 50،51) .

بل نرى هذا الأسلوب متبعاً فيما يقص الله علينا من قصص عن الماضين وما يقابل ذلك في عهد محمد ρ : فقصة الذي

« مَرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، قال : أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : بل لبثت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبيَّن له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير » (سورة البقرة : الآية 259) .

هذه القصة حول تساؤلات الإنسان عن كيفية إحياء الله للأموات ؟ فكان الجواب أن أماته الله مائة عام ثم أحياه وجعل له آية ليعلم أنه قد مات ، وذلك من رؤية عظام حماره الذي نشر عظامه أمامه ، فلما تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ، فأراه الله الآية في نفسه وفي دابته . ونجد بعد هذه القصة مباشرة قصة إبراهيم عليه السلام :

« وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحي الموتى ؟ قال : أولم تؤمن ؟! قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فَصُرهُنَّ إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » (سورة البقرة : الآية 260) .

كان الجواب لتساؤل إبراهيم – عليه السلام – أن أراه الآية في الطير ولم يُرِ إبراهيم تلك من نفسه . وحدث مثل هذا التساؤل في زمن محمد ρ أيضاً ولكن الجواب لم يكن كالجواب للذي مرَّ على القرية ، ولا كما فعل مع إبراهيم – عليه السلام – وإنما هو أنموذج آخر ، أُدخل إلى جانب الاعتبار بالأمثال . ولقد اكتفى إبراهيم – عليه السلام – أن يرى الطير ولم يحتج أن تقام عليه التجربة نفسها . ولكن الجواب الذي حدث في زمن محمد ρ الوارد في سورة (يس) :

« أولَمْ يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحي العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (سورة يس : الآيات 77،78،79) .

إن الرجل الذي جاء إلى محمد – ρ – وَفَتَّ العظم طالباً بيان كيف يحيها الله ، لم يواجه الله بإفزاعه في أن يعيد ما بيده من العظام حية تسعى ، ولكن بكل إيجاز قال عنه : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه » (سورة يس : الآية 78) . فأعيد إلى التذكر ليرى بالفكر والتأمل ذلك في نفسه ، وفي نشأته الأولى ؛ وفي مثل هذا المثال ما في القصص السابقة من البرهان ، ولكن بحاجة إلى فكر أدق ، وعليه أن يراه كل واحد ، وهذا يدل أيضاً على تطوير أساليب البرهان على مرِّ الزمن وإن كان الموضوع واحداً .

وتنبّه إلى هذا توماس كارليل فقال في حديثه عن محمد ρ في كتابه (الأبطال) : « إنه كان – ρ – يطلب القريشيون منه براهين وآيات على صدق ما جاء به ، فكان يقول لهم : ألستم أنتم معجزات وجدتم ولم تكونوا .. » .

وفهم ابن عباس – رضي الله عنه – الموضوع على هذه الصورة فقال : (أتت قريش اليهود فقالوا : بمَ جاءكم موسى من الآيات ؟ فقالوا : عصاه ويده بيضاء للناظرين ، وأتوا النصارى ، فقالوا كيف كان عيسى ؟ فقالوا : كان يُبرئ الأكمة والأبرص ويحي الموتى ، فأتوا النبي ρ ، فقالوا ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فدعا ربه فنزلت هذه الآية : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » (سورة آل عمران : الآية 190) ، فليتفكروا فيها)[1] .

---

[1] ذكره السيوطي في أسباب النزول .

ولا يقلل من قيمة الفكرة التي يتضمنها ما رواه ابن عباس أي إشكال برد عليه ، لأن آية العنكبوت واضحة :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل : إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم » (سورة العنكبوت : الآيتان 50،51) .

14- الأخلاق والعلم :

يستخدم مصطلح (الأخلاق والعلم) مقابل مصطلح الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) . وتفهم الأخلاق عادة كهبة إلهية لا دخل للوعي والجهد فيها ، بينما ينبغي أن تُفهم كقيمة خلقية وكجهد واع يقوم به الإنسان ليحقق الحياة الأخلاقية – وقد شرحنا هذا الموضوع في بحث الإرادة كقيمة وكصناعة – .

ونرى الحاجة كبيرة إلى فهم الأخلاق كمواد أولية ، وكعملية تركيب وفق السنن حتى يخرج مفهوم الأخلاق من الغموض الذي يحيط به .

واستعمال الأخلاق مقابلاً للعلم ليس دقيقاً وإن كان شائعاً ، بل الأخلاق تخضع للعلم وسلطانه كالإرادة .

وأخطر من ذلك كله فهم الناس للعلم بأنه لا دخل له في الأخلاق ، بينما يخضع تكوين الأخلاق – في الحقيقة – للعلم ، بل هو الذي يبرز القيم الأخلاقية ويقيم عليها أدلته الآفاقية والنفسية ، وفي هذا المعنى قال الأستاذ مالك – رحمه الله – في كتابه (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي) :

« والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح المطلوب عليه » .

والعلم في المصطلح الغربي الآن وعند الذين يستخدمون مصطلحاته يجعلونه حيادياً أو يسمونه – كما يقول توينبي – : محايد أخلاقياً ، وهذا غير سليم ، بل العلم هو الذي سيشهد على ضرورة الأخلاق ، ويقيم الدليل على ذلك . ولا يمكن أن نعلم ضرورة الأخلاق إلا إذا صارت علماً ، وكيف يمكن أن تكون ضرورية وهي ليست بعلم !؟ ولكن مأتى الخطأ أن نظن العلم القليل علماً كاملاً ، أو نظن ما جهلناه أو جهله الآخرون علماً ؛ فلا يجوز إدانة العلم بهذه الصورة التي يعرض بها .

ولقد فاتحت الأستاذ مالكاً – رحمه الله أثناء زيارته الأخيرة لدمشق – بهذا الموضوع وذكرت له العبارة السابقة الذكر من كتابه ، وأنه لم يلتزم هذا الأسلوب في كتاباته ، بل كثيراً ما يعتبر العلم جزءاً رابعاً من الثقافة ، كما ذكرت المقام الذي يضع القرآن فيه العلم ... فأقر بذلك وأن القرآن يضع العلم في مقام كريم ...

والعلم هو الميزان الذي يعرف به الحق والباطل ، والعلم شهادة العواقب التي بها نعرف الخطأ من الصواب ، وإدانة العلم ليس هو طريق الخروج من المشاكل وإنما أن نعرف أن العلم الذي يعالج المشكلات غير كاف ، وأنه أقرب أن يسمى علماً بجانب وجهلاً بجانب آخر ، أو علماً ناقصاً أو قليلاً كما وصفه القرآن :

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (سورة الإسراء : الآية 85) ، أو كما قيل :

يا أيها المدعي في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

والحكم عند النزاع هو العلم وليس غيره : « عل عندكم علم فتُخرجوه لنا » (سورة الأنعام : الآية 148) .

15- القلب والعقل :

ومن مصطلحات الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) : (القلب والعقل) . وغالباً ما يستعمل القلب – في الكتابات الحديثة – على أنه محل العواطف والإخلاص والحماس ، كما يستعمل العقل للوعي والفهم ، وهذا الاستعمال أكثر ما يستخدمه محمد إقبال .

أما القرآن فيستخدم القلب على أنه الشيء الذي يقوم بوظيفة الفقه والعقل والاطمئنان في الإنسان ، وفيه قوله تعالى :

« لهم قلوب لا يفقهون بها » (سورة الأعراف : الآية 179) ، « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (سورة الحج : الآية 46) ، « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (سورة الرعد : الآية 28) ولم يَرِد العقل في القرآن اسماً ولا مصدراً وإنما ورد فعلاً أي وظيفة وعملاً يقوم به الإنسان أو لا يقوم ، اختص الله به الإنسان .

إذاً فالعقل يطلق على الآلة ، والعقل يطلق على الوظيفة ، وقال ابن تيمية في هذا : « فالفكر للقلب ، كالإصغاء للأذن »[1] .

وسئل أيضاً عن مسكن العقل فقال في جوابه : (فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه كما قال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (سورة الحج : الآية 46) . لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية ، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة ... ومنه سُمِّيَ القليب قليباً لأنه أخرج قلبه وهو باطنه ، وعلى هذا فإذا أريد بالقلب هذا فالعقل متعلق بدماغه أيضاً ، لهذا قيل : إن العقل في الدماغ كما يقول كثير من الأطباء . ونقل ذلك عن الإمام أحمد ...)[1] .

مصطلحات أخرى :

ويمكن أن يفهم معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) من كلمات أخرى مثل كلمتي (نفس وزمن) ، ويستخدم هذا المصطلح كثيراً مالك بن نبي في كتبه فيستخدم كلمة نفس للجانب الأخلاقي واللاشعوري الانفعالي ، بينما يستخدم كلمة زمن وزمنية للجانب العلمي السنني والوعي .

كما يستخدم أحياناً مكان زمني كلمة (اجتماعي) ، فكلمة الزمن والمجتمع يستخدمها مالك بمعنى الصواب والفهم للقوانين والسنن ونتائج الأعمال . ويستخدم كلمة (الضمير) مكان النفس مقابلاً للعلم ، فحين يقول مالك : « إن الضمير متخلف عن العلم » يقصد به أن الإخلاص – الأخلاق – متخلف عن العلم كما هو الحال في العالم الغربي . ومثلها قوله : « إن القرآن كان علماً فوق الضمير الجاهلي » . (انظر كتاب وجهة العالم الإسلامي) .

وكذلك كلمتي (همّام وحارث) اللتين وردتا في الحديث الصحيح : « أصدق الأسماء حارث وهمام » ، وكذلك قوله ρ : « تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء . أحب الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمّام ، وأقبحها خرب ومُرَّة »[1] .

فكل إنسان فعّال (حارث) ومريد (همّام) .

وبعد فهذه المصطلحات تساعد على جمع معنى الإخلاص (الإرادة) والصواب (القدرة) ، لأن نجاح العمل الإنساني مرتبط بهما . وليس المهم الإكثار من المصطلحات ، وإنما المهم المحتوى أولاً ، ثم فهم المراد من المصطلحات حين تستخدم ، وأن لا نظن حين نرى حشداً من المصطلحات أنه يقابلها حشد من الحقائق المختلفة – فهذا يشتت الجهد – بينما تحديد الفهم لقانون حركة الإنسان يقلص كثيراً من ينشأ من تشعب المصطلحات . وجمع المصطلحات يسهل فهم ما يقصده الكتاب ، وتحديد ما يقصده الباحثون .

ومن مصطلحات الإخلاص بوجه من الوجوه :

1- الهدف :

---

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج9- ص 308 .

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج9 – ص 304 .

[1] مسند الإمام أحمد – ج4 – ص 345 .

باعتباره الغاية أو المثل الأعلى الذي يبعث الإرادة .

2- النيَّة :

وترتبط بالمقصد والمراد .

3- الذوق :

الذوق : هذه الكلمة دلالتها على الإخلاص أخفى ، فالإخلاص يمكن أن يكون في اللاشعور . والذوق شيء يحس به الإنسان ولا يعرف مصدره – وكما يقولون : الذوق شيء ليس في الكتب – فمن هذا الجانب دلَّ الذوق على معنى الإرادة .

4- التقوى :

يمكن القول بدلالتها على جانب الإرادة لأن التقوى التزام الأمر والنهي ، ودلالتها على ابتغاء وجه الله أكثر من دلالتها على معرفة الأحكام الشرعية في مفهوم الناس .

5- الثقافة :

إن الاستخدام الشائع لهذه الكلمة يدل على جانب الصواب لأنهم يطلقونها على الفهم والدراسة والاطلاع ، إلا أن الفهم الشائع هو الفهم السطحي . فالثقافة كلمة مستحدثة ودلالتها في المفهوم الغربي – على تطورها خلال العصور – تدل على مبعث سلوك الإنسان ودوافع مواقفه أكثر من أن تدل على فهمه لهذه الدوافع .

6- الوجدان :

كلمة شبيهة بالأخلاق والضمير ، فمن هذا الجانب صارت دلالته على الإخلاص أقرب .

7- الروح :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (سورة الإسراء : الآية 85) . كان السؤال على ما يظهر عن حقيقة الروح التي يكون بها الإنسان حياً ، وكون القرآن لم يوضح هذه الحقيقة ليس معناه أنه غير قابل لبذل جهد في فهم أكثر لها وخاصة حين علَّق الأمر على قلة العلم ، والعلم قابل للزيادة .

وتأتي الروح بمعنى القرآن « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » (سورة الشورى : الآية 52) . كما تطلق على جبريل – عليه السلام – « نَزَل به الروح الأمين » (سورة الشعراء : الآية 193) .

وأما الاستخدام المتعارف عليه اليوم من قولهم الجانب الروحي : وهو الخشوع والزهد والإخبات ، فلم يستخدمه السلف ، بهذا المعنى ، وإنما هو استخدام غربي انتشر بين المسلمين .

واستخدام مالك بن نبي للروح كحالة نفسية مقابل العقل والغريزة ، اتبع فيه المصطلح الغربي .

8- الفن :

كلمة لها استخدامان حديثان : الأول يستخدم للجوانب الأدبية وأساليبها كفن الشعر والمقالة أو الأداء الرمزي في استخدام الصورة المرئية . أو ما يؤديه صوت الآلة والإنسان أو الحركة .. وهذا ما يسميه المحدثون بالفن . وهذا الجانب متصل بالذوق والإرادة أكثر . وأما الاستخدام الثاني : بمعنى الصواب ، فهذا ما يُفهم من قولهم : بأن البلاد النامية بحاجة إلى كفاءات فنية أو بحاجة إلى مفنيين للتصنيع ، فهذا الاستخدام يدل على الصواب أي على وجود الخبراء في الزراعة والصناعة والتربية ...

الفصل الثاني

العَمَل

1 – منطلقات العمل :

يبصر الإنسان الأشياء بخلفيته الثقافية وبمواريثه الاجتماعية ، والإنسان وإن كان له عينان يبصر بهما ، إلا أن له بصيرة يفسر بها ما تبصره عيناه . وهذه البصيرة يصنعها المجتمع ، ويأخذها الإنسان منه .

يروى أن صوفياً خرج إلى الصحراء متعبداً ، فرأى في طريقه طائراً أعمى كسير الجناح ، فوقف يتأمل الطائر ، ويفكر كيف يجد رزقه في هذا المكان المنقطع ؛ فلم يمض وقت طويل حتى جاء طائر آخر ، فأطعم الطائر كسير الجناح كما يطعم الحمام فراخه فعجب الصوفي وقال في نفسه : فيمَ أسعى وأتعب ؟ ثم أوى الرجل إلى غار ... وسمع به أحد المتعبدين ، فذهب إليه وقال له : ما حملك على القعود في هذه الغار ؟ فقصّ عليه قصته ... فقال له : ويلك !! لمَ أحبَبتَ أن تشبه الطائر الأعمى ؟! هلاّ فعلت ما فعل الطائر السليم الذي أتى بالطعام ، فتسعى لكسب الرزق لنفسك وغيرك ؟.. فرأى الصوفي صدق هذه النصيحة ، وترك غاره وغدا يسعى كما تسعى الطير التي تغدو خماصاً وتعود بطاناً .

إن المسلم التقليدي لا يرى في مثل هذا المشهد إلا الطائر الأعمى ، ويغيب عنه الجانب الآخر . ومع أن الصوفي في المثال السابق كان شاهد عيان للحادثة ، وكان الثاني سامعاً ، فقد كان اعتبار الأخير بالحادثة إيجابياً : إذ رأى وجه العبرة الصحيح . وهذه الرؤية هي التي يلح عليها القرآن حين يأمرنا بالاعتبار بأحوال من خلوا من قبل ... « أَلَمْ ترَ إلى الملأ مِن بني إسرائيل مِن بعد موسى ... إنَّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » (سورة البقرة – الآيات 245 – 248) . وقد فسَّر اللغويون الرؤية بمعنى العلم ، لأن السامع مثل المعاين في الرؤية والاعتبار . والشاهد في هذه الحادثة أن المسلم الذي يسمع القصة قبل أن يصل إلى نصيحة الرجل الثاني ، يصادف في نفسه إعجاباً بالعبرة التي فهمها الصوفي الذي قعد في الغار .

وقد يدخل شخصان منزلاً ، فيرى كل منهما جانباً لا يشاهده الآخر ، فقد يتأمل أحدهما الدهان المزين للجدران ، بينما يتأمل الآخر وسيلة التدفئة ..

وإذا دخل أشخاص مكتبة ، فكل منهم يلتفت إلى الكتب التي تبحث في أمور تشغل باله ، فيرى أحدهم ما لا يراه الآخر .

كذلك الناس الذين يمشون في الشوارع يلاحظ أحدهم المساجد ، وآخر الملاهي ، وثالث الأماكن التي تباع فيها التحف القديمة ... وهكذا كلٌّ يلاحظ بحسب اهتمامه ويرى مالا يراه الآخر .. إن عيونهم التي في وجوههم تلتقط مثل آلات التصوير كل المشاهد ، ولكن الذي يحضر الأفلام في الداخل ينتقي مشاهد معينة فقط ، وهذا يعني أن وراء عيوننا عيوناً أخرى تقوم بعلية انتقاء . وهذه العيون الخلفية هي لتي يتحدث عنها الله تعالى حين يقول :

« .. فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .. » (سورة الحج : الآية 46) .

« وكأيِّن من آية في السماوات والأرض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون » (سورة يوسف : الآية 105) .

عن التربية هي التي تصنع هذه العيون الخلفية .

وإن القرآن حين يتحدث عن العيون التي لا تبصر من مشاهد الحياة إلا بعض جوانبها ، وتعمى عن الجوانب الأخرى ، فلا ترى إلا ما تريد أن ترى ، أو لا ترى إلا ما أراد لها اختصاصها أن تراه ، فإنه يعظنا وينبهنا ألا تقع بهذا الخطأ الكبير .

فالخلفية الثقافية هي التي جعلت أحد الرجلين لا يرى من المشهد إلا الجانب الأعمى السلبي ، وجعلت الآخر يرى الجانب المبصر الإيجابي . إن مثل هذا التفاوت في الاعتبار يحدث كثيراً في الأفراد ، ويحدث في الأمم إلا أن ما يحدث في الأمم أهم وأعم . وكما أن الأفراد لا يلاحظون من المشاهد إلا بعض جوانب اختصاصاتهم واهتماماتهم ، كذلك الأمم تختص ببعض الجوانب . والذي يعطي المجتمع اتجاهه ليس وجود أفراد قلائل يفهمون الموضوع ، وإنما توفر نسبة مناسبة تعطي مستوى معيناً للاتجاه .

وهذا يفسر لنا استغراب الصحابة الذي ورد في الحديث الشريف : « أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال : نعم ، إذا كثر الخبث »[1] .

وقبل الشروع بتعريف العمل وبيان كيفية حدوثه ، لابد من شرح بعض المفاهيم الأساسية .

أ- التسخير :

من المقرر في كتاب الله ، والمشاهد في الواقع أن الكون مسخر للإنسان ، وأن هذا التمكن من التسخير يزداد بازدياد العلم :

« اللهُ الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخَّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخَّر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلومٌ كفار ... » (سورة إبراهيم : الآيات 34،33،32) .

« وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (سورة الجاثية : الآية 13) .

والتسخير يعني : الخدمة مجاناً[1] ، ولكن هل يخدم الكون الإنسان – في الواقع – مجاناً أم لا ؟

إن الكون يخدم الإنسان مجاناً إذا فهم الإنسان كيف يوجّه الأوامر إلى الكون ، وتزداد قدرة الإنسان على التسخير كلما زاد فهم الإنسان لكيفية توجيه الأوامر إلى الكون – وتوجيه الأوامر : هو معرفة السنن – ودليل هذا أن إنتاج الأرض والحيوان والنبات والحديد .. كل هذا يزداد إذا فهم الإنسان سننه ، أي تزداد طاعة الكون له ، وكأن هذا الكون خقله الله خادماً مطيعاً للإنسان ، ولكن شرط الله على هذا الكون ألا يطيع الإنسان إلا إذا دعاه عن طريق معين ، فإذا دعاه ن غير هذه الطريق فلا يستجيب الكون ويظل معرضاً صامتاً أمام الإنسان . إن الذي لا يعرف كيف يحرك الكون هو إنسان جاهل للنداء الذي يستجيب الكون على نغمته .. وهذا النداء هو كشف السنن واستخدامها .. وكما يستعصي القفل أن يفتح بغير مفتاحه ، كذلك الكون لا يستجيب إلا بعد سماعه كلمة السر .

إن السيارة مهما كانت مستعدة للحركة ، فإنها لا تتحرك مع من لا يعرف فن قيادتها .. بل كل الآلات لا تتحرك للإنسان الذي يجهل كيف يحركها .. وهذا الكون لا يتسخر للإنسان إلا إذا عرف كيف يسخره ، فالشجر مثلاً كان ولم يزل مسخراً له ، ولكن في أول الأمر كان الإنسان يسخره بتناول ثمره دون زرعه ، وبعد أن تعلم الإنسان زرع الشجر ، زادت الأشجار وسائر النباتات من طاعتها للإنسان . وكذلك الحيوانات بعد أن كانت ثروة للصيادين ، عرف الإنسان طريقاً آخر يسخر به الحيوان ويجعله أليفاً ذا فوائد أكبر وأكثر ..

فالتسخير يزداد بازدياد العلم ، ولقد رأيناه – بوضوح – فيما سبق في آيات الآفاق التي تسمى (تكنولوجيا) . وأما التسخير في آيات الأنفس فهو أقل وضوحاً ، ومن تأمل قوله تعالى :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الرعد : الآية 11) .

يدر التسخير بالوضوح نفسه أيضاً .

إن اكتشاف التسخير في آيات الأنفس يهدي إلى إمكان تسخير سنن الأنفس حتى يصل الإنسان حين يذكر أخاه بسوء إلى مرحلة النفور التي يشعر بها من يأكل لحم أخيه ميتاً :

« ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ؟ » (سورة الحجرات : الآية 12) .

---

[1] رواه البخاري في كتاب الفتن .

[1] جاء في مختار الصحاح ، سخرّه تسخيراً : كلفه عملاً بلا أجرة .

إن الهدف الذي يضعه الله للإنسان في هذا التشبيه مدعم بواقع التاريخ ، فالإنسان قد بلغ درجة النفور من أكل لحم الإنسان الميت ،ولكن هذا العالم المتمدن – نسبياً – لا يزال يجد من التلذّذ والتّلمظ في الغيبة – أي في ذكر الآخرين بسوء – ما يجده الإنسان في أكل لحم الضأن الغض ، بل ما كان يجده الإنسان البدائي في أكل لحم أخيه الإنسان أيضاً كما هو مسجل في التاريخ وإلى عهد ليس ببعيد في بعض المناطق من العالم ... فإذا كنت اليوم تجد نفوراً من أكل لحم الإنسان ، فلا يرجع ذلك إلى ذكائك مزاياك الخلقية ، وإنما يرجع إلى التربية ، وما عانته الإنسانية في الوصول إلى هذه المرحلة .

والآن ينبغي أن نتصور كيف تكون النقلة حتى يصير الناس يرون ذكر مساوئ الناس واغتيابهم شيئاً سيئاً ومنفّراً ، مثل ما يُرى أكل لحم الإنسان . ونفور الإنسان من أكل لحم الإنسان يظل كما هو منفراً ومقّززاً ، بحيث لا يقلل سوء الإنسان وفساده من هذا النفور شيئاً ، وكذلك ينبغي أن لا يكون سوء الناس وفسادهم مبرراً لما يجده الناس من الارتياح في اغتياب بعضهم بعضاً . ليس قصدنا هنا أن نعطي الآخرين موعظة في الأخلاق ، وإنما نريد الإشارة إلى القانون الخلقي الذي يمكن من رفع مستوى الإنسان والانتقال به من شيء سبق أن تجاوزه كثير من الناس ، إلى مجال آخر لا يكاد يستطيع أن يتجاوزه قليل من الناس ، وأن في الإمكان أن يصير هذا مثل ذاك .. كما يمكن تصور خَلْق آخر وراء ذلك .. كما قال تعالى : « ويخلق مالا تعلمون » (سورة النحل : الآية 8) .

وهكذا يمكننا أن نقول :

إن التسخير يأتي نتيجة العلم بسنن الله في خلقه ، فالعلم والتسخير والسنة (القانون) ، أمور مرتبطة بعضها ببعض . فالسنة قانون الله ، والعلم هو معرفة هذه السنن ، والتسخير نتيجة هذه المعرفة .

ومن هنا نعرف أهمية العلم ، فإذا فهم المسلم معناه جيداً ، فسيشهد هذا العلم بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر وضرورتهما ، كما شهد العلم بصدق قوانين الجاذبية ، حيث تمكَّن الإنسان من التعامل معها ورؤية عاقبة هذا التعامل ، وكيف أن من يخرج على قوانين الجاذبية ويحاول أن يقفز من السطح أو الطائرة دون أن يراعي قوانين الجاذبية فإنه يتحطم ...

إن العلم اليوم يشهد بالقوة نفسها لعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ،كما يشهد التاريخ أن الذين لا يراعون قواعد الإيمان بالله واليوم الآخر يتكسرون ويتحطمون ،كما يتكسر الذين يقفزون من الطائرات ومن الأسطح ، دون مراعاة قوانين الجاذبية . كذلك المجتمع الذي لا يأمن الإنسان فيه بوائق جاره ، أو يعقّ الأبناء فيه والديهم ، أو لا يراعي الناس فيه الحقوق والواجبات التي أمر الله بها في علاقات الناس بعضهم ببعض ، فإن هذا المجتمع يتكسر بسبب خروجه على قوانين الأخلاق أو قوانين الله في البشر ،كما يتكسر الذي يخرج على قانون الطبيعة في الجاذبية والاحتراق .. وصدق الله إذ يقول :

« شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » (سورة آل عمران : الآية 18) . فإذا كان للجاذبية قانونها ، فإن للأخلاق قوانينها ، وللإيمان قوانينه أيضاً . وكما يعاقبُ الذين يخالفون قوانين الجاذبية ، كذلك وبالصرامة نفسها يعاقب الذين يخالفون قوانين الأخلاق والإيمان . وإذا اعترى أحداً نوع من الشك ، فالسير في الأرض والنظر إلى العواقب يزيل الشك ، وإذا لم نكن من يسير في الأرض فلنقرأ م وصل إليه الذين ساروا ورأوا ...

« سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » (سورة النمل : الآية 69) .

وكلمة السر التي تجعل الكون مستنفراً لخدمتنا ، يبدأ الحصول عليها باستخدام السمع والبصر والفؤاد ، وإن الذين لا يستخدمون أجهزة الوعي التي منحها الله لهم ، لا يسخر لهم الكون ، بل ينظر إليهم بسخرية لاذعة ولو قُدرٍ له أن يتكلم لقال لهم : كيف أتسخر لكم وانتم لا تزالون مثلي ؟ ولم تستخدموا مزاياكم (السمع والبصر والعقل) التي ميزكم الله بها عن سائر المخلوقات .

إن استخدام هذا الجهاز الثلاثي هو الذي جعل الإنسان خلقاً آخر غير بقية المخلوقات :

« ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (سورة المؤمنون : الآية 14) .

هذه هي الأمانة التي عرضها الله « على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلموا جهولاً » (سورة الأحزاب : الآية : 72) ؛ ظلوماً إن لم يستخدمها ، وجهولاً إن لم يعرف قيمتها العجيبة . لهذا يحث القران كثيراً على استخدام السمع والبصر والفؤاد ، وحسبك قوله تعالى :

« ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » (سورة الإسراء : الآية 36) .

وكما يجب على كل فرد أن يستخدم في هذه اللحظة هذا الجهاز لنجاته في الآخرة ، فإنه يجب على البشرية وعلى الدوام أن تستنفر هذا الجهاز لنجاحها في الحياة الدنيا . وميزة هذا الجهاز أنه يكشف سنن الكون فيتسخر للإنسان . والأهم من ذلك أن يكشف سنن النفس الإنسانية ؛ ولهذا كأن حديث القرآن عن سنن الكون مجملاً ، بينما حديثه عن سنن الإنسان ونفسه مفصلاً . وإن التاريخ الحقيقي لا يبدأ من تسخير الكون الخارجي ، بل من تسخير الكون الداخلي حين يرجع الإنسان إلى نفسه .

« وفي أنفسكم ... أفلا تبصرون !!!؟ » (سورة الذاريات : الآية 31) ، « قل هو من عند أنفسكم » (سورة آل عمران : الآية 165) ، « حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة العد : الآية 11) .

ونريد أن نحدق في المشكلة أكثر ، لنضع الموضوع تحت المجهر ونكشف سننه ، لعلنا نزيد علمنا بالمشكلة ، فإن زيادة العلم زيادة في القدرة والإرادة .

عن هذه الكلمات التي قدمتها ، كالنبتة تبدأ نحيفة لينة ، إلا أن فيها شوق الحياة لإثبات الذات ، وأرجو أن تصير معالم هذه القارة المجهولة معلومة ، وإنني حين اسميها القارة أحط من قدرها كثيراً ، فهي ليست قارة بل هي أم القارات ، وليست من قارات الأرض وإنما رأس الحربة في هذا الكون الذي خلقه الله ، وهي موضع سره تعالى الذي جعله قبلة ملائكته ، حين أمرهم بالسجود لهذا الإنسان في ذلك اليوم المشهود حيث قال :

« إني جاعل في الأرض خليفة ... » (سورة البقرة : الآية 30) .

إلا أن الملائكة تنبأت لهذا الخليفة بالإفساد في الأرض وسفك الدماء :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » (سورة البقرة : الآية 30) .

واحتارت الجن في أمره : « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » (سورة الجن : الآية 10) .

واستهان إبليس به ، وازدرى أمره لما رآه مخلوقاً من طين ، فامتنع عن السجود له : « قال أأسجد لمن خلقت طيناً ؟! » (سورة الإسراء : الآية 61) ، « لأحْتَنِكَنَّ ذريته إلا قليلاً » (سورة الإسراء : الآية 62) .

ولكن الله سبحانه وتعالى حكيم فبيَّن الأمر بقوله :

« هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (سورة الحجر : الآيتان 41،42)

وقد جعل الله هذا الإنسان آية عظمته ودليل قدرته حين علّمه ما علّمه : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » (سورة البقرة : الآيتان 31،32) .

ولكن الإنسان ما يزال حتى اليوم يحقر نفسه مع ما وضعه الله فيه من القدرات ، وما يزال عند الذي توقعته الملائكة من إفساده في الأرض وسفكه للدماء مع ما زوده الله به بما يؤهله لأداء الأمانة والقيام بأمر الخلافة ، وبلوغ الكمال الذي أراده الله له .

وإن الإنسان اليوم ما يزال يعيش أزمة الثقة بالإنسان وأزمة تحقير الإنسان مع ما أراده الله له من تثبيت الثقة بقدرته ، وذلك بما وضعه فيه وهيأه له ، وهذا النظر الذي يعرض به القرآن وضع الإنسان يوحي بالثقة بمستقبل الإنسان ، وانه سيحقق ما علمه الله فيه وجهلته الملائكة .

ولكن البشر إلى الآن لا يثقون بالإنسان ولا يرون غيه إلا ما رأته الملائكة والجن ، ولن يتمكنوا من إدراك إمكانية تحقيق علم الله بالإنسان إلا بمعرفة التاريخ ورؤية أمثلة لخروج الإنسان من حالات شاذة إلى الحالة السوية ، من مثل انتقال الإنسان من أكل لحم أخيه ميتاً إلى التقزز من هذا الأمر . فمن خلال معرفة آيات الله في الآفاق والأنفس ، والتبصر في التاريخ ، وكيف بدأ خلق الإنسان والمراحل التي قطعها عبر التاريخ ... إن من يبصر هذا كله يمكن له أن يرى من خلال الغلالة الكثيفة من عثرات الإنسان ، وإحرازه بعض النجاح في اجتياز العقبات ؛ يمكن أن يستشف من المستقبل ما يجعله يتأمل قوله تعالى : « إني أعلم مالا تعلمون » بان الإنسان سيتغلب على توقعات الفشل ويحقق ما علمه الله فيه .

وكان محمد إقبال يعيش هذه المعاني ،فيقول – في قصيدته شكوى وجواب شكوى – داعياً ربه للمسلمين : « أفهمهم يا رب ما ألهمتني ، واعد إليهم يقظة الإيمان »[1] ، ويرفع شكواه المحزنة عن واقع المسلمين إلى رب العالمين ، فتصور جواب الله تعالى له :

« يا هذا إن قصتك لشجية محزنة ، فقد أبلغتَ شكواك ، فأثبت قدرة الله فيك »[2] .

كان إقبال بهذه الأمثلة يريد أن ينبه المسلم إلى القدرات المودعة في هذا الإنسان – والتي ينبغي أن يثيرها ويستخدمها – عاجزاً ولكنه يحمل في صبغيات جسمه ما أودعه الله فيه من إمكانات وقدرات .

إن في أعماق الإنسان هندسة ما علمه الله فيه وجهلته الملائكة « إني أعلم مالا تعلمون » (سورة البقرة : الآية 30) .

ألم تكن القراءة والكتابة قدرة كامنة في بنيان الإنسان ؟ فحين استخرجها عن طريق استخدام السمع والبصر والفؤاد ، وأصبح قارئاً وكاتباً بالفعل ، خرج إلى عهد جديد في الحياة .

أوليست في هذا الإنسان قدرات أخرى كامنة لا تقل عن القراءة والكتابة ، إذا استخرجها صعد في مدارج الكمال ، وأثبت قدرة الخالق فيه ؟ . وهذا لا يتم إلا بحسن استخدام السمع والبصر والفؤاد التي إن عطلها الإنسان ارتد إلى اسفل سافلين بعد أن خلقه الله في احسن تقويم حين أودع فيه ما أودع من الإمكانات والمواهب .

ب– انظروا كيف بدا الخلق ؟

« قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ؟ » (سورة العنكبوت : الآية 20) .

لِمَ يأمرنا الله أن ننظر كيف بدا الخلق ؟ كيف نصبت الجبال وتكونت على ظهر الأرض كالأوتاد مغروسة في باطنها شامخة على ظهرها .. ؟

هل يمكن أن ننظر كيف بدأ نصب الجبال ؟

وكيف خلقت الإبل برؤوسها الصغيرة ورقابها الطويلة وجهازها الهضمي وأخفافها ؟

وكيف بدأ الله خلق هذه الأجهزة ، وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه ؟

وكيف بدأت اللغات والمجتمعات ؟ وكيف بدأ تكوّن القوانين والنظم والثقافات ؟

وكيف بدأت الحياة الأخلاقية عند الإنسان ؟

---

[1] شكوى وجواب شكوى . فلسفة إقبال تأليف الأعظمي والصاوي طبع القاهرة 1950 ص 92 .

[2] المرجع نفسه ص 94 .

وكيف ... وكيف ... ؟

لِمَ يأمرنا الله بالنظر إلى كيف بدأ الخلق من الذرة إلى المجرة ؟ ومن الإبرة إلى الصاروخ ؟ ومن عطف الأم إلى المودة بين الزوجين ؟ ... إلى الأشياء في مستوى المجتمعات ؟ ...

يأمرنا بذلك كله حتى نعرف كيف نسخر الكون ، وكيف نشكر ...

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » (سورة السجدة : الآية 9) .

ويبين الله لنا الزوجية في خلق الإنسان وفي كل المخلوقات المادية والمعنوية فيقول :

« ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلك تذكّرون » (سورة الذاريات : الآية 49) .

الخلق كله في نموه وتغييره من الأزواج ، والخالق هو الله الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد . فكل مخلوق من زوجين : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (سورة يس : الآية 36) . فالمادة ، والنبات والحياة ، وأمور لا نعلمها ، كلها من الأزواج . ففي مستوى المادة : تتألف الذرة من السالب والموجب ، والنبات من كل زوج بهيج « فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى » (سورة طه : الآية 53) .

فمن الأزواج يكون الميلاد ، والمواليد لها آباء وأمهات ، وكذلك فإن خصوبة الحياة الفكرية تنتج من المقارنة بين فكرتين حيث تتولد فكرة جديدة ... وكذلك الحياة العملية تتولد من القدرة والإرادة .

قال ابن تيمية : (قال الله تعالى : ومن كل شيء خلقنا زوجين » (سورة الذاريات : الآية : 49) ، والزوج يراد به النظير المماثل ، والضد المخالف ، وهو الندّ ، فما من مخلوق إلا وله شريك وندّ ، والرب سبحانه وحده هو الذي لا شريك له ، بل لا يصدر من المخلوق شيء إلا عن اثنين فصاعداً ، وأما الواحد الذي يفعل وحده فليس إلا الله ، فكما أن الوحدانية واجبة له لازمة له ، فالمشاركة واجبة للمخلوق ولازمة له)[1] .

2- كيف يتولد العمل ؟

وهنا علينا أن ننظر كيف بدا خلق العمل ؟ ومن أي شيء يتولد ؟ وما أصله ؟ ومن أبواه ؟ وما تعريفه ؟ ..

أ- تعريف العمل :

العمل : حركة بقصد ، ولا نسمي الحركة بغير قصد عملاً ، فحركة الشمس والرياح ليست عملاً ، وغنما جريان مثل جريان النهر : « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (سورة يس : الآية 38) . ولكن العمل القاصد وعمل المريد وعمل الإنسان ، هو الذي يسمى عملاً :

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » (سورة النحل : الآية 97) ، « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط » (سورة يونس : آتية 4) .

فإذا كان تعريف العمل : حركة بقصد ، فإننا نستطيع القول :

إن العمل حركة وقصد ؛ وبتعبير آخر نقول : هو قدرة وإرادة .

إن الحركة وحدها بدون قصد تكون كحركة الجمادات ، التي هي حركة قدرة ولكن لا إرادة فيها ، ولا يمكن تصور الإرادة الواضحة إلا في مستوى الإنسان ، فإذا نظرنا إلى أعماله الجليلة منها والصغيرة ، نراها مكونة من القدرة والإرادة ، ولا يتولد العمل لا إذا وجدتا معاً . فالجمادات تتحرك بغير إرادة ، ولكن الإنسان لا يتحرك إلا بإرادة ، ولا تتصور منه أن يتحر بغير إرادة إلا إذا كان نائماً يمشي .

---

[1] ابن تيمية – الفتاوى – ج2 – ص36 .

ونحن لا نستطيع أن نتصور حركة بغير قدرة ، فحركة الغصن قدرة لأن القدرة طاقة ، فحركة الغصن من الهواء ، وحركة الهواء طاقة ، وسقوط الورقة من الشجرة قدرة ، لأن السقوط لا يتم إلا بفعل الجاذبية ، فالجاذبية طاقة ، ولكن لا نتصور في حركة الغصن أو في سقوط الورقة إرادة ، لأن الغصن لم يرد الحركة ، والورقة لم ترد

السقوط . ولكن إذا رأينا إنساناً يمشي ، فإننا نعرف أنه يستخدم طاقة في مشيه ، إلا أننا لا نستطيع أن نتصوره يمشي من غير قصد ومن غير رادة ، فهو يمشي إلى شيء يريد أن يصل إليه ، ولو من أجل أن يسري عن نفسه ويقطع الملل ، أو يحرك أعضاءه ، فإن له في المشي قصداً . ولكن لا يمكن أن نتصور المشي بالقصد وحده ، فإنه مهما كان يريد المشي ، لا يمكن أن يحدث إن لم يكن قادراً عليه ، لأن الطفل الصغير لا يستطيع أن يمشي مهما أحب المشي ، وكذلك المريض العاجز لا يقدر مهما اشتاقت نفسه إلى السير في الأرض ، فلابد لحركة العاقل من أن تتوافر فيها القدرة والإرادة معاً .

ب- أركان العمل :

نظرنا إلى الموضوع من ناحية البدء ، وهو أن العمل يتولد من القدرة والإرادة ، ولكن هل يوجد العمل ضرورة إذا وجدت القدرة والإرادة ؟ .

إن البحث في هذا الموضوع يوصل إلى أن العمل لابد أن يوجد ضرورة إن وجدت القدرة والإرادة[1] ، ويكون على تناسب يوافق نسبتهما ارتفاعاً وانخفاضاً وانعداماً ، فإن ارتفعت القدرة والإرادة إلى درجة الكمال ، كان العمل في درجة الكمال؛ وإذا انخفضتا انخفض العمل ؛ وإذا انخفض أحدهما أو انعدم ، انخفض العمل بدوره أو انعدم . وهنا أشعر بضرورة التأكيد على فهم هذا الموضوع ، وأن لا نمر فيه بتسليم غير مبالين ؛ كأن هذا تطويلٌ لا لزوم له ، أو فلسفة لا داعي لها ، فلهذا قد يقول القارئ لمَ الإلحاح في هذا الموضوع ؟

أجل .. إني ألحّ على نقطة في هذا الموضوع ، لأنني أريد أن أبني عليها أشياء هامة ، وكيف لا يكون هاماً وأنا أريد أن أبحث من خلاله مشكلة العالم الإسلامي ، بل ومشكلة العالم أجمع ؟

الأمر جديّ ، وأجَدُّ ما فيه أننا ينبغي أن نعلم كيف تبدأ الأمور ؟ وكيف تسير ؟ بل علينا أن نعلم بدأ الخلق ؟ وكيف بدأ خلق الإنسان العجيب المكرم صاحب الشأن من سلالة من ماء مهين ؟ إنما بدؤه من ماء مهين ، ولكن مصيره إما إلى احسن تقويم ؟ وإما إلى اسفل سافلين .

إن مشكلة العالم الإسلامي ، تبدأ بكل تواضع من قدرة وإرادة . وكما يبدأ الجنين من تلاقح الحوين والبويضة ، كذلك العمل يتولد من تلاقح القدرة والإرادة ، فلولا هما لما وجد الإنسان ، ولولا هما لما وجد العمل الصالح وقد خلق الإنسان ليعمل صالحاً .. فما أحرانا أن نتعلم أركان العمل الصالح . فإن كان علينا أن ننظر من أي شيء خلقنا ؟ « فلينظر الإنسان مم خلق » (سورة الطارق : الآية 5) ، فإن علينا أن ننظر إلى هذا الذي يقرر مصيرنا – العل الحسن – وينقذنا من الهلاك إلى النجاة :

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ؟ » (سورة الملك : الآية 2،1) .

علينا أن نفهم جيداً أركان العمل الصالح وإجادته ، وأنه لابد لنا نعرف أولاً وقبل كل شيء أن العمل يتولد من القدرة والإرادة سواء أكان سيئاً أم حسناً ، لأن الإرادة هي التي توجه العمل ، وليست القدرة ، وأن كانت الإرادة تستعين بالقدرة في تنفيذ قصدها ، فكذلك تستعين الإرادة بالقدرة في توجيه العمل إلى الأحسن . ولابد لنا أن نحدق في هذه العملية .

---

[1] راجع كلام ابن تيمية في ص 13 .

هل يوجد العمل كلما وجدت القدرة والإرادة ؟ نعم .. إذ لا يمكن تصور عمل من غير قدرة وإرادة، فلا عمل بدونهما ، وبوجودهما لا يمكن أن يفقد العمل[1] .

وقبل أن نسأل ما القدرة ؟ وما الإرادة ؟ علينا أن نتصور جيداً أنه بغيرهما لا يمكن أن يتم أقل عمل ، ولا يمن أن نتصور سعي الإنسان بغير هدف ، كذلك لا يمكن أن نتصور سعياً بغير قدرة .

قيامك لإطفاء المصباح يتكوّن من قدرة وإرادة .. القدرة على أن تقوم وتمد يدك لتضغط على المفتاح ، وإرادتك لإطفاء النور سواء كان ذلك لطلوع النهار أم لإرادتك النوم ، أو التجربة أو اللعب . إذا تصورنا العمل في مستوى إطفاء المصباح ، فانه يحتاج إلى إرادة وقدرة . فكيف نتصور العمل الذي نريد أن ننشئ به مجتمعاً على هدف معين بدونهما ؟ ! .

إن طبيعة العملين واحدة ، وإن تفاوتا في الحجم ، فكل واحد منهما يتكوّن من القدرة والإرادة . هنا هدف وهناك هدف ، إطفاء المصباح أو إيقاده ، إنشاء مجتمع أو هدمه ، واليد تمتد حسب أمر العقل لإطفاء المصباح أو إيقاده ، وتمتد حسب أمر العقل لبناء المجتمع أو هدمه .

وهنا أريد أن ألفت النظر إلى جانب في هذا المثل : إن الذي يمد يده ليطفئ المصباح أو يضيئه ، قد لا يعرف أو لا يتذكر كيف وصل الإنسان إلى أن جعل المصباح بهذا المستوى ، وقد لا يعرف كيف اكتشفت الكهرباء ، وكيف يسعى أهل الفن إلى تحسين نوع المصابيح والمفاتيح ؟ وقد لا يعرف ولا يخطر في باله كيف عاش الإنسان في كهفه قبل أن يعرف النار ؟ وقد لا يعرف أنه بوجد الآن من البشر من لم يروا نور الكهرباء ولا مصباحه ؟ كما لا يعرف الفرق بين الإنسانيين : الذي لا يزال في الكهف والذي يعيش الآن مع الكهرباء . نعم كان إنسان الكهف يمكن أن يتمتع بضوء المصباح ، ولكن لم يكن يقدر أن يصنعه ، وهذا هو الفرق بين المنتج والمستهلك .

كذلك قد لا يعرف الفرق بين المجتمع الذي يمنح الضمانات للأفراد الذين يعيشون فيه ، وبين المجتمع الذي يترك أفراده لجهدهم الخاص ، أو لا نعرف الفرق بين المجتمع الذي يكرم فيه المحسن ، ويعاقب المسيء ، والمجتمع الذي يَذِلُّ الناس فيه للمسيء ويعاقب المحسن .

وكما نحب أن يكون المصباح المضيء في منازلنا ، نحب المجتمع الذي يرتفع فيه قدر الإنسان ، ويتعلم فيه أداء واجباته . وكما أنه لا يمكن أن تتمتع بخدمات الكهرباء إلا إذا توفر المهندسون المختصون ، كذلك لا يمكن أن نتمتع بحماية المجتمع الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إلا إذا توفر خبراء ومهندسون يعرفون كيف ينشأ المجتمع ويؤدي وظيفته ويحافظ على بقائه ونموه .

وأريد هنا أن أبين مستويين من العمل يتولد كلاهما عن القدرة والإرادة . عمل في مستوى إطفاء مصباح ، وعمل في مستوى إنشاء مجتمع ، أو بتعبير آخر : عمل يتعلق بمستوى المادة (الآفاق) ، وعمل يتعلق بالبشر (الأنفس) . وللعمل في مستوى الأنفس مستويات أيضاً : عمل في مستوى الفرد كزيارة جار لجاره ، وعمل في مستوى المجتمع كالتقاء مجتمع بمجتمع آخر .

ويمكن أن نلاحظ العمل المتصل بالأنفس من جانب آخر كأن نرى العلاقة بين الأفراد أرفع أخلاقياً من العلاقة بين الدول ، فالعلاقة بين الأفراد لا تخضع لقوة العضلات أو المركز الاقتصادي ، بينما علاقات الدول لا تزال أسيرة لهذه الاعتبارات ، بحيث يصعب أن نرى من يشذ عن هذه القاعدة . هذه أعمال في مستويات مختلفة ، ولكن وراء كل منها قدرة وإرادة تتناسبان مع الحجم والنوع ، فإذا أردنا أن نؤثر في هذه الأعمال ونوجهها إلى الأحسن ، فلابد لنا أن نزيد معرفتنا في القدرة والإرادة ؛ وبناء على هذا يمكن أن نتابع القول : هل كلما وجدت القدرة والإرادة يوجد العمل ؟ وهل لنا قدرة على صنع الإرادة والقدرة أم لا ؟

---

[1] وفي هذا يقول ابن تيمية : « الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ، ضرورة . » .
الفتاوى – ج7 – ص 541 .

يمكن القول : كلما وجدت القدرة والإرادة وجد العمل ، ولا يمكن أن يظل الإنسان قاعداً مادام قد وجدت عنده الإرادة والقدرة ، فهو لا يستقر مادام يرى هدفه ووسيلته . إن الأسلوب العلمي التجريبي يثبت هذه القاعدة ، وقد لا أنجح كثيراً في هذه الأمثلة التي أعرضها ، بل يمكن للقارئ أن يجد أمثلة أوضح ، لأن كل أعمالنا خاضعة لها ، حيث يتفاوت الناس في قدرتهم على اختيار المثل الأقرب والأوضح .

وسنرى أركان العمل من خلال عمل معين وهو أداء فريضة الحج :

إن الإنسان – بالنسبة لهذا العمل – لا يخرج عن أربعة أحوال :

1– إنسان لديه القدرة – وسائل السفر من الزاد والرحلة – ولكن لا إرادة عنده للذهاب إلى الحج ، فهو لا يمكن أن يستخدم وسائله وقدراته لهذا العمل .

2– وآخر عنده الشوق والاحتراق والإرادة للذهاب ، ولكن لا يملك ما يسافر به . وهذا أيضاً لا يتمكن من القيام بهذا العمل لأنه يفقد الوسائل .

23– وإنسان ثالث ، ليست عنده القدرة وليست عنده إرادة الحج ، بل لا يخطر في باله أن يذهب إلى الحج ، وهذا من باب أولى أنه لا يؤدي هذه الفريضة .

4– والرابع متشوق للذهاب إلى الحج (توفرت الإرادة لديه) ويملك الزاد والوسيلة (عنده قدرة) ، فهذا لا يمكن منعه من الحج إلا إذا سلب منه أحدهما أو كلاهما . وكذلك الأول والثاني والثالث لا يمكن أن نجعلهم يحجون إلا إذا أوجدنا عنده الأول إرادة ، وعند الثاني قدرة ، وعند الثالث إرادة وقدرة . ود يتفاوت الناس – تفاوتاً لا يمكن أن يدخل تحت الحصر والانضباط – في درجة ما عندهم من القدرات والإيرادات وما ينقصهم منها ، ومع أنه لا يمكن ضبط التفاوت فإننا نستطيع القول : إذا وجدت القدرة والإرادة وجد العمل بحسبهما ، وإلا لما احتاج الثلاثة الذين خُلِّفوا أن يتوب الله عليهم فقد جاءهم النقص من الإرادة ، إذ لا يؤاخذ المؤمن على العجز الحقيقي عن القدرة إذا وجدت الإرادة – وهذا بحث آخر – وقول الله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غنيٌ عن العالمين » (سورة آل عمران : الآية 97) . يعني أن الإنسان ما دام مؤمناً فينبغي أن تكون له الإرادة ، فإذا فقد الإرادة أصلاً فقد كفر ، ومن فَقَدَ السبل فَقَدَ أحد ركني العمل ، وعمل هذا الإنسان لا يتحقق ، ولكن يعذر وهذا أمر آخر أيضاً .

من المثال الذي سقناه آنفاً ، علمنا أن العمل يوجد إذا وجدت الإرادة والقدرة ، ويفقد العمل إذا فقدتا أهل فقدت إحداها . والمسألة رباعية ، واحدة إيجابية وثلاثة سلبية ، فعند ما يوجد عمل يعني أنه وجدت قدرة وإرادة ، وإن فقد العمل فإحداهما أو كلتاهما مفقودة ، وعند هذه النقطة يجب أن نبحث عن الشيء المفقود لنوجد العمل الحسن .

الفصل الثالث

الإرادة

بعد أن تكوّن لدينا فهم أولي أن العمل لا يوجد إلا بوجود القدرة والإرادة معاً ، علينا أن نقف عند كل منهما لنعرفهما أقرب ما يكون من الواقع والصواب .

1– مفهوم الإرادة :

الإرادة : أن تريد الشيء وترغب فيه .

والسؤال هنا : كيف نستطيع تصور الإرادة عند الإنسان ؟ هل هي عضو في الإنسان ؟ أم وظيفة ؟ وكيف يمكن تصور فقدها ؟ الإرادة وظيفة مثل الرؤية والشم والإحساس بالصوت ... وإذا كان الأنف عضو وظيفة الشم ، وعضو الرؤية العين ، وعضو الإرادة عند الإنسان ؟ لكي نفهم هذا علينا أن نفهم المثل الذي نقيس عليه ، وهو الشم . يشم الإنسان الرائحة إذا وصلت جزئياتها إلى أنفه ، فيقبل الزكية منها وينفر من الكريهة بالفطرة ؛ ما لم تكن حاسة الشم قد فسدت لديه لمرض أو غيره . ومثل الشم التذوق والسمع والبصر ، وإن كان الأمر في السمع والبصر أرقى وأدق . وكذلك الأمر بالنسبة إلى الإرادة : إذ يعرض الشيء الحسن أو القبيح على العقل فيقبله أو يرفضه . إن الإرادة وظيفة العقل الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوانات فكما تقبل حاسة الشم الروائح الطيبة وتريدها ، كذلك يتقل العقل الأفكار الطيبة والأعمال الصالحة ويريدها ، وكما يقبل تلك بالفطرة يقبل هذه بالفطرة أيضاً . وكما يمكن أن تفسد تلك فيصير الإنسان يتلذذ برائحة الفسيخ[1] ، يمكن أن تفسد إرادته فيتلذذ بالأفكار الضالة والأعمال الفاسدة . إلا أن الذي يكون على الفطرة إذا عرض الصواب عليه – دون أن يفسد ذوقه – فإنه يميل إلى الصواب ؛ كما يميل الحديد إلى المغناطيس دون أن يحول بينهما مانع ؛ وقد يكون التشبيه غير موفق إلا أنه مقرب إلى حد ما .

وإفساد الإرادة ممكن ، لهذا يقول الرسول ρ :

« ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ويمجسانه وينصرانه ... »[2] .

فالوليد يولد على الفطرة في سمعه وبصره وشمه وذوقه وإرادته للخير ، ولكن يمكن أن يلقّن بعض الأمور الفاسدة حتى يراها حسنة :

« أفمن زين له سوء عمله ، فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون » (سورة فاطر : الآية 8) .

إنه لأمر مهم أن يفهم الإنسان جيداً مسألة الفطرة ، كيف يمكن إفسادها أو المحافظة عليها ، لأن هذا مرتبط بقابلية الإنسان لأن يكون في احسن تقويم ، أو أن يرتد إلى اسفل سافلين .

الموضوع مهم ، والجهاز دقيق ، والأمانة ثقيلة ينبغي الاستنفار للمحافظة على سلامتها ، وإن وراء حواس الإنسان الجهاز الأعجب ، إنه العقل أو الخلق الآخر الذي قال الله عنه :

« ثم أنشأناه خلقاً آخر » (سورة المؤمنون : الآية 14) ...

وهو غير المخلوقات المعهودة ، فليس له مثيل في الوجود . هذا اعقل الذي يفسر الحواس ، ويميز الأسود من الأبيض ، ويرى الحلل بيّنا ، والحرام بيّنا ، ويميز القبيح من الحسن ؛ وكما أنه لا تستوي الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور ... كذلك لا تستوي الحسنة والسيئة .

الإرادة باعث باطني عند الإنسان يتولد من رؤية الشيء الحسن كما يتولد الميل إلى الرائحة الزكية ، والنفور من النتن ؛

لهذا إذا عرضت الأفكار والأعمال على الإنسان الفطري – خالي الذهن من التجارب السابقة – فإن له القدرة على أن يختار أفضلها .

وهذا هو الرصيد الأساسي عند الإنسان ، حتى إذا فسدت فِطَرُ الناس وتنازعوا في فهم الصواب يبقى لدى الأجيال الناشئة هذا الرصيد ، ويجعل من الممكن أن يخرج من بينهم من يختار أفضل الأفكار التي يسمعها ، وهذه القدرة دائمة تتجدد مع كل مولود ، ولذلك فإن الباطل في عرض أفكارهم وآرائهم حتى لا تفسد فِطَرُ الناشئة . وعلى فرض أن الباطل قد سبقهم ، فهذا

---

[1] سمك متعفن يأكله بعض المصريين في عيد يسمى شم النسيم .

[2] أخرجه الإمام مسلم في كتاب القدر .

السبق ليس نهائياً ، حيث أن إمكانية العودة وإظهار الحق لا تزال باقية ؛ وإلا لما أمكن نشر الأديان والآراء التي كان يعارضها أهل زمانها كلهم ، وإن التاريخ والفطرة مع أهل الحق حين يعرف أهل الحق حقهم ، وحين يعرفون مزاياه .

وأثناء كتابة هذا الموضوع كانت تثور في ذهني أمور شتى وشبهات ، إلا أنني أيضاً اعتمد على ذكاء القارئ وقدرته على إدراك هذه الموضوع لا رجاء أن يكملها ، أو يعرف أمثلتها الكثيرة جداً .. وهذا يجعلني أكتفي بالإشارات التي ربما تقضي الوقفات ...

إذن : الإرادة هي اختيار العقل ، وحين أقول العقل : أعني جهاز التمييز عند الإنسان (السمع والبصر والفؤاد) . وقد يتدخل في سلامة الإرادة الشعور واللاشعور ، ومؤثرات الطفولة والبيئة ؛ ومع ذلك فإن العقل قادر – حين يستخدم استخداماً سليماً – أن يميز الخطأ من الصواب ويعرف أدلة الخطأ والصواب ؛ وبذلك تستمر سلامة الإرادة في المحافظة على سلامة جهاز المعرفة في الإنسان .

كثيراً ما تستعمل كلمة الإرادة ونصفها بالحديدية تارة والصلبة تارة أخرى ، إلى آخر هذه الأوصاف ؛ إلا أن هذه الأوصاف لم تعد تشبع رغبتي في الفهم . فأنا أريد أن اعرف كيف تُصنع الإرادة الحديدية أو الصلبة من الألف إلى الياء ؟ وكيف يفقد الإنسان الإرادة ؟ وكيف تضعف الإرادة ، وتموت ؟ فإذا عُرف منشأ الإرادة وكيف تضعف ؟ وكيف تقوى ؟ عندها تُخلق عندنا إرادة للمحافظة على الإرادة بأسلوب علمي عملي ، لا بأسلوب الأماني والأحلام والقعود والانتظار رجاء حدوثها بنفسها . وكل شيء لا نعرف كيفية حدوثه ونرده إلى الله دون أن يكون لنا دخل في حدوثه أو تغييره – بمعنى لم يعطنا الله سلطان تسخيره – فإنني أعاف البحث فيه . أما إذا أدركت المكان الذي يكون فيه جهدي مؤثراً ، فعندها أكون قد حصلت على ما يخلب لبي ويثير اهتمامي . لهذا إذا أردت أن تثير إرادة إنسان فعليك أن تريه الجانب الذي يستطيع أن يؤثر فيه ويكون له دخل في حدوثه ، أما الجانب الذي لا دخل فيه ، ولا يمكن أن يكون جهده مؤثراً فيه ، فإنه لا يستطيع أن ينشط إليه ، ولا أن يوجه إرادته نحوه .

وهنا لابد من ملحوظة .. وهي أن هناك أمور لا نعرف كيفية حدوثها ، ولكن لا يؤثر في إرادة الإنسان . قد لا أعرف سر علاقة الأسباب بالنتائج ، أعني علاقة : لم يحدث هذا من هذا ؟ إذ الأمر يرجع إلى الله تعالى[1] .

ولكن الذي يهمني هو : هل أستطيع أن أوثر في هذا ، حتى أصنع هذا من هذا ؟ فالأمر المفيد هو أن يتدخل جهدي في إحداث التركيب المطلوب والمماثل له . فليس المهم مثلاً أن أعرف لمَ ينتج الماء من اتحاد الأكسجين والهيدروجين ولا ينتج من غيرهما ؟ ولكن المهم أن أستطيع إجراء ذلك الاتحاد لينتج الماء ، فقدرتي تنحصر في كشف القانون وتطبيقه ؛ أما النتيجة فمخلوقة وترجع إلى الله تعالى وحده لا سريك له ، وأما غيري فقد ينسبها إلى الطبيعة أو .. وخلق الله السنن التي لا تتغير ولا تتبدل ، ويجب توضيح هذه النقطة جيداً ، حتى يزول الالتباس ولا يختلط علينا الأمر ، نعرف أين مكان قدراتنا ، وأين مكان خلق الله تعالى وقدرته ؟ وقد شرحت ها الأمر بتفصيل أكثر في كتاب « حتى يغيروا ما بأنفسهم » . والمقصود هنا ، أن نعرف الأسباب التي تؤثر في نشأة الإرادة ، وليس المقصود أن نبحث لِمَ أوجد الله الإرادة من هذه الأسباب ؟ فهذا يرجع إليه وحده ، وعدم بحثه لا يؤثر في بحث مشكلتنا الآن .

تخلق الإرادة عند الإنسان عندما يعرض عليه المثل الأعلى الذي قامت الأدلة التاريخية على صدقه ، وتقبله الفطرة السليمة كما يقبل الإنسان شم الروائح الزكية .

قال ابن تيمية في الفتاوى عند شرح قوله تعالى :

---

[1] راجع كتابنا « حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون » (سورة الأنبياء : الآية 45) : (وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله إيجاب الإحساس بالحركة ، وإيجاب علم القلب حركة القلب ، فإن الشعور بالملائم يوجب الحركة إليه ، والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه ، فحيث انتقى موجب ذلك دلّ على انتفاء مبدئه)[2] .

فالناس يميلون بفطرتهم إلى الحق ويحبونه ، مثل ميلهم إلى العدل والصدق والعلم والكرم إلى آخر ما سميه الله معروفاً . كما ينفرون من الباطل ويكرهونه مثل نفورهم من الظلم والكذب والجهل والبخل إلى آخر ما يسميه الله منكراً ، وإن حب المعروف وتعظيمه ، وحب أهله مطبوع في فطر الناس ، وقد يعجز الإنسان عن فعل المعروف أو لا يستطيعه ، إلا أنه يقرّ بفضل من يفعله . وقد تعرض للناس أهواء تجعلهم يميلون عن هذا ، ومع ذلك يبقى الاعتراف به عند الناس أو على الأقل عند أكثرهم . وهنا علينا أن نستعمل عقولنا لنمكّن الناس من تنفيذ ما عرفوا حقيقته وفضله .. وينبغي أولاً أن نساهم في إبراز العدل والصدق كمثل أعلى عند الإنسان ، وينبغي ثانياً أن نساهم في إبراز كيف يمكن إقامة العدل والصدق والعلم في حياة الناس .

2- من أي شيء تتكون الإرادة ؟

ممّ تتكوّن الإرادة ؟ ومم تنشأ ؟ وبتعبير آخر : إذا كان العمل يتولد من زوجين هما الإرادة والقدرة ، فمن أي زوجين تتولد الإرادة يا ترى ؟

إذا كان الله قد خلق من كل شيء زوجين ، فإننا نستطيع القول : إن الإرادة تتولد من زوجين أيضاً ، وهما : المثل الأعلى وعقل الإنسان أو جهاز تمييزه . فإذا التقى المثل الأعلى بجهاز التمييز مع استيفاء شروطه وانتفاء موانعه[1] ، تولدت الإرادة بإذن الله تعالى ، كما يتولد من كل زوجين – عند توفر الشروط وانتفاء الموانع – مولود جديد ؛ وبهذا وحده أمكن استمرار الحياة ، فهذا الاستعداد لإنجاب مولود جديد عند وجود الزوجين الوالدين ، هو الذي يجعل الحياة مستمرة ؛ وكذلك الاستعداد الموجود في فطرة الإنسان للتلاقح مع المثل الأعلى ، ينجب الإرادة عند الإنسان .

وبهذا نكون قد عرضنا الإرادة : تعريفها ، كيف تتولد ؟ ومن أي شيء تتولد ؟

ومن الملاحظ أن الإنسان إذا خفيت عليه الأمور ، فقد يختار مثلاً أعلى سيئاً لجهله أو لاتباعه هواه ؛ وعلينا أن نزيل جهله بالعلم ، وهواه بإبراز الرشد ؛ وهذا واجب الأنبياء والمصلحين والآمرين بالقسط من الناس . وإن الذين يتبعون أهواءهم ، م الذين يعارضون المصلحين ، ولذلك فإن السعي لإزالة الجهل هو معركة الحياة وموطن ابتلاء الإنسان .

فإذا حصل البلاغ المبين بعدم كتمان العلم ، زال الجهل وحينئذ سيشع الحق « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » (سورة الأنبياء : الآية 24) .

وهناك أمر آخر .. هو أنه كلما زاد وضوح المثل الأعلى قويت الإرادة ، وكلما عرف الإنسان كيفية تحقيقه في حياة الناس زاد إيمانه وتعلقه به ، وكلما علم أركان المثل الأعلى الحق أبصر جزئياته أكثر ؛ وكلما توضحت الأركان المحكمة من المثل الأعلى

---

[2] ابن تيمية ، الفتاوى ج28 ، ص 195 ، طبعة الرياض ، 1382 هـ .

[1] من شروط لمثل الأعلى : وضوحه وإبرازه بجلاء لإخفاء فيه ؛ إذ ليس كل من عرض المثل الأعلى ، استطاع أن يوضحه .
وموانعه : كل ما يقف أمام العقل من الموانع التي تخرجه عن الفطرة أو تحول بينه وبين التفكير .
ويمكن أن تتفرع الشروط والموانع إلى فروع كثيرة ، وهي التي تمنع من حصول المولود – بالرغم من وجود الزوجين – بسبب من موانع ترجع لأحد الزوجين أو كليهما ، وعلينا أن نتذكر أن هذه الموانع قابلة للمعالجة والشفاء من حيث الأصل لقوله ρ : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » . رواه البخاري في كتاب الطب .

الحق ، توضحت الأمور المشتبهة ؛ كما هو الأمر بالنسبة للآيات المحكمات والآيات المتشابهات ؛ وكما هو الأمر بالنسبة للأمور الدقيقة من العلم ، فكلما عرف الإنسان القواعد الأساسية زادت قدرته على تطبيقاته الجزئية .

عرفنا كيف تنشأ الإرادة ، وعرفنا أبويها ، وعرفنا أنها بدورها تشكل زوجاً يساهم في مولود جديد ألا وهو العمل الصالح .. ومع هذا علينا أن نلقي أضواء أكثر على مشكلة الإرادة لأننا نريد إيجاد العمل الإسلامي الصالح ، وهو لا يتولد إلا من الإرادة الصالحة ؛ التي لا تتولد إلا إذا برز المثل الأعلى الحق بوضوح وجلاء أمام العقل الإنساني . وكلما كان العقل على الفطرة – أي قبل أن تطرأ عليه عوامل الإفساد – كان النجاح أمثل وأكبر . ومهما أفسدت الفطر ، تبقى إمكانية الإصلاح موجدة ؛ وربما يعرض لكثير من الناس اليأس حين يرون في ظروف معينة إعراض الناس عن الحق ، وانتقال هذا الإعراض إلى صغارهم كما قال نوح عليه السلام : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (سورة نوح : الآية 27) ؛ وسأعود إن شاء الله لبحث هذه النقطة في بحث القدرة . إلا أنه لابد من توضيح الشبهة في دعوة نوح عليه السلام .

إن نوحاً عليه السلام لما قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (سورة نوح : الآية 27) : لم يقصد أن الأطفال يولدون فجرة كفرة ؛ لأن هذا مخالف لسنة الله الواردة في الحديث الصحيح : « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة »[1] وإنما كان قصده أن عوامل التربية المحيطة بهؤلاء الأطفال ستشوه فطرهم وتبعدهم عن اتباع الحق .

وبما أن قصة نوح عليه السلام تذكر دائماً لتبرير عدم نجاح الدعوة التي استوفت الشروط ، علينا أن نذكر أن الشروط التي ترجع إلى الفرد غير الشروط التي ترجع إلى المجتمع وقد شرحت هذه الفكرة في كتاب « حتى يغيروا ما بأنفسهم » عندما بينتُ أن الآية تدل على المسؤولية الدنيوية لا على المسؤولية الأخروية ، وعندما بينت أن الآية أيضاً تدل على التغيير الاجتماعي لا على التغيير الفردي .. لهذا فإن عدم نجاح نوح عليه السلام ، لا ينبغي أن يطرح حجة لعدم نجاح الأعمال الإسلامية التي توفرت لها القدرة والإرادة ؛ أي لا يجوز استخدام القصة مبرراً لفشلنا . ونقول :

1"– إن نوحاً عليه السلام نجح على سنن قدرات عصور الأنبياء السابقين ، فقد أغرق الله بالطوفان كل الكافرين وأنجى المؤمنين في الفلك المشحون ، وهذا هو النجاح المبين ، وقد جعله الله آية للعالمين .

2"– إن القدرات تتفاوت حسب العصور والأزمان ..

3"– إن استعراض قصص الأنبياء ، يدل على ظاهرة واضحة هي : أن الله تعالى قبل بعثة محمد ρ كان يهلك أعداءه بالآفات .

« فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا .. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (سورة العنكبوت : الآية 40)

إلا أن أسلوب انتصار محمد ρ على قومه لم يكن بمثل هذه الأساليب ، وإنما كان قضاءً من رسول الله ρ على أعدائه بسنن طبيعية بشرية بأيدي المؤمنين :

« ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض » (سورة محمد : الآية 4) .

وهذا حدث جديد ودليل آخر على تطور مسألة النبوة إلى مستوى آخر . فالنبي محمد ρ والذين اتبعوه أقاموا المجتمع الجديد بالجهود العادية للبشر العاديين ، وهذه ملحوظة هامة يزيل استحضارها كثيراً من العقبات . وإنه ρ من أجل هذا صار رسولاً إلى الناس كافة ، وكان خاتم النبيين حتى لا يكون للناس على الله حجة بعده ، وحتى لا يقول قائل : كيف ننتصر على خصومنا ولم يعطنا الله ما أعطى الأنبياء السابقين من التأييد بالمعجزات ؟!!

---

[1] صحيح مسلم – باب القدر .

ونحن مطالبون باتباع منهج رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وهو خاص به لأنه من خصوصيات ختم النبوة التي تميز بها وحده
.

ويظهر هذا الأمر – وهو النصرة – في مستوى الجماعة أكثر مما يظهر في مستوى الفرد ، لهذا كان القرآن يخاطب رسول الله ρ فيقول :

« فإما نرينَّك بعض الذي نعدهم ، أو نتوفينَّك » (سورة غافر : الآية 77) .

فكان من الاحتمال أن يرى الرسول نهاية أعدائه أو لا يرى ؛ ولكن : « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » (سورة النور : الآية 55) . وهذا الوعد للمجتمع وليس للفرد .

وإن الذين يبررون نتيجة أعمالهم الفاشلة بالاستشهاد بقصة نوح عليه السلام مع قومه ، يريدون أن يثبتوا بذلك الخطأ الشائع الذي يقول : (عليَّ أن أسعى ، وليس عليَّ أن أدرك النجاح) . فهمها اختلفت الحجج والعبارات ، فالمشكلة تكمن في الدفاع عن الذات ، والإعراض عن بحث أسباب أزمان المشاكل . ليس المهم أن نحل عند مسلم اليوم شبهاته في دعوة نوح ، ولكن المهم أن يحدث للمسلم نظر سليم للمشكلات ، وهذا لب الموضوع . والاستشهاد بقصة نوح عليه السلام لا يثبت الدعوة التي نريد نقضها : علينا أن نسعى وليس علينا إدراك النجاح .

إن هدفي ليس حل الاشكلات في بعض الأمثلة والشبهات وإنما تغيير نظر المسلم إلى الأمور ، وسأحاول إزالة عقبة من العقبات التي تجعل المسلم مرتاح الضمير حين يرى إخفاق الحركات الإسلامية . إن المسلم اليوم لا يبذل جهداً ليرى جانب الخطأ الذي وقع فيه مفكرو المسلمين ، بل – مع الأسف – يعتقد أن هؤلاء المفكرين والعاملين قد توضحت لهم كل شروط النجاح ومارسوها ، إلا أنهم لم ينجحوا ، ولا ضير إذ : « علينا أن نسعى وليس علينا إدراك النجاح » وأن الأمر ليس بيدهم وإنما هو بيد القدر الأعلى .. !!

هل عرفت أيها القارئ الكريم ، لماذا أطيل البحث وأطارد المشكلات في جحورها ؟ كل ذلك ، لنخرج العوامل المعطلة للحركة الإسلامية .. وإن مثل هذه المسلَّمات تسد آفاق المسلم ، بل هي آصار وأغلال عليه ، وتحول بينه وبين مراجعة النفس[1]
.

وإن اعتقاد المسلمين بأن النجاح ليس نتيجة حتمية للسعي الصالح ، هو من أشد المعوّقات التي تمنع المسلمين مراجعة أعمالهم ونقدها لأنهم لا يفرضون فيها الخطأ ، بل يفرضون أنها كانت صائبة ، ولكن لم تأت النتيجة المطلوبة لأمر أراده الله . إن مواجهة هذه النقطة أمر جوهري لتحويل نظر المسلم في رؤية سبب الإخفاق[1] .

ومهما شرحت الموضوع أو طاردته ، فإنني لا أشعر أن عندي الإحاطة الكاملة لإبراز المشكلة بما ينبغي أن يكون عليه البحث ، ولكن إلقاء بعض الأضواء تعين على إدخال الشك في نفس القارئ وإخراجه من برد اليقين إلى قلق الشك لأنه يشعر وهو في برد اليقين أنه لم يقصر ، بل سنن الله قد أخلفت الوعد . وأريد أن أشكك في هذه المسلمة حتى يتحول الشك إلى يقين ، بأن سبب تخلف المسلمين يرجع إلى سعي خاطئ أو ناقص على الأقل ، أدى إلى تخلف النتائج ؛ ولا يرجع إلى سعي صحيح تخلفت عنه النتائج .

---

[1] مراجعة النفس : هي التوبة بالمعنى الشرعي .

[1] كما أن هذا النظر الخاطئ يمنع الشباب من السعي لتحويل أشخاصهم إلى الكفاءات التي يحتاج إليها المسلمون والمجتمع الإنساني ؛ وكلما تأخر إدراكهم لذلك ، تأخر توفر الكفاءات اللازمة لتحقيق التغيير .

لهذا على الإنسان أن يرجع إلى نفسه ليصحّح عمله ، لا أن يقعد ويقول : عملي صالح ، ولا يشترط أن ينتج من العمل الصالح النجاح .

إن هذا الكلام يمكن أن يكون صادقاً في مستوى الفرد ، إذ لا يشترط لكل فرد أن يصل إلى نتائج النجاح في الدنيا ؛ وه غير صحيح قطعاً على مستوى المجتمع ، بل إن منشأ الخطأ والضلال أن نطبق هذه الفكرة على المجتمع ، إذ أن نجاح الفرد في الدنيا مرتبط بسعيه وبمقدار ما يقدمه مجتمعه إليه من عون وضمانات . ويمكن أن نرى هذا في مستوى الرسول ρ كفرد حيث يقول الله له :

« فإما نرينَّك بعض الذي نعدهم ، أو نتوفينَّك ... » (سورة غافر : الآية 77) .

فلا يشترط أن يرى الرسول ρ النتائج كفرد ، ذلك أن نجاح الفكرة إنما يتم على مستوى المجمع ، وهذا واضح في قوله ρ لعدي بن حاتم :

« ... فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ... ولئن طالت بك حياة لتُفتحنَ كنوز كسرى .. ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ... قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ρ يُخرجُ ملء كفه ... »[1] .

ينبغي أن نطمئن كل الاطمئنان وبالوضوح الكامل إلى ضرورة إزالة اللبس والغموض الذي يحيط بفكرة « هو من عند أنفسكم » (سورة آل عمران : الآية 165) . وعلينا أن نحدد مكان النقص عند المسلمين ، وأن تكون عندنا مقاييس دقيقة حتى نبيّن موطن النقص الذي يرجع إلينا ، ونحدده بدقة تحديد المجهر للجراثيم التي تختبئ في أعماقنا .

وما يزعجنا حقاً أن المسلم اليوم مقتنع بأنه لا تقصير سواء لدى المسلمين أو الحركات الإسلامية ، وأن ما يلحق المسلمين من الفشل يرجع إلى أمر خارجي : إنه من قدر الله ، أو من الاستعمار أو من أذنابه ....

وهو لا يرضى مطلقاً أن يعتبر التقصير راجعاً إلى نظر المسلمين إلى المشكلة .

إن نظر المسلمين الخاطئ قد اكتسب قداسة تتحدى القرآن ، والسنن ، بل تتحدى الله حين نفرض أننا مقصرين ، بل يمكن أن يخلف الله وعده فلا يعطينا النجاح . ومن المخزي أننا يكن أن نفرض كل شيء للدفاع عن أخطائنا ونبحث عن كبش الفداء في كل مكان دون أن ينبض فينا عرق ، أو تختلج فينا عضلة ، ولكن إذا حاول أحد أن يقول :

« إن فشلنا هو من جهلنا بمعرفة الطريق ، وهو من تنكّب أهل الحل والعقد للصراط المستقيم ، أو « هو من عند أنفسكم » (سورة آل عمران : الآية 165) ، هنا فقط تنتفخ أوداجنا ، وتتوتر عضلاتنا ، ويا غارة الله ... لمن ؟ لهذا المخرّب الذي يسير بأصابع الاتهام حين يفرض عدم الفهم ، وحين يفرض الخطأ في الحركات الإسلامية نفسها .

إن هذا الصمت المطبق الذي يخنق الأنفس ، في عدم مراجعة المسلمين لذاتهم هو نتيجة لهذه الفرضيات الطفولية .

إن مثل هذه المواقف التي يقفها المسلم في الدفاع عن ذاته كأي طفل لم يبلغ الرشد ، حين يصف أخطاءه بأنها حدثت بنفسها ، ولا دخل له فيها ... إن هذه المواقف المظلمة التي يتستر بها المسلم ينبغي أن نسلط عليها بعض الأضواء ليتمكن من أن يبصر نفسه وما حوله ، فيخجل من التفسيرات العنكبوتية التي يحمي بها نفسه ، لأن أحداً لم يستخدم أداة فيها قوة تهدم هذا البيت الواهن الذي يحتمي به مسلم اليوم وهو غارق في أحلامه . ومن هنا نعلم :

مدى وهن الوسائل التي يريد المسلمون أن يصلحوا بها أنفسهم .

---

[1] صحيح البخاري – الجزء الخامس – كتاب المناقب – رقم 100 – الطبعة المنيرية .

هناك أمثلة واضحة فاضحة للموضوع الذي يحيط به غموض مطبق . وإن الحذق كل الحذق أن نعرف كيف نقرب الغامض ؟ وكيف نضيء الأسباب المظلمة بأضواء المعرفة ؟ .

فإننا مثلاً نضحك من النعامة حين تدفن رأسها وتقع في الفخ من جراء تصرفها الغبي ؟ ولكن هل لدينا القدرة أن نرى النماذج الرفيعة من رجال العالم الإسلامي يقعون في مثل هذا الخطأ حين يدفنون عقولهم ، ويبرزون عواطفهم . كما يمكن أن نرى هذا في مَثَلِ المؤذن الذي تأخر في إقامة صلاة الفجر حتى كادت الشمس تشرق . قال بعضهم : إن ساعتك متأخرة ، ولقد أخرتنا ؟!! فأجاب بكل بساطة : إن ساعتي صحيحة ، ولكن الشمس أسرعت في الشروق !.

وحتى أن مثل هذا الخطأ يقع في مستوى حركة الحضارة ، ففي عهد الإصلاح في الغرب لما نشر فيساليوس (1541م) طبعة جديدة من النص اليوناني لجالينوس ، أدهشته أخطاء بدرت عن جالينوس وكانت خليفة بأن يدحضها أبسط تشريح لجسم الإنسان ... ص .

قال ديويوا : « إن جالينوس لم يخطئ ولكن جسم الإنسان عراه تغير من عهد جالينوس .. » .

إن مثلاً كهذا يدل على بساطة هذا الرجل الطيب ، ومحاولته للدفاع عن ذاته وما يتصل بها من ساعته . إن تغيير نظام الكون وارد وحدوث المعجزات التاريخية ممكن .. لكن هناك شيئاً آخر غير ممكن ألا وهو أن تكون ساعتنا متأخرة !! أو أن يكون جالينوس قد أخطأ . (انظر : قصة الحضارة ، ج27 ، ص 154) .

إلا أن إمكانية رؤية تبريرات المسلمين لمواقفهم إزاء المشكلات ليست في مثل هذا الوضوح . وقد تكون بعض المواقف بالوضوح نفسه ، ولكن المشكلة ليست في أن تكون واضحة ، بل أن تكون واضحة لنا ؛ فكم من خطأ نقع فيه من غير أن نشعر ، فيحول بيننا وبين اهتدائنا إلى الحق في حل مشكلاتنا ..

وكما نكشف بعض الأخطاء ، أو الغموض في بعض مواقف من سبقونا ، فلا يضيرنا أن يكشف من يأتي بعدنا جوانب القصور في فهمنا للأمور ، بل إن هذا الكشف من اللاحق يشرف السابق أيضاً ، لأن السابق كان سبباً في دلالة اللاحق على الاهتداء إلى الصواب بوجه من الوجوه إن لم يكن بكل الوجوه ، بل يكون من سعادتنا أن يتوضح النقص والغموض عندنا ، فيتلافاه من يأتي بعدنا ، ولا يتناوله للتشفي منا ، وإنما لمساعدة من بعدنا وبعده ، وليخفف عنه بعض الأثقال التي نحملها ، أو ليزيل بعض الغموض الذي يجعل سعينا ناقصاً ، وهذا هو معنى الدعاء المأثور

« اللهم اغفر لي ما أخطأت وما تعمدت وما أسررت وما أعلنت وما جهلت وما تعمدت »[1] .

ولا ننزه أنفسنا عن الوقوع في رؤية الحق خطأً أو عمداً ولكن نرجو أن يكون هذا الفهم سبباً في تقليل الحواجز التي تحول دون مراجعتنا لعواقب أعمالنا ، وفي تنكبنا عن الحق خطأً أو عمداً .

وانطلاقاً من هذا المفهوم أرجو أن أوفق إلى إضافة بعض الوضوح أو التقدم خطوة أخرى في الخطوات التي خطاها إلى الأفق الوضاح الذي تقدم إليه الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه الذي يحلل فيه نكبة حزيران : « درس النكبة الثانية ... لماذا انهزمنا ... وكيف ننتصر ؟ » .

ففي تحليله للنكبة يصل إلى نقطة متحارجة حين يتساءل : هل السبب في القادة أم في الشعب ؟ وذلك بعد أن تحدث عن المناخ السياسي ، وعن صلاح الدين المرتقب .. ثم وضع المؤلف العنوان الآتي : (مسؤولية الفكر) . وفي الواقع إنني طربت لهذا العنوان كما يطرب أي إنسان يعثر على بحث في الموضوع الذي يهمه ، فكان مما قال : « طريق الخلاص الجهاد ، والجهاد يقتضي

---

[1] رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ج 4 ص 437 .

(1،2،3) يوسف القرضاوي – درس النكبة الثانية .

التغيير والتعبئة ، وهما يحتاجان إلى القيادة المؤمن ، والقيادة لا تظهر إلا في أمة تستحقها ، فكيف التخلص من هذا الدور ؟ الأمة تحتاج إلى قيادة ، والقيادة إلى أمة »[1] . ويتابع الموضوع بعقله الأصولي فيقول : « والحق انه لا دور ، ولا تناقض ، فظهور القائد المنشود والحاكم المرتقب يحتاج إلى ارض حرة يرتكز عليها ، وإلى كتلة قوية تشد أزره ، وإلى تيار فكري ينادي به ويشعر الأمة بضرورة وجوده » [2] .

« وهنا تبرز مسؤولية الفكر ورجال الفكر ، ودورهم في إعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة »[3] .

الحق أنني شعرت هنا بنشوة الظفر ، والخروج من الدور والتسلسل ، وأنه قادنا إلى المخرج من التيه ، وما وصل إليه أعتبره إضافة جديدة إلى الفكر الإسلامي المعاصر لا نجده بمثل هذا الوضوح عند مؤلف آخر ، هذه الإضافة لها أهميتها البالغة ، وذلك أننا تجاوزنا في سعينا في تحليل المشكلات من إلقاء اللوم على القادة وعل الشعب ، إلى إلقاء اللوم على الفكر ورجال الفكر .

أجل إنه تقدمٌ عن الأسلوب المتعارف عليه في تحليل القضية ، له قيمته ، ولا يقدّره من لم يعانِ التقدم وصعوبته ، وأهمية الإضافة الجديدة مهما كانت ضئيلة . وأرى هنا أن هذه الإضافة ليست ضئيلة ، بل هي مرصد جديد لكشف آفاق جديدة ، ومجال جديد لتحرك أهل الحركة ..

ثم بدأ في شرح الفكر الذي ننشده : « بأنه الفكر الحر الأصيل الشجاع الواقعي » ، ثم الأوصاف بأنه « الفكر الحق » واهتم أكثر بصفة (الحر) ، واعتبر آية الفكر الحر الأصالة . والأصالة : أن تنبع من أمتنا ، كما لم ينس أن يحترز مما يمكن أن يفهم من الأصالة فبيّن بأن هذا ليس دعوة « إلى إغلاق النوافذ الفكرية بيننا وبين العالم من حولنا ، ودون أن نفقد أصالتنا ، وأن لا يهولنا ضخامة الأصنام وهالات التقديس والسدنة » .

إن هذا الكلام جيد ، ولكن سأتقدم به خطوة أخرى إلى الأمام – في أرض بكر على الأقل بالنسبة لجونا الخاص – ومع اعترافي بفضل خطوته السابقة التي ساعدتني على الخطوة التالية ، فلا أريد أن أحمله تبعة هذه الخطوة ، لأنه يمكن أن يقال بكل وضوح : إن هذا المعنى الجديد ليس في كلامه الصريح ؛ وأنا كذلك لا أقول : إن هذه الخطوة ليست في ذهن المؤلف الحيف ، وإن كنت لا أعلم بالدقة العوامل التي جعلته لا يتابع الخطوات ، واترك بيان ذلك للذين سيخطون الخطوات التي تلي خطوات وقفنا عندها .. والخطوة التي أريد إضافتها هي أن نتساءل :

إذا كانت المسؤولية هنا مسؤولية الفكر ورجال الفكر ، فكيف يكون حل المشكلة ؟ .

جواب هذا السؤال هو ما يقع على عاتق رجال الفكر إن كان عندنا رجال فكر ، وعلى عاتق من يهيئون أنفسهم ليكونوا رجال فكر إن كان هناك من يتطلّع إلى ذلك .

في الواقع ، إننا نفتقد رجال الفكر والمتطلعين إلى أن يكونوا رجال فكر ، أو إنهم من الضآلة بحيث لا يشكلون تياراً فكرياً يتأثر به قطاع عريض من الناس ؛ بل إننا نفتقد الذين يعملون كيف يبح الرجل رجل فكر ؟

وهذا الاعتراف هو المرحلة الثانية إذا اعتبرنا الاهتداء إلى تحميل المسؤولية لرجال الفكر مرحلة أولى .

ولكن بعد أن وقف القارئ عند الكلمات الطيبة التي نقلناها ، يمكن أن يحمل مسؤولية رجال الفكر لأقوام مجهولين ، أو لخصوم تابعين للفكر غير الأصيل ، وقد لا يفهم أن حديثه عن مشكلة المسلم والمفر المسلم ومسؤوليته !! وكأن المفكر المسلم قد أدى دوره ، وكأن هناك آخرين غير لا يؤدون دورهم .. إن المشكلة ليست في المفكر غير المسلم ، بل في المفكر المسلم بالذات ، وهذا التعيين والتوضيح هو الخطوة الأخرى التي أتحمل تبعتها وحدي ، وإذا أضيف هذا المفهوم إلى المعنى السابق الذي نقلناه فلا يتيسر للقارئ أن يمر دون أن يحس بأزمة وبخطورة ، ودون أن يشعر بأن الأرض بدأت تهتز من تحته وتتزلزل .

إنني لست هاوياً أن أصدم الشباب المسلم في الفكر الإسلامي المعاصر ، ولكن لا أرضى أيضاً أن نصنع لهذا الفكر سدنة نحيطهم بهالة القداسة .

ومع ما لهذا الفكر من فضل فيما بثه من انتعاش في أبناء الجيل ، فإنه لم يخرجهم من التيه الذي يضيعون فيه ، ولهذا لا أريد أن يعطى هذا الفكر من التقدير أكثر مما يستحق ، حتى لا يكون ذلك سبباً للعطالة وإيقاف التقدم .

وإن رجال الفكر أو الذين يتبوءون هذه المكانة ، لا يوحون إلى قرائهم بأن ما حصلوه ليس كل شيء ، وإن على الأجيال التي تقرأ لهم أن يكملوا كشف الطريق وتوضيحها .

كان علماء السلف يقولون : « لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري ، وخذ من حيث أخذوا »[1] . ومع ذلك فقد ذهبت هذه الوصايا أدراج الرياح ، لأن التيار المضاد كان أقوى . ولهذا ترك العالم الإسلامي اتباع مثل هذه الوصية ، وقلدوا مالكاً بل من هم دون مالك .

ولكن من المؤسف أن الذين يشغلون مكان رجال الفكر والعلم في هذا العصر ، لم يقدروا أن يتفوّهوا بهذه النصيحة التقليدية التي أطلقها السلف ، فكيف يكون حالنا في مثل هذا الجو العقيم ، غير القحط العام !؟

إننا لا نعرف حتى الآن معنىً لآيات الآفاق والأنفس ، ولا نعرف أنها هي التي ستدل على صحة آيات الكتاب ، ولا أنها مصدر من مصادر المعرفة الحقة ، فهل قادة الفكر في العالم الإسلامي يعتمدون آيات الآفاق والأنفس في بيان صدق آيات الكتاب ؟ .

أليس كل قادة الفكر في آيات الآفاق والأنفس من غير العالم الإسلامي في العصر الحاضر ؟ ومبلغ علم من يُعتبر من رجال الفكر في العالم الإسلامي أن يستشهد بأقوالهم .

ولهذا يجب أن نعرف مبلغ جهلنا ، وألا نخفي هذا عن الجيل الذي يأتي بعدنا ، ليعلم أن واقعنا نتيجة لعملنا ؛ فإن كان لا يرضيه هذا الواقع فلينظر إلى علم أحسن ، فإن ما عندنا من علم لم يعط إلا ما رأى .

إن بروز مسؤولية قادة الفكر كعنوان في بحث لتحليل عوامل حدث تاريخي كبير ، إنما هو إنعاش للبذرة الأصلية التي احتوت عليها الثقافة الإسلامية وهي : أن صلاح الأمة في طائفتين من الناس : العلماء والأمراء ، أي في قادة الفكر ، وقادة السياسة .

إن وضع عنوان « مسؤولية قادة الفكر » إعادة الحياة لمسؤولية العلماء ومكانتهم بين الشعب وقادته . وهذه الوظيفة التي أصابتها ظواهر الإهمال ، والتي كفّ المسلمون عن التنافس في تأهيل أنفسهم لأدائها ، قد جعلتنا نرى القذى في أعين الناس ، ونعجز عن رؤية الجذع في عيوننا ، إنه أوان ذهاب العلم الذي ينتج عنه توزيع اللوم مجاناً على كل أحد ، خلافاً لأمر رسولنا ρ عن ربه :

« يا عبادي إنما أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه »[1] .

ونحن عندنا استعداد أن نبحث عمن نلومه ، ولو بادعاء أن الشمس غيرت مجراها حتى لا يتوجه اللوم إلى شيء يتصل بنا ، فضلاً عن أن نتمكن من لوم أنفسنا .

إن لوم النفس هو التوبة – وهو النقد الذاتي في المصطلح الحديث – ومن لا يقدر على لوم نفسه ، لا يقدر أن يتوب . « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (سورة الأعراف : الآية 23) . ومن لا يقدر أن يتوب لا يمكنه أن يصحح سلوكه ، فلهذا لا تستقيم أمورنا .

---

[1] رواه الفلاني في « الإيقاظ » ص113 ، ولبن القيم في أعلام الموقعين ج2 – ص 302 عن الإمام احمد بن حنبل رضي الله عنه .

[1] صحيح مسلم – كتاب البر .

إننا نُبصر أخطاء غيرنا ، ونزحلق أبصارنا عن خطئنا ... كأن قادة الفكر من المسلمين قاموا بما عليهم من فهم وتفهيم ، ولكن الأمور لم تستقم مع ذلك !!

إن واجب الفهم والتفهيم والتحليل والتوضيح لجذور المشكلات ، إما يقع على قادة الفكر ، فهم الذين عليهم أن يعرفوا علاج الشعب وقادته .

ولكن ساعتنا صحيحة ، وإنما الذي تخلف الجهد السياسي ، والمسؤولون عنه غيرنا ، وبذلك صرنا في أمان وبراءة وشعور بعدم المسؤولية ، فهذا الذي يجعلنا نوزع اللوم !!

إننا في العالم الإسلامي لم ندخل بعد عالم الأفكار ولا نزال نعيش في عالم الأشياء والأشخاص . إن قيمة الفكر وقادة الفكر ، لا تزال في المكان الذي كان أبو تمام وضعهم فيه منذ زمان طويل حين قال : السيف أصدق أنباء من الكتب[1] .. إن فكرنا مازال يسيطر عليه ما توحي به كلمة (عنترة) حين تذكر في الأدب الشعبي .

ولا يسعني هنا إلا أن أقتطف بكثير من الاغتباط فقرة من مقال مطوّل للأستاذ الدكتور محمد الطالبي بعنوان : « التاريخ ومشكلات اليوم والغد » . « ولعل فشل سياستنا اليوم ، وسلبيتها في كثير من الأحيان يُعزيان إلى انعدام المختصين في صفوفنا في شؤون الأمم التي تتعايش معها أو تتصادم . لقد سبق أن قلنا : إن التاريخ بقي أيضاً بالنسبة إلينا – لكن بمفهوم جديد – مدرسة لتخريج الإطارات السياسية ، وليس معنى ذلك أن رجل السياسة ينبغي أن يكون مؤرخاً . إن التاريخ اختصاص يفني – كغيره من العلوم – الأعمار ، ولا يترك المجال للاشتغال بما سواه ، لكن يجب أن يجد القائد السياسي من بني جلده وحوله ، من المؤرخين الأكفاء ، ومن الدراسات التاريخية المتينة ، ما ينير له السبل ، ويمكنّه من إدراك الوضع بوضوح حتى يحسن الخطاب والتصرف ويحقق النجاح ، لا لأنه كما توهم القدماء يستطيع أن يغترف حلولاً جاهزة من الماضي يطبقها على الحاضر – مما قد يؤدي إلى الكوارث الجسام – بل لأن الحكم على الشيء كما قال المنطقيون فرع عن تصوره . وفي التاريخ عون عظيم على التصور الصحيح ؛ وإذا صحَّ ما قدمناه من مقدمات ، فإنه يصح أيضاً أن نقول : إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ؛ إنما هو إلى حد بعيد إخفاق الجامعة قبل كل شيء ... »[1] .

وفي معرض أهمية الدراسة التاريخية في حل المشكلات ، ضرب مثل مشكلة الوحدة العربية الإسلامية وقال فيها :

« إننا أخفقنا إلى اليوم في حل أهم قضية من قضايا عصرنا ، لأننا لم نحس تصور كامل أبعداها ، ولم نحسن ذلك التصوّر لأننا لم نحس التحليل التاريخي ، ولم نمدّ رجال السياسة منا بما يضمن لمساعيهم التوفيق ... »[2] .

إن هذا التصور للمشكلات ، وهذا الحكم إزاءها يخالف الأسلوب الذي تعودنا عليه . عن حديثنا ينطلق – عادة – من أننا نعرف كل شيء ، ولكن الخبثاء لا يطيعوننا ... أما أن نقول : إن هؤلاء تنقصهم معرفة الطريق إلى حل المشكلة ، ونحن لم نقدم لهم كيفية الحل ، فهذا لا يخطر في بالنا .

---

[1] وحين قاله أبو تمام ، كان يقصد بالكتب أقوال المنجمين ، أما الذين يستشهدون به فيقصدون تفضيل القوة على الفكر والعلم .

[1] مجلة عالم الفكر – المجلد الخامس – العدد الأول – عام 1974 – مقالة للأستاذ الدكتور محمد الطالبي بعنوان التاريخ ومشاكل اليوم ، ص 24 .

[2] المصدر السابق – ص28 .

وكذلك الأمر حين نقول : « إن إخفاق السياسة في معالجة شؤون اليوم ، هو إخفاق الجامعة قبل كل شيء »[1] . أي : هو إخفاق الرجال المسؤولين عن الفكر ، وهذا الإخفاق ناشئ من تزحلق في الرؤية . أقصد عدم رؤية أثر الفكر ، أي عدم كشف آيات الآفاق والأنفس التي تدل على الحق بوضوح .

ومما يوضح الحوار الذي يدور داخل نفس المسلم حين يقف المفكر إزاء هذه المشكلات ، ذلك المقال الذي كتبه سيد قطب رحمه الله بعنوان : (قوة الكلمة) أي : قوة الفكر . وقال فيه : « في بعض اللحظات ، لحظات الكفاح المرير الذي كانت الأمة تزاوله في العهد الذي فات ... كانت تراودني فكرة يائسة ، وتلحّ عليّ إلحاحاً عنيفاً أسأل نفسي في هذه اللحظات : ما جدوى أن تكتب ؟ ما قيمة هذه المقالات التي تزحم بها الصحف ؟ أليس خيراً من هذا كله أن تحصل لك على مسدس وبضع طلقات ، ثم تنطلق لتسوّي بهذه الطلقات حسابك مع الرؤوس الباغية الطاغية ؟ ما جدوى أن تجلس إلى مكتب فتفرغ حنقك كله في كلمات وتصرف طاقتك كلها في شيء لا يبلغ إلى تلك الرؤوس التي يجب أن تطاح ؟! ولا أنكر أن هذه اللحظات كانت تعذبني ، وكانت تملأ نفسي ظلاماً ويأساً ، كانت تشعرني بالخجل أمام نفسي خجل العجز عن عمل شيء ذي قيمة ، ولكن هذه اللحظات ولحسن الحظ لم تكن تطول ، كان يعاودني الأمل في قوة الكلمة ، كنت ألقى بعض من قرؤوا لي مقالاً ، أو أتلقى رسائل من بعضهم فأسترد ثقتي في جدوى هذه الأداة ، كنت أحس أنهم يتواعدون معي على شيء ما شيء غامض في نفوسهم ، ولكنهم ينتظرونه ويستعدون له ويثقون به ! .

كنت أحسّ أن كتابات المكافحين الأحرار ، لا تذهب كلها سدى ، لأنها توقظ النائمين ، وتثير الهامدين ، وتؤلف تياراً شعبياً يتجه إلى وجه معينة ، وإن لم تكن بعد متبلورة ولا واضحة ، ولكن شيئاً ما كان يتم تحت تأثير هذه الأقلام . ولكنني مع هذا كنت أعود – في لحظات اليأس والظلام – أتهم نفسي ، كنت أقول : أليس هذا الإيمان بقوة الكلمة تلَّة العجز عن عمل شيء آخر ؟ ألا يكون هذا ضحكاً من الإنسان على نفسه ليطمئن إلى أنه يعمل شيئاً ، وليهرب من تبعة التقصير والجبن ؟ وهكذا كنت أعيش طوال فترة الكفاح الماضية حتى شاء الله أن يطلع الفجر الجديد ، وأن تنكشف الغمة المعتمة ، وأن يتنفس الناس الهواء النظيف الذي حملته الثورة ، وأن يصبح هذا الصراع ذكرى يضمها التاريخ في ثناياه ... »[1] .

هذه الكلمات الصادرة من الأعماق وثيقة هامة لتصوير حال المفكر المسلم في تلك المرحلة ، وكيف أن عدم رؤية أهمية الفكرة وفعاليتها يؤدي إلى العذاب ويملأ النفس ظلاماً ويأساً ، بل يشعر الإنسان بالخجل أمام نفسه لأنه لا يقوم بعمل شيء ذي قيمة .

كما يمكن أن يفسر الإيمان بقوة الكلمة – قوة الفكر – تعلّة العاجزين عن عمل شيء آخر ، وهروباً من تبعة التقصير والجبن : فهذا التصوير دقيق للواقع – المؤلم – ينبض بالحياة . إلا أن ما اعتبره فجراً جديداً لم يكن لقوة الكلمة بمقدار ما كان نتيجة لقوة المسدس .. ولهذا لا نزال نحمل قابلية الانخداع بالفجر الكاذب ، والمساهمة في صنعه بالمسدس ، ونحن نظن أننا نصنع فجراً صادقاً .

والذي جعلنا نكتب هذا الاستطراد الطويل ، ظن كثير من الناس أنه يمكن أن تتوفر الإرادة الجازمة والقدرة التامة ، ثم لا يحدث العمل الناجح ضرورة .

3- بعض خصائص الإرادة :

أ- الإرادة تنتقل بالوراثة الاجتماعية :

---

[1] المصدر السابق – ص 24 .

[1] سيد قطب – دراسات إسلامية – الطبعة الثالثة ص 124 .

بحثت في موضوع العمل الصالح أو الناجح ، وبينت أنه يتولد من زوجي القدرة والإرادة ، وعرفنا الإرادة ؟ وكيف تتولد ؟ ومن أبواها أيضاً ؟ .

وهنا نريد أن نعرض لخاصة من خصائص الإرادة ، وهي أنها يمكن أن تورّث ، ولا أقصد الوراثة العضوية ، وإنما الوراثة الاجتماعية ، فالفرد يمكن أن يرث المثل الأعلى من مجتمعه ، كما يمكن للمجتمع أم يغرسه في الأطفال الذين ينشؤون فيه .

إن المثُل العليا التي يعتنقها المجتمع ، ينقلها بوسائله المباشرة وغير المباشرة ، وبطرق الوعي واللاوعي ، إلى الأطفال الذين ينشؤون فيه ، ولا يمكن لمجتمع أن يصير مجتمعاً إلا بإرادة ، ولا إرادة إلا بمثل أعلى كائناً ما كان هذا المثل الأعلى ، فهو نجم القطب الذي تتوجه إليه الإرادة . والأطفال ينشؤون وهم يقدسون هذه المثل العليا قبل أن يعرفوا قيمتها وصحتها ، وإنما تتعلق إرادتهم بها عن طريق الوراثة الاجتماعية . وكل المجتمعات تلقّن أفرادها مثلها العليا ، وإلا لما أمكن أن يعيش الأفراد في هذه المجتمعات ، ولما شعروا بالغربة حين يبتعدون عنها .

ومع أن الإرادة تنتقل بالوراثة ، فإنها قابلة للتغيير ، إذ يمكن للمجتمعات والأفراد أن تغير إرادتها ، وإن كان هذا التغيير صعباً ، ولكن ليس هناك صعب مطلق ، وإنما هناك سنن إن سُلكت أنتجت ، وهذه السنن هي التي تغير الأفراد كما يشهد بذلك تاريخ البشرية . وعلى البشر أن يعرفوا سنن التغيير ، وأن يعرفوا الحق من الباطل فيغيروا وضعهم إلى الحق ، أي أن في إمكان البشر أن يجعلوا الإرادة الحقة ميراثاً ، وهذا الذي قصدناه من أن الإرادة تنتقل بالوراثة الاجتماعية ، أي تصير في مرحلة ما تنتقل عند معظم الناس بالوراثة الاجتماعية ، إلا أن الذي يجعل هذه الوراثة إيجابية وليست سلبية وجود العدد الكافي في المجتمع من الذين يعون هذه القضية وعياً دقيقاً بحيث يشرفون على إجراء عمليات التصحيح والمراقبة الدقيقة .

وربما يرجع تخلف المسلمين إلى فقدهم أداء هذه الوظيفة ،لأن ما ينتقل بالوراثة الاجتماعية دون وعي ومراقبة قابل لأن يفسد ويضيع بدون وعي أيضاً ، كما حدث في العالم الإسلامي .

والوراثة الاجتماعية تكون أوضح في الإرادات منها في القدرات لأن الفرد يرث من المجتمع مقدساته وإرادته ، ولا يرث قدرات المجتمع ، فإن ابن المهندس لا يصير مهندساً ، وابن الطبيب لا يصير طبيباً إلا بالدراسة .

أقول هذا لأنه الأغلب ، وإن كانت كل القدرات والإرادات تتدخل فيها عوامل الوراثة الاجتماعية والجهود الواعية الشخصية ، إلا أن الوراثة في المثل الأعلى اكثر ، والجهد الواعي في القدرات أظهر .

ب- مستوى الإرادة :

وهناك ملحوظة أخرى في مستوى الإرادات : لقد بحثت الإرادة في نشأتها ، وكيف أنها وظيفة جهاز التمييز عند الإنسان ، فالإنسان يريد الأكل والشرب والنكاح وسائر حاجاته .. فهل تسمى هذه الأشياء إرادات ؟ أم الإرادة شيء آخر أسمى من هذه الأشياء ؟

قد يكون هذا الموضوع هاماً ، ذلك أن الإرادة قد نراها في عمل مثل تناول القلم ، فلا أمد يدي إلا إذا أردت شيئاً – فهذا مراد – ولكن هناك مرادات أخرى سامية يجود الإنسان بنفسه في سبيلها ، وتكون بمثابة نجم القطب في توجيه كل المرادات الأخرى وفقها . وهذا مكان التوحيد في الإسلام .

فهناك إذاً مستويات للإرادة :

1- الإنسان يريد الغذاء ليبقي ذاته أو جسمه .

2- الإنسان يريد النكاح ليبقي نوعه .

3- الإنسان يريد العقيدة والفهم (المثل الأعلى) ليرتقي بنوعه .

إن إرادة الغـذاء والنكـاح فطـرة في الإنسـان ، إلا أن إرادة العقيـدة ليسـت بهـذا الوضـوح ... صـحيح أن الإنسـان حيـوان اجتماعي بالطبع وعنده إرادة للعيش في مجتمع ... ولكن كما أن للغذاء سنناً ليعطي الجسم السليم ، كذلك للنكاح سنن ليعطي النسل السليم ، والعقيدة أيضاً سنن لتعطي المجتمع السليم .

فقد يريد الإنسان الطعام والنكاح ... ولكن ليس هذا الذي نبحثه هنا في الإرادة ، وأن كانت هذه الأمور مرادة أيضاً ، وغنما نبحث إرادة المثل الأعلى ، إرادة الدين ، إرادة العقيدة التي ارتفعت في الإسلام إلى ابتغاء وجه الله وحده .

« فمـن كانـت هجرتـه لـدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحهـا ، فهجرتـه إلى مـا هـاجر إليه ، ومـن كانـت هجرتـه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله »[1] .

فهنـا أنـواع مـن الإرادات المختلفـة ، ولكـن الإرادة المقبولـة في الإسـلام نـوع معـين مـن الإرادة ، هـي الـتي تعطـي قيمـة عليـا للإنسان ، تخرجه عن إرادات الحيوان الذي يريد الغذاء والنكاح . ولكن الإنسـان يخضع هذه الإرادات لإرادته ، ابتغاء وجه الله ، ولهذا فإن الجهاد والبذل المقبول عند الله هو : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عوز وجل »[1] ، ولهذا قلت أيضاً إنه يمكن أن يتعلق الإنسان بمثل أعلى سيئ ، ونسميه مثلاً أعلى ، لأنه أعلى شيء عند صاحبه ، وإن لم يكن في حد ذاته أعلى . والإسلام حدد للمسلم مثله الأعلى ... فالمسلم يريد الطعام والنكـاح ، حتى انه لو ترك الطعام حتى يموت لكـان منتحراً ، ولكن لا يجوز أن يجعل الطعام مثله الأعلى ، بل يطلبه طلب وجوب أو طلب استحباب كما أمر الله تعالى . كما انه يمكن اتخاذ أنواع من المثل العليا مثل العشيرة والوطن والقوم ... وكلّ هذه حدّ الله لها حدودها ، مبيناً كيفية التعامل معها ، وأنه من خرج عن هذه الحدود يكون قد خرج عن حدود الله ، مثل من خرج من النكاح إلى السفاح .

إذن هناك إرادات فاسدة ، كالروائح النتنة ، لهذا قال رسول الله ρ لما رأى بعض قومه يدعون بدعوى الجاهلية : ياآل فلان . قال لهم : « دعوها فإنها منتنة »[2] .

فالإرادات الصحيحة التي تلائم تقدّم الإنسان وكرامته ، هي ما شرعها الله تعالى ، وهي دين الفطرة التي إذا عُرضت على الفطرة البشرية السليمة تقبلها وتفضلها على غيرها ما لم تكن الفطرة قد فسدت ، وحتى إذا فسدت الفطرة ، فيمكن استخلاص كثير منها بعرض الإرادات والمثل العليا الراقية عليها . وبهذا انتشرت الأديان والأفكار الصحيحة بين الناس .

والإرادة المقصودة التي تعطى للمجتمع حتى يتحرك ، ليست إرادة الأمـور العادية ، وإنما إرادة المثل الأعلى ، وهـو المرجع لتنظيم الحياة وتحديد علاقات الإنسان مع الكون والإنسان ، وهو مصدر التشريع وهذا معنى التوحيد في الدين أي ابتغاء وجه الله وحده ، أي مصدر الإرادة ومبعثها الله وحده ، وهذا مدلول وحدانية الله . وباصطلاح ابن تيمية : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ؛ وهو معنى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ومن خصائص الإرادة إنها : تتولد دفعة واحدة ، وحين نقول هذا : فقولنا ليس إنكاراً لإمكان الإرادة شيئاً فشيئاً . ولكن لما ننظر إلى ما يحدث غالباً ، نجد أن الإنسان الذي يحول إرادته من دين إلى دين آخر يحدث عنده انقلاب فجائي في كل جوانب حياته ، تتحول إرادته كلها من شيء إلى شيء آخر ، ولكن القدرات لا تتحول بهذه السرعة .

قد يغير الإنسان إرادته من دين إلى دين آخر ، كما كان يحدث في الجاهلية ، يكون الرجل كافراً في الصباح فيؤمن ، فيكون مـن أشـد المؤمنين إيمـاناً في المسـاء ، ولكـن القـدرات لا تتحـول بهـذه السرعـة . فالطبيب لا يمكـن أن يتحـول إلى مهنـدس – كمـا

---

[1] صحيح البخاري – الحديث الأول .

[1] صحيح البخاري – كتاب العلم .

[2] صحيح البخاري – تفسير سورة المنافقون .

يتحول الكافر إلى مؤمن وبالعكس – في يوم واحد ، وكذلك تحول الإنسان من كافر إلى مؤمن في يوم واحد لا يجعله فقهياً بأحكام هذا الدين ، وإنما يتعلمها بعد ذلك بالمعاناة الطويلة . والعالم الإسلامي الآن يعجب بشدة الإيمان الذي يظهر دفعة واحدة ، ولا يهتم بالجهود المتصلة التي ينبغي أن يبذلها هذا الإنسان ليكون إيمانه منتجاً ، فيُقْصر تقويمه للشخص في جانب الإيمان دون مراعاة جانب الكفاءة .

ج- الإرادة يمكن أن تقوَّم وتقاس :

إن مقياس الإرادة ، بذل النفس والمال . فإذا صار لدى الإنسان استعداد لبذل نفسه وماله في سبيل قضية ما ، فقد بلغ أرقى مستوى في الإرادة :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون » (سورة الحجرات : الآية 15) ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » (سورة التوبة : الآية 111) .

لهذا فالجبن والبخل عدوا الإرادة ، الجبن عن الجهاد بالنفس ، والبخل في إنفاق المال ، كما أن الشجاعة والكرم هما المظهران الفطريان للإرادة .

ومن هذا المقياس ، يتبين لنا أن الإرادة التي نبحثها هي : إرادة المثل الأعلى ، وليس بحثنا في الارادات الصغيرة ، وإنما في الإرادة العامة الشاملة التي تُبذل النفس والمل لها ، وهي فوق النفس والمال ، ولا عبرة بالإرادة التي لا يبذل لها المال والنفس ، فإذا تحولت الإرادة من شيء يبذله له المال والنفس إلى إرادة النفس والمال ، فَقَدَ الإنسان أسمى ما فيه ، ومع ذلك قد يفقد الإنسان هذا كثيراً ويصير المال والنفس مثلاً أعلى ، فيبذل نفسه لإبقاء نفسه : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (سورة البقرة : الآية 96) ، ويبذل نفسه للإبقاء ماله و ... « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم ، وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » (سورة التوبة : الآية 24) .

والأمم التي تجعل إرادتها الرفاهية وزيادة الدخل والمحافظة على الحياة الحيوانية فقط ، لا يعتبر القرآن إرادتها إرادة صحيحة . فوضع الخطط الخمسية والعشرية لمضاعفة الدخل ليس هو المثل الأعلى عند المسلم طالما أن هذا لا يحقق إنسانية الإنسان .

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن » (سورة سبأ : الآية 37) .

ولا يعني ذلك الحط من قيمة الاقتصاد والتمتع بنعم الله ، فالبحث هنا في المكانة التي نعطيها للاقتصاد بالنسبة إلى أثره الأخلاقي ، وإن كان هذا العصر عصر بروز أهمية الاقتصاد ، إلا أن المبدأ الذي ينظر إلى المستقبل البعيد ، لا يجعل محطته عند الاقتصاد ، لأن موضوع الاقتصاد يقف بالإنسان عند بقاء نوعه ، ولا يتوجه به آلياً إلى رفع قيمة نوعه إذ قد يمكن للتقدم التكنولوجي أن يوصل المجتمع الإنساني إلى الرفاهية ، ولكن لا يوصله آلياً إلى رع مستوى إنسانيته . ولذلك فإن الإسلام لا يعتبر للمال قيمة إلا بمقدار ما يحقق من إنسانية الإنسان :

« نعم المال الصالح للمرء الصالح »[1] ، « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » (سورة النساء – الآية 5) ، « قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (سورة الأعراف : الآية 32) .

وتتجلى النظرة الواعية إلى المال من خلال دوره في إفساد الأمم وإهلاكها ، في قول الرسول ρ :

---

[1] مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ج4 ، ص 197 .

« فوالله ما الفقر أخشى عليكم ... ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم »[1] .

ولا يزال هذا العصر محكوماً بالوضع الذي كان الإنسان يخاف فيه من الجوع لعدم كفاءته التسخيرية ، ومن أن الإنسان قد رفع من كفاءته التسخيرية بما يخرجه من عر الخوف من الجوع ، إلا إنه لا زال محكوماً بمواريثه السابقة ، وقد صار معروفاً أن ما يشكو منه الإنسان في هذا العصر من خَصَاصَة ، ليس منشأه عدم إمكانية إنتاج الغذاء الكافي ، وإنما العجز الأخلاقي في التوزيع العادل ، فلهذا مع نجاح الإنسان في الخطط الاقتصادية ، فهو لم يخطر في باله إمكانية وضع خطط أخلاقية .

والنقص في الغذاء في العالم لا يرجع إلى القدرات بل إلى الارادات . ولرفع مستوى الارادات حتى تتكافأ مع القدرات أو بالعكس فلابد من تضحيات ، لهذا أعطاه الله القدرة على تحقيق فطرة التضحية ، أي قبول الاستغناء عن الحياة حينما يُحال بينه وبين المثل الأعلى الذي يرقّي نوعه ، أو ينزل بكرامته المستحقة . ومهما كانت قدرة التضحية والفداء مهملة أو غامضة ، فإنه يأتي عليها حين من الدهر تشع لتملأ الكون جلالاً وجمالاً . وهذا يعني أن لدى الإنسان ميل بالفطرة إلى المثل الأعلى ، كما عنده بالفطرة أيضاً ميل إلى أن يضحي بنفسه وماله في سبيل هذا المثل الأعلى ، بل إن الميل إلى التضحية في سبيل المثل الأعلى أمر طري راسخ في الإنسان ومطبوع في أعماقه وجزءٌ من وجوده ، وما تعظيم الشجاعة عند البشر إلا تقدير لقيمة القدرة على التضحية وهذا أمر خاص في الإنسان ليس عند سائر الحيوان ، وينبغي أن يدقق البحث في فطرة الإنسان التي تحمل خاصية التضحية ، وهي خاصية عجيبة بل هي فوق الأشياء التي نعرفها في سائر المخلوقات ..

فلِعُلوِّ ما يمكن أن تتعلق به إرادة الإنسان أعطي القدرة على التضحية في سبيل تحقيق المثل الأعلى ، وسمي هذا بالجهاد ، وبأفضل الأعمال ، ولهذا يقدِّس البشر الذين يضحون في سبيل المثل العليا . ولما كان هذا السلاح العجيب مخصصاً لرفع كرامة الإنسان ، فلا يجوز استعماله إلا للمثل الأعلى الحق ، لهذا من استخدام هذا السلاح في سبيل الدفاع عن مثل أعلى باطل فهو في النار ، و « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل »[1] ، وغير ذلك ميتات جاهلية لا يجوز التضحية من أجلها ، وما الانتحار إلا كالقتال في سبيل الباطل ، لأن الإنسان وإن استخدم إمكانية مقدسة عنده إلا أنه استخدمها في غير طريق الحق حين أهدرها بنفسه ، بينما كان من الممكن وضع الثمن في ميزان يثقل فيه الخير ، ويقل الشر ، وإن المنتحر أحرق هذه القيمة الكبرى خارج الكفاح مع الباطل ، لهذا يكون من فقد حياته في غير الحق قد خسر نفسه كما يسميه القرآن الكريم . وهذا موضوع دقيق في حاجة إلى تجلية وتوضيح ، ولم يتم لي ما أريده تماماً ، وإنما هو فتح لباب من أبواب فهم أسرار سلوك الإنسان وما أعطي من ارادات وإمكانات لتحقيق هذه الارادات ، لأن هذه القدرات الكامنة في الإنسان يمكن أن لا تستثار ، فتظل راكدة غير متحركة كما في الأمم التي تنزل عليها الذلة والمسكنة حين تفسد فطرتها ، فيصير أبناؤها يجبون الحياة كما قال الله تعالى فيهم :

« ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يودّ أحدهم لو يعمَّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمَّر » (سورة البقرة : الآية 96) .

وقد تثار فطرة التضحية من أجل مثل أعلى باطل ، كما فعلت ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية ، وكما فعلت جميع الأمم التي آمنت بفكرة التفوق العنصري ، فأثارت روح التضحية في شعوبها من أجل العلوّ والاستكبار في الأرض . وقد لا تستخدم فطرة التضحية فتبقى خامدة كما هو شأن المستضعفين في الأرض اليوم الذين فسدت فطرهم وفقدوا روح التضحية .

---

[1] صحيح البخاري – كتاب المغازي – الطبعة المنيرية – ج5 – ص 200 .

[1] صحيح البخاري – كتاب العلم .

ولهذا يدين القرآن هذين الصنفين من الناس ، فيسمى الأول بالمستكبرين والآخر بالمستضعفين :

« الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ... » (سورة النساء : الآية 97) .

ويعتبر الإسلام ميتة هذين الصنفين جاهلية ، بينما يعتبر من ضحّى لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

د- لوم فاقد الإرادة :

كذلك من خصائص الإرادة أن يلام فاقدها دون أن يلام من يفقد القدرة ، إذ يعذر من يفقد القدرة ، ولا يعذر من يفقد الإرادة إلا في حالات سنبينها .

إن الكافر والمنافق يفقدان الإرادة - إرادة المثل الأعلى - فالكافر لا يريد الإيمان ، ويعلن عدم إرادته . والمنافق يظهر أنه يريد الإيمان وهو لا يريده .

لهذا نجد القرآن الكريم يتهم الذين فقدوا الإرادة ، ويعذر الذين فقدوا القدرة ، ويذكرهم بخير إذا وجدت الإرادة فيهم ، فيقول عن الذين فقدوا الإرادة :

« ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدة » (سورة التوبة : 46) .

فهؤلاء نفى الله عنهم الإرادة بل أدانهم في إرادتهم ، كما قال تعالى :

« كلا بل تكذبون بالدين » (سورة الانفطار : الآية 9) .

وهنا نفى عنهم الإيمان بالدين وهو يتضمن نفي الإرادة عنهم .

ولكن نجد القرآن يعذر أصحاب الارادات الذين يفقدون القدرات :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم » (سورة التوبة : الآية 91) .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى :

« وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذَنَ لهم ، وقعد الذين كَذَبُوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » (سورة التوبة : الآية 90) .

وهذه الآية تتحدث عن الذين فقدوا الإرادة ، وكيف يدانون . وتتابع الآية الحديث عن الذين فقدوا القدرات :

« ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلتَ : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولَّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حَزناً ألا يجدوا ما ينفقون . إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون » (سورة التوبة : الآيتان 92،93) .

إن الضعفاء والمرضى والفقراء .. ليس إلى لومهم من سبيل إذ إرادتهم صادقة ، أي إذا نصحوا الله ورسوله ، فهؤلاء هم محسنون في إرادتهم ، ويتمنون الجهاد بأنفسهم ، لهذا تجدهم يبكون وتفيض أعينهم من الدمع ... إن عبارة « تفيض من الدمع » تدل دلالة واضحة على صدق إرادتهم ، إذ يبكون أسفاً لأنهم عاجزون عن الخروج ، وإرادتهم صادقة ، وكتب لهم الأجر ، كأنهم خرجوا مع الرسول ρ ، ولهذا قال عنهم رسول الله ρ : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ول سرتم سيراً إلا وهم معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟! قال : نعم ، حبسهم العذر »[1] .

إذن متى يعذر فاقد الإرادة ؟

---

[1] صحيح البخاري - كتاب الجهاد .

قلت عندما تحدثت عن أبوي الإرادة : إنهما عقل الإنسان والمثل الأعلى ، وقد عرفنا أن العمل ل يوجد إلا إذا وجدت القدرة والإرادة ، كذلك لا توجد الإرادة إلا إذا وجد العقل والمثل الأعلى ، فإن فُقد أحدهما فُقدتِ الإرادة .

إن الذي فَقَد العقل معذور ، وكما يقولون : إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب . أما المثل الأعلى فهو بالنسبة إلى العقل – حسب الشرح السابق – كالرائحة الزكية بالنسبة للأنف . فإذا وُجد الأنف ولم توجد الرائحة الزكية ، لا يحدث الإحساس ولا توجد الإرادة ، وكذلك إذا وجدت الرائحة الزكية ، ولم توجد حاسة الشم لا يحدث الإحساس ولا تحدث الإرادة .

وكذلك الإنسان إن لم يتيسر له أن يرى المثل الأعلى أو يفهمه ، فهو أيضاً غير مؤاخذ لأنه ركناً أصيلاً أو فقد أحد الزوجين اللذين يتسببان في ولادة الإرادة .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (سورة الإسراء : الآية 15) .

لأن عدم رؤية المثل الأعلى ، وعدم بلوغ الدين الحق عذر صحيح في فقد الإرادة :

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة : الآية 286) .

فالذي لم يبلغه المثل الأعلى ليس مطلوباً منه أن يتمكن من إرادته ، فكيف يريده .. وهو لم يره ؟! .

وحين أقول لم يره أريد : لم يره بعقله . وهذا قد يكون أمراً دقيقاً في تحديد : أهو لم ير فعلاً ؟ أم أن درجة رؤيته غير كافية ؟ وهذا كله يرجع إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ، ولكننا نعلم أنه لا يعامل كالكافر حتى تقوم عليه الحجة ، وحتى نقوم بالبلا غ المبين ، وبعد ذلك نعامله على هذا الأساس فإن الله أعلم بما سيفعل به ، أما نحن فلا ندري هل أخطأنا في تبليغه ، أو بلغناه ما ليس كافياً لهدايته ، فحن لا نكلف إلا ما نقدر عليه ، وهو لا يكلف إلا ما يقدر عليه . ونحن نؤمن بأن الله ليس بظلام للعبيد :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين » (سورة الأنبياء : الآية 47) .

إن حاسة الشم ليس من مهمتها خلق الروائح الزكية ، وإنما تنحصر مهمتها في الإحساس بالروائح الزكية إن وجدت . وكذلك العقل ليس مهمته خلق المثل العليا ، ولكن مهمته إدراك أفضلية المثل الأعلى الجيد إن عرض عليه .

ولهذا نطمئن إلى اختيار من قال : إن العقل ليس كافياً لإيجاد المثل الأعلى ، ولكنه كاف في قدرته على اختيار المثل الأعلى الصحيح إذا عرض عليه ، ويكون العرض إما من آيات الكتاب ، أو من آيات الآفاق والأنفس ؛ وهذا هو ما تدل عليه الشريعة .

إن الله تعالى قال لآدم حين أهبطه :

« فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة البقرة : الآية 38) . كما قال : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (سورة الإسراء : الآية 15) .

ويوم القيامة يقول الله لصنف من الناس :

ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آياتنا ؟ » (سورة الزمر : الآية 15) ، « ألم يأتكم نذير ؟ » (سورة الملك : الآية 8) ، « أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير » (سورة المائدة : الآية 19) .

وعلى هذا جاء قوله تعالى أيضاً :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (سورة فصلت : الآية 53) .

وهذا كله من الدلائل على أن العقل ليس مكلفاً أن يكشف قبل أن يرى ، ولكن عليه أن يميز إن رأى . وقد نختلف في أنه رأى ، أو لم ير ، أو هل ما رآه كاف لأن تثبت به الرؤية الملزمة ؟ وهذا الاختلاف لا يضر ، وليس هذا إهداراً لقيمة العقل ، وإنما هو موضع العقل في مكانه الصحيح .

إن الذي يدرك دور النبوة في رقي إنسانية الإنسان هو المؤرخ الذي أدرك سير الأحداث ، إذ ليس للعقل البشري أن يخلق الهدى بل يمكنه أن يختار الهدى السليم عندما يعرض عليه .

« فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي ... » (سورة البقرة : الآية 38) .

فالهدى يتنزل من السماء يبلغه الأنبياء للناس ، وبه ارتقت البشرية إنسانياً إلى الدرجة التي نراها اليوم ، والتي لم تكن مشاهدة عند الإنسان القديم على الرغم من تماثل عقل إنسان اليوم من الناحية الفيزيولوجية مع الإنسان عبر التاريخ .

فعلينا أن ننفذ أمر القرآن فننظر كيف بدأ الخلق ، وكيف صار الإنسان يفهم القيم وكيف كان قبل ذلك ، بل كيف يعجز العقل عن أن يفهم الأمور التي لم يقترب منها ، وكيف كان العقل الإنساني الأول بعيداً عن فهم الكهرباء ؟ . ولكن بعد أن فهمها ، صار نقل هذا الفهم إلى الأطفال الآن سهلاً ، وكذلك الأمر في كشف المثل العليا الحقة .

وإلى الآن نرى كيف أن البشرية تحبو كالأطفال . وتعجز عن فهم أفضلية الصدق على الكذب ، والعدل على الظلم ، والقانون على الفوضى . قد يكون هناك قانون بين أفراد الدولة الواحدة ، ولكن إلى الآن لم يمكن وضع قانون ملزم بين الأمم ، بل لما يدخل في عقول كثير من الناس إمكانية ذلك .

وبحث هذا الموضوع وإعطاؤه حقه أمر هام . فمن عرف كيف بدأ الخلق ؟ وكيف مر الإنسان بمنعطفات ؟ وما القوانين التي كانت تسيطر على الإنسان حين مروره منها ؟ وكيف أننا نعيش في عهد ظهرت لكثير من الناس إمكانية بل ضرورة أن يعيش العالم في ظل قانون واحد ومثل أعلى واحد ، وقد توفر ذلك نظرياً منذ نزول قوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (سورة المائدة : الآية 3) .

وكيف أن هذا كان إرهاصاً لعهد عالمي قد يضطر الناس فيه إلى توحيد مثلهم العليا ، ولا يتم هذا إلا بنظرات جديدة . وإن على الأمم جميعاً أن تعمل للتكيف وفق آيات الله في الآفاق وفي الأنفس حتى تتمكن من العيش الأفضل الذي يليق بالإنسان ويليق بالإمكانات الكامنة فيه ، وكما يقول إقبال :

(وفي الحق إن الطريقة التي استعمل بها القرآن لفظ الوحي ، تبين أنه يعتبر الوحي صفة عامة من صفات الوجود ، وإن كانت حقيقته وطبيعته تختلفان لاختلاف مراحل التدرج والتطور في الوجود . فالنبات الذي يزكو طليقاً في الفضاء ، والحيوان الذي ينشئ به تطوره عضواً جديداً ليمكنه من التكيف مع بيئة جديدة ، والإنسان المستلهم للنور من أعماق الوجود ، كل أولئك أحوال من الوحي تختلف في طبيعتها وفقاً لحاجات مستقبل الوحي أو لحاجات نوعه الذي ينتمي إليه . وفي طفولة البشرية تتطور القوة الروحانية إلى ما أسميه (الوعي النبوي) وهو وسيلة للاقتصاد في التفكير الفردي والاختيار الشخصي ، وذلك بتزويد الناس بأحكام واختيارات وأساليب للعمل أعدت من قبل .

ولكن الحياة أخذت بمولد العقل وظهور ملكة النقد والتمحيص تكبت – رعاية لمصلحتها – التكوين والنمو لأحوال المعرفة التي لا تعتمد على العقل ، والتي فاضت القوى الروحانية خلالها في مرحلة مبكرة من مراحل تطور الإنسانية . والإنسان محكوم أساسياً بالعاطفة والغريزة . أما العقل الاستدلالي وهو وحده الذي يجعل الإنسان سيداً لبيئته فأمر كسبي ؛ فإذا حصلناه مرة وجب أن نثبت دعائمه ونشد من أزره ، وذلك بكبت أساليب المعرفة التي لا تعتمد عليه .. فإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية ، وجدنا أن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث . فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته ، وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها .

فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفة تلائم اتجاهها الجديد . ومولد الإسلام .. هو مولد العقل الاستدلالي .

إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء – ختم – النبوة نفسها . وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه وأن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو .

إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية . كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء (ختم) النبوة .

والحق أن القرآن يعد الأنفس والآفاق مصادر للمعرفة ، فالذات الإلهية ترينا آياتها في أنفسنا وفي العالم الخارجي على سواء . ولهذا وجب على الإنسان أن يحكم على كفاية كل ناحية من نواحي التجربة في إفادة العلم)[1] .

ومما نستنتجه من كلام محمد إقبال :

أن الاعتبار بسير الماضين صار جزءاً حقيقياً من تقدم الإنسان .

نعود إلى عذر الإنسان : متى يعذر الإنسان إذا فقد الإرادة ؟ لا يعذر الإنسان إذا فقد الإرادة مع وجود العقل والمثل الأعلى .. كما لا يعذر إذا لم يشم مع وجود حاسة الشم ووجود الروائح الزكية في دائرة الشم . وهنا موضوع آخر يحسن الإشارة إليه فالله تعالى يقول :

« إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة البقرة : الآية 62) .

وإننا في الواقع نستطيع أن نقول : إن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هؤلاء الطوائف فهو لا خوف عليه ولا هو يحزن ، إن لم يتمكن من رؤية المثل الأعلى . فعلى قدر ما وصل إليه من الرائحة نقدر إرادته .

فكما أنّ على العقل أن يبحث ، كذلك على الباحث أن يقدم ما وصل إليه الآخرين . ولهذا كان التبليغ من الواجبات المقدسة التي لم تعط الأهمية الكافية عند الناس ، مع أن القرآن الكريم قد رفع من شأن البلاغ المبين وجعل كتمان العلم من كبائر الذنوب :

« إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب . أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (سورة البقرة : الآية 159) .

ولن تظهر فائدة الاكتشاف إلا بتعميمها . فالقراءة والكتابة قد كشفهما الناس من آلاف السنين . ولكن محو الأمية لا يزال مشكلة أمام البشر فضلاً عن محو الأمية في الأفكار . فهذه درجة أخرى غير محو أمية القراءة والكتابة ؛ لهذا وصف الله الذين يقرؤون ويكتبون دون أن تتسع مداركهم الفكرية بأنهم لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، أي تلاوة فقط .

ولما كان من فطرة العقل قبول المثل الأعلى إذا عرض عليه فقد منع الإسلام الإكراه في الدين :

« إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي .. » (سورة البقرة : الآية 256) .

ولتدارك ما يمكن أن يعرض لهذا الموضوع من شبهات أقول :

إن أكثر المعرضين يعرضون لعدم رؤية المثل الأعلى أصلاً أو لعدم رؤيته بوضوح كاف : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » (سورة الأنبياء : الآية 24) .

---

[1] محمد إقبال – تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص 143 – 145 – القاهرة – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام 1955 .

وهذا يتصل بآخر سورة الفاتحة في تقسيم الناس إلى : المنعم عليهم ، والمغضوب عليهم ، والضالين . وهم بالتتالي : الذين تبين لهم الحق واتبعوه ، والذين تبين لهم الحق ورفضوه ، والذين لم تبين لهم الحق .

فإذا استطاع الذي عرف الطريق أن يبين للضالين الطريق الصحيح ، فإن أكثرهم سيمشون مع الحق ، بل قد تستغرب أن يتخلف منهم أحد ، ولكن من إكرام الله للإنسان أنه أعطاه قدرة على ترك الحق أيضاً بعد أن تبين له حتى لا يكون مجبراً لا اختيار له في قبول الحق أيضاً .

لهذا أرى أن البلاغ المبين هو أول وأقوى دعائم قيام الحق على الأرض . فإذا رفعنا الكتمان ، وأقمنا البلاغ المبين ، صار لأكثر الناس القدرة على ترجيح ميزان الحق . وبمقدار ما يؤكد الله على نشر الحق يقف أهل الباطل في وجه نشر الحق وبيانه للناس . كما أرى ضرورة قيام أهل الحق بعملية مسح للبشرية لا يصال المثل الأعلى الحق إليهم :

« ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيّ عن بينة ص (سورة الأنفال : الآية 42) .

إن عدم وضوح هذه القضية بما تستحق من أهمية ، جعل المسلم يزهد في واجب البلاغ ولا يصبر في معركته وينسحب من هذه المعركة ليهيئ نفسه لمعركة أخرى « كتغيير الأوضاع بالعنف » . وهذه هي النقطة التي يبدأ فيها المسلم بدخول التيه وهو يقصد اختصار الطريق ، فيترك طريقاً بينة موصلة ، ليسلك طريقاً لا تعلم نتائجها . وهذا هو ترك السبيل السهلة القليلة التكاليف الكثيرة النتائج والبركات إلى سبيل وعرة كثيرة العقبات قليلة النتائج .

إن الثبات في معركة البلاغ المبين لا يسبب خسائر . وحتى خسائره مرابح ، بينما الطريق التي يظنها الإنسان سهلة قريبة فإنها تؤدي إلى البعد والتيه .

أليس من العجب أن نزعم أن هذا الذي استصعب السير على الطريق السوية السهلة (طريق البلاغ المبين) وانسحب منها استصعاباً لها ، سوف يقدر على السير في الطريق الوعرة المظلمة !! هذا خداع النفس .. إلا أن الموضوع لا يزال غامضاً لم ينل ما يكفي من الوضوح والبيان . فكيف يُصدق من استصعب السير في السهل أنه سوف ينجح في السير في الوعر ؟!

إن معرفة فطرة الإنسان ودين الفطرة وإزالة الحواجز بينهما تجعل الإنسان الفطري يقبل دين الفطرة .

قد يقول المسلم الذي لم ير هذه الحقيقة جيداً : إنه لا يمكنه رفع الحواجز بين فطرة الإنسان ودين الفطرة أو لا يُمكَّن من ذلك ، فلابد من بذل جهد كبير لكشف هذه النظرات المعيقة لسلوك طريق الحق ولبيان سهولته . هنا نحن في حاجة إلى شيء من التأني لتنبيه المسلم إلى فكرة أخرى في هذا الموضوع وهي قانون من قوانين الله في الكون . ومضمون هذا القانون « عمل المستطاع الآن ، يجعل ما ليس مستطاعاً الآن مستطاعاً في المستقبل » .

ويحتج بعض الناس بقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة : الآية 286) ، ويجدون فيها مبرراً للتهرب من المسؤولية ، ولا يفطنون إلى مضمونها من التكليف . فالإنسان إذا ملأ يومه بالعمل بما في وسعه فإن غده سيعطيه وسعاً جديداً وهذا أوضح ما يكون في طلب العلم . إن تعلمك اليوم ما تستطيع تعلمه يمكّنك غداً من فهم ما لم تستطع فهمه اليوم ، لأن العلم درجت لا يكن الوصول إلى فهم فكرة ما إلا بتحصيل التي قبلها . وكما يقال : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فكذلك ما لا يتم العلم إلا به فواجب تعلمه قبل ذلك .

والإنسان يستطيع اليوم أن يفهم العتبة الأولى من العلم ، وهذا يمكنه من طلب العتبة الثانية والثانية تمكن من الثالثة ... وهكذا ... فما هو مستحيل اليوم ينبغي أن لا يبقى مستحيلاً ، وإنما ينبغي أن يصير مستطاعاً وأن تتجاوزه الاستطاعة ، وهذه القاعدة ينبغي أن نفهمها ، فإذا فهمناها فهمنا مشكلة العالم الإسلامي القاعد وعليه الآصار والأغلال ، يردد أغنية العجز الخالدة

« ما يطلع بأيدينا شيء » . وهذا حاجز سحري شل المسلم ومنعه من تأدية واجبه المستطاع ، وإن رفع هذا الحاجز يجعله إنساناً سوياً يمارس عمله بشكل ينميه[1] ...

وحين يقول : « ما يطلع بيدي شيء » فهو صادق وكاذب فلي آن واحد ، فهو صادق لأنه يرى عجزه عن أمور لا قدرة له عليها . فهو فعلاً لا يستطيع ما يريده ، ولكن الذي يكذب فيه ليس كذباً في الواقع ، لأنه جهل الارتباط الموجود بين مت يستطيع اليوم يصير غداً مستطيعاً لما لم يكن يستطيعه ...

والآن .. أقول : يعذر فاقد الإرادة إن لم يحدث لديه اتصال بين العقل والمثل الأعلى ، وبما أن المثل الأعلى والعقل موجودان فينبغي أن نقوم بعملية الوصل أو رفع الحاجز بين الزوجين اللذين يلدان الإرادة ، ويتم ذلك بالبلاغ المبين وعدم كتمان الحق وهو ما يستطيعه كل أحد في مستواه ، ولا يكون الجمع بين العقل والمثل الأعلى بالإكراه ، لأنه لا إكراه في الدين ، كما لا إكراه في الزواج ، كذلك لا إكراه في الحكم . وإن جهلنا لطبيعة هذه العلاقة أدى بنا إلى التطلع إلى علاقات غير سوية وغير مشروعة مثل الاغتصاب والاغتصاب سفاح وليس نكاحاً .

والذين يمارسون هذا الأسلوب هم الذين لا يسيرون في الطريق السوية وهم المرفوضون كشركاء في العقد الاجتماعي ، وإنه لمخجل حقاً أن نقع في مثل هذا .

وإذا طبقنا هذا على قاعدتنا التي تقول : « عمل ما نستطيعه الآن يوصلنا إلى ما لم نكن نستطيعه » فإننا نقول : إننا لم نقبل أن نعمل ما نستطيع عمله . لما رفضنا عمل ما نستطيعه رفض أن يدخلا بيتنا ما لا نستطيعه ، وإن كنا نريده . وكان الطريق الصحيح لجعل غير الممكن ممكناً ، هو عمل الممكن اليوم ليدخل إلى دائرة إمكانياتنا غير الممكن ، وهو لا يدخل إلا إذا أنجز الممكن الذي لم نفعله بعد .

بحثنا أهمية البلاغ المبين في عملية الزواج بين العقل والمثل الأعلى لنحصل على مولود الإرادة التي سنحتاج إليها في عملية زواج أخرى مع القدرة لولادة العمل الصالح الناجح والمقبول .

فإذا عرفنا العلاقة الفطرية بين العقل والمثل الأعلى تبرز أهمية البلاغ المبين ؛ فنعرف لماذا : « أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً » (سورة آل عمران : الآية 187) .

إن عدم قيامنا بمهمة البلاغ المبين يمثل تماماً زهدنا وعدم تقديرنا لقيمة البيان وعدم الكتمان ، وأننا لا نقومه إلا بثمن قليل نبيعه ونتنازل عنه بأتفه الأثمان !! وكم نحن عاجزون أن نرفع من أهمية البلاغ إلى المقام الجليل الذي وضعه الله فيه حين قال :

« بلِّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس » (سورة المائدة : الآية 67) .

وليست العصمة للمبلغ فقط ، وإنما هي عصمة للدعوة وللجماعة .

فالتزام التبليغ حماية للدعوة وعصمة لها من الانحراف والمطاردات والتهم ، وما أشد واقعية كلمة « يعصمك من الناس » (سورة المائدة : الآية 67) .

إن البلاغ فيه عصمة المبلغ أيضاً إذا فطنا إليه .. لكننا زهدنا فيه ، وتطلعنا إلى شيء آخر رفعناه إلى مقام أعلى من مقام البلاغ . وهذا ما سبق أن بينته في كتاب (مذهب ابن آدم الأول . أو : مشكلة العنف في العمل الإسلامي) .

إن سفينة النجاة عند الغرق في طوفان الفوضى هي البلاغ المبين ...

---

[1] والذين يقرؤون لمالك بن نبي ، يعرفون مصطلح (القابلية للاستعمار) الذي ضمنه في كثير من بحوثه ، وهو حينما يبحث مشكلة العالم الإسلامي يذكر الاستعمار والقابلية للاستعمار ويعطي الثقل للقابلية للاستعمار حين يفسر سبب تخلف العالم الإسلامي .

« قل إني لن يجيرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغاً من الله ورسالاته .. » (سورة الجن : الآية 23) .

ولن تجد إلا البلاغ ملجأ تلجأ إليه ويعصمك من الناس ، ويجعل لك القوة والمناعة والقدرة على شق الصخر بهذا الطرف اللين الذي تحمله على رأس جذورك كما تفعل جذور النباتات في شقها الصخر . وإن كلماتك ستتغلغل في الأعماق ، ولن تجد من دونه ملتحداً إلا بلاغ كلمات الله ورسالاته .. وفي هذا كلمة عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما : « الزم العدل .. فإنه وإن رؤي ليناً أقمع للباطل » .

وشرط نجاح البلاغ المبين أن لا يلجأ صاحبه إلى امتشاق الحسام لفرضه بالقوة .

أما ما يهدد الله به كاتمي ما أنزل من البينات ، فلا نجد تهديداً مثله حتى ولا لتارك الصلاة ...

« إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » (سورة البقرة : الآيتان 159،160) ، ... « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً . أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ! ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ... » (سورة البقرة : الآيات 174 - 176) .

والكتمان هو : عدم إيصال الخبر ، والثمن القليل : أن لا نقدر أهمية هذا الشيء ، والنتيجة نار في البطون في اليوم الآخر ، وشراء الضلالة بالهدى في الدنيا . وإنه لعجب من صبرهم على النتائج النارية في الدنيا والآخرة من جراء الكتمان .

وبمقدار ما يُحَذِّر الله من الكتمان ، ويهول من نتائجه في الدنيا والآخرة ، يمكن أن نرى نتائج البلاغ المبين ..

إن هذا الموضوع ينتظر من يوضحه من الذين كشفوا فطرة الإنسان والمثل الأعلى وعرفوا ما سينتج من ذرية - نتائج - طيبة من العمل الصالح . وإن الذين يفهمون تاريخ البشرية يعرفون أن الأعمال العظيمة كانت نتيجة التزاوج الكريم بين العقل والمثل الأعلى بوساطة البلاغ المبين ؛ إن هؤلاء سيقرؤون الآيات السابقة ويفهمونها فهماً جديداً .

وهنا أرجو أن يتأمل المسلم حواليه ليرى نتائج الأحداث المؤلمة من جراء سلوك الطرق الملتوية ، وكيف أن هذه النتائج تدعو إلى الغثيان والتقزز . والذي أرجوه أيضاً أن يتمكن المسلم من فهم أن سلوكه هذه الطرق غير السوية سوف لا ينتج له إلا ما أنتجه الذين سلكوا قبله هذه الطرق . والمثل الأكثر صدقاً : أن من لا يعتبر ، يقع في ما وقع فيه من قبله ... وأرجو الله أن يحمي المسلمين من الزلل .

بحثنا فيما سبق عن أبوي الإرادة ، وقلنا : إنهما المثل الأعلى والعقل ، ولكن من أين يأتي المثل الأعلى والعقل ؟ .

يمكن القول : إن العقل مرتبط بالمادة بطريقة لم يتوصل العلم إليها بعد ، وهذا ليس أمراً مهماً ، بل المهم أن نجعل العقل يؤدي وظيفته على أتم شكل .. فنحن لا نعلم كيف ؟ ولا متى بدأ نفخ الفكر في المادة ؟

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة .. » (سورة السجدة : الآية 9) .

ولكننا نعلم أن من فطرة[1] العقل إدراك العلاقة بين شيئين ، وحينما نخرج من المادة والفكر لا يبقى عندنا - على اعتبار أننا مسلمون - إلا (الله) الذي ليس كمثله شيء ، الواحد الأحد الذي « لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » (سورة الإخلاص : الآيتان 3،4)

[1] يمكن استخدام كلمة (الفطرة) لصفات الإنسان ، واستخدام كلمة (طبيعة) لصفات لمادة .

لهذا يتوجه الفكر إلى المخلوق لأن له نظائر وأمثالاً ، وبإدراك العلائق بينهما يكشف العقل سنن الأشياء ويتوجه الذكر للخالق ، لأن الفكر لا يعمل فيما لا مثيل له ، إذ الفكر كله مقارنات الأشباه بالنظائر وهذا لا يتم إلا في المخلوق . أما الذكر فهو شكر وحمد على النعم ، وتقديس وتنزيه للخالق ، بينما المخلوقات مسخرات على سنن يعمل الفكر فيها .

وهنا نعرض للخصائص التي نكشفها ولا نخلقها ، سواء خصائص المادة أو خصائص العقل ، فمن خصائص العقل : الفكر والذِّكر . الفكر في المخلوقات لتسخيرها والذكر للخالق لشكره . وهذه الخصائص لم نصنعها نحن ، ولكن نكشفها ، والإنسان العاقل لا يستوي أمره إلا إذا وضع الكون موضع التسخير ، ووقف من الله موقف العبادة وتعامل مع الناس بالعدل والإحسان . فلا يجوز أن نضع الكون مكان الله ولا أن ننزل بالله إلى مرتبة الكائنات .. ولا أن يظلم بعضنا بعضاً . وما معنى لا يجوز ؟

معناه : لا يتم ولا يضيء مصباح الإنسان إلا إذا عبد الله وسخر الكون ، وعدل مع الناس . فلا يتكبر على الله ، ولا يتعبد للكون ، ولا يتظالم مع البشر ... وإلا نزل به العقاب الصارم .

ويتحدث الكسيس كارل عن هذا في كتابه « تأملات في سلوك الإنسان » أو « الحضارة الحديثة في الميزان » .

مع ملاحظة أنه يضع قانون الطبيعة بدل مصطلح سنة الله ويقول ...

« القوانين الطبيعية عامة وصارمة .. لا يستطيع أحد أن يعصيها ثم ينجو من العقاب في أي بلد كان وهي لا تنذر من يخالفها . والعقاب هنا صامت صمت الأمر نفسه »[1] .

« والأخلاق الدينية تفرض قواعد لا تختلف في شيء عن القواعد التي أرادتها الحياة نفسها . لذلك يجب اعتبار التحرر من كل نظام أخلاقي مساوياً لعصيان القوانين الطبيعية ، وقد ردت الحياة – كما نعرف – على هذا العصيان بابتعادها عنا ، وكان ردها صامتاً وقاسياً في آن واحد وقد شعر ذوو البصيرة بالخطر » .

« والأمم والأجناس التي لم تعرف كيف تميز بن الحلال والحرام تتحطم في الكوارث والتحلل والموت . وهذا عقاب آلي بحت ، فإن الفناء مصير أولئك الذين ينتهكون القوانين الطبيعية ..

وهذا الرد المحتوم من جانب الحياة على أخطاء الإنسان يفسر ما نحن فيه من ضروب الشقاء : فمرض الحضارة ومرض الحرب العالمية نتيجتان حتميتان لانتهاك حرمة القوانين الطبيعية ، إذ لا يستطيع كائن ما أن يمنع الحياة من متابعة اتجاهاتها الجوهرية دون أن يحل به العقاب » ، كما يقول : « ... وحب الأم قصير الأجل لدى الكلاب ، وأطول منه بكثير لدى القردة ، أما عند الإنسان فإنه لا ينقطع قط ، وذلك لأن صغير الإنسان في حاجة إلى أن يُحَبَّ . والأم في حاجة إلى أن يُحبَّ .. ولاشك في أن الأبوين اللذين ينجحان في تربية أطفال صالحين ، يشعران في نهاية حياتهما أنهما أدّيا رسالتهما على الوجه الأكمل مهما كانت مدة حياتهما وصغر شأنهما . وهما يشعران في مرض شيخوختهما أنهما قد كوفئا بالبهجة والهدوء اللذين تكافئ بهما الطبيعة كل من أطاعها تمام الطاعة »[1] .

« الأمومة رسالة المرأة الطبيعية ، وهي رسالة لا تستطيع التخلي عنها دون الوقوع في خطر .. إذ أن الخلل العصبي والعقلي هو الثمن الذي يتحتم عليها دفعه إذا حالت ظروف الحياة أو إرادتها الخاصة بينها وبين أدائها لوظيفة الأمومة ... »[2] .

---

[1] الكسيس كارل ، ترجمة محمد القصاص ، تأملات في سلوك الإنسان ، ص 23 ، القاهرة ، مكتبة مصر .

[1] المصدر السابق – ص 58 .

[2] المصدر السابق – ص 59 .

إن قوانين الإيمان وأوامر الشريعة ونواهيها مثل قوانين الفيزياء والكيمياء ، ليس لنا من الحرية أن نخالفها إلا كما لنا من الحرية أن نقذف بأنفسنا من علو مئة متر ... متحدين القوانين الفيزيائية ، أو شرب السم متحدين القوانين الكيميائية ...

نحن نستطيع أن نفعل هذا , وتستطيع الأم منع نفسها من أداء وظيفة الأمومة ، ويستطيع الولد عقوق الوالدين ، وانتهاك سائر حرمات الله . ولكن بعد ذلك لا يبقى لنا من الحرية في منع نتائج هذه المخالفات ، إلا كما يبقى لنا من الحرية في منع نتائج السقوط بعد أن نقذف بأنفسنا من علو شاهق . وهذا ما جعل كارل يقول عن صرامة قانون الحياة : « إذ لا يستطيع كائن ما أن يمنع الحياة من متابعة اتجاهاتها الجوهرية دون أن يحل به العقاب »[3] .

ولكل الذين يريدون أن يروا هذه الآيات في الآفاق والأنفس القدرة على رؤيتها بالقوة نفسها وبالتفاوت نفسه في رؤية قوانين الفيزياء والكيمياء .. فلقد كانت قوانين الكيمياء غامضة كالسحر عند الناس يوماً ما . ولكنها صارت دقيقة وواضحة .

إن قوانين الأخلاق قد تبدو غامضة لنا اليوم في بعض أجزائها ولكنها قوانين ثابتة وصحيحة . فقانون : (أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه) وقانون (الامتناع عن الغيبة والنميمة والحسد) قوانين أخلاقية اجتماعية ، كقانون (تأكسد الحديد وفساده) في مجال الطبيعة .

4- الإرادة روح الأمة :

يقول عليه الصلاة والسلام : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[1] .

وفي هذا الحديث تشبيه الأمة بالجسد في الترابط والسهر والشعور بالألم أو عدم نومها إذا كان أحد أعضائها مصاباً .. علينا أن ندقق في المشبه والمشبه به : ما الذي يجعل الجسد يتداعى إذا اشتكى عضواً من أعضائه ؟ هذه دراسة حيوية فطرية للجسد الحي ، إذ للحفاظ على كيانه وجد له الألم في المكان المصاب بالخلل ووجد له ناقل الألم من العضو المصاب إلى مركز الفهم في الكائن الحي ، والكائن الحي يقوم بالفطرة بأعمال داخل الجسم للقضاء على هذا الخلل الذي طرأ عليه . والطبيب يتدخل ليساعد الجسم في القيام بعمله الفطري ، فإن سائر الأعضاء تقوم بمهمات خاصة للحالة الطارئة ، فستنفر الجسم كله للسهر على حل مشكلة الحمى . وحين يفقد هذه الوظيفة يبدأ نزول الموت البارد به ، ويبدأ في التفسخ وفي العودة إلى عناصره الأولى من التراب شيئاً فشيئاً .

لماذا القلب ؟ ولماذا يقبل الإنسان المثل الأعلى ؟ لماذا تتحرك الأجرام ؟ إن البحث في هذه الأمور لا جدوى منه لأنه لا يتعلق بوظيفة الإنسان وهي التسخير . فالمسلم يرى أن هذا يرجع في النهاية إلى الله تعالى الذي قدر فهدى ، وجعل لما خلق سنناً يكتشفها الإنسان ؛ فيرى آيات الله في الآفاق والأنفس ويتمكن من تسخيرها ، وعليه أن لا يفلت منه هذا الفهم وهذا التسخير . فنقول هذا ونحن نميز بين ما نعلم وما لا نعلم ، وإن ما نعلم يكفي لأن نقوم بوظيفتنا التسخيرية ، وإن ما نجهله هنا وهو « لماذا يدق القلب ؟ » « ولماذا يقبل الإنسان المثل الأعلى ؟ » لا يتدخل في عملية التسخير ، وذلك أننا حين نعلم أن صنع الماء من مواده هو الذي يمكننا من التسخير ، وليس علمنا أو جهلنا : لماذا يحدث هذا من ذاك . فكما أن روح الإنسان من نفخ الله ، فكذلك روح الأمة من إنزال الله . قال الله تعالى في نفخ الروح :

---

[3] المصدر السابق – ص 60 .

[1] صحيح البخاري – كتاب الأدب .

« يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » (سورة السجدة : الآيات 5-9) .

وأما إنزال روح الأمة فقد قال عز وجل :

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » (سورة الشورى : الآيتان 52،53) .

فكما أن الخلايا تنضم بعضها إلى بعض وتكوّن الكائن الحي ، كذلك أفراد البشر ينضم بعضهم إلى بعض ليكونوا الأمة . إن السر في انضمام بعضهم إلى بعض حينما تحدث لهم إرادة واحدة بهدف إيجاد كائن آخر هو (الأمة) ، فحياة الخلية تجعلها ترتبط بالخلية الأخرى ؛ كذلك تولد الإرادة في الفرد يجعله ينضم إلى الفرد الآخر فتتكون الأمة ؛ وكما يقولون في علم الاجتماع : المجتمع رسالة من (الأنا) إلى (الآخر) ليتكون (النحن) . فالجميع ينشأ من حمل فرد مثلاً أعلى إلى آخر ... وهذا هو التبليغ للروح الذي أوحاه الله :

« أوحينا إليك روحاً من أمرنا » (سورة الشورى : الآية 52) .

وبشيء من الجهد يمكن تصور الشبه بين الجسد الواحد والأمة ، فحين تتحقق الشروط لا يعود الفرد يملك الانضمام إلى بقية الأفراد ، أو أن يبقى منعزلاً عن المجموع حين تتوحد الإرادة الواحدة فيها . وهذا ما يمكن فهمه من قوله ρ : « مثل المؤمنين ...كالجسد الواحد » .

عرفنا كيف تتولد الإرادة .. وإن ولَّدنا الإرادة يتحد الأفراد وتنشأ الأمة . ومن الأمور التي يعرفها الأطباء الحيويون أن لكل جسم نمطاً معيناً من حياة خلاياه يختلف عن نمط الفرد الآخر ، فنمط الحياة في الكائن الحي يخضع لانسجام بحيث أن المشكلة التي تواجه الأطباء في عمليات نقل الأعضاء هي رفض الجسم للعضو الذي نقل إليه .

إننا يمكن أن نلاحظ ذلك في الأمة ، فإن الأفراد الذين تنتمي إراداتهم الاجتماعية إلى أمة أخرى ، فإنها لا تنسجم مادامت لا تحمل الوفاء إلا لمجتمع آخر ولروح أمة أخرى .

إن فطرة الجسم ترفض العضو الدخيل ، ولو أدى الأمر إلى القضاء على الكيان كله فتضحي بالجسم وتفضل الفناء على البقاء مع هذا العضو الدخيل ، وإن روح الأمة تكون في الإرادة الواحدة فإذا فقدت ماتت الأمة . وكما أن الجسم الحي إذا فقد روحه يتحلل ويعود إلى عناصره الأولية ، فكذلك المجتمع (الأمة) حين تفقد الإرادة تموت ويرجع أفرادها إلى اهتماماتهم الأولية البدائية لحفظ الذات لا لحفظ نمو المجتمع ، فلا يعود أحد يبالي بأحد ، وكل واحد يقول : نفسي نفسي .

والمجتمع يبدأ في الوجود حين تصير للأفراد إرادات تتجاوز ذواتهم وتشمل الآخرين . فإذا كان المثل الأعلى يعطي الإرادة للأفراد والأفراد يحملونه ، عند ذلك يبدأ المجتمع في الوجود . وهذا الفهم يسفر قوله تعالى : « لكل أمة أجل ص (سورة يونس : الآية 49) . وبهذا يمكن تصور الأجل للامة . فالرابطة التي تربط أفراد المجتمع هي الإرادة الواحدة .. والعقيدة الواحدة .. والهدف .. والمثل الأعلى الواحد . فالمثل الأعلى هو روح الأمة ، فإذا عرفنا كيف توجد الإرادة ومن أي شيء تتولد ؟ عرفنا روح الأمة كيف تتولد ؟ وكيف ننميها ؟ وكيف نحافظ عليها ؟

وبعد ذلك نبدأ في بحث المثل الأعلى كقيمة .. والمثل الأعلى كصناعة .

5- الإرادة كقيمة وكصناعة :

ماذا نقصد بالمثل كقيمة ؟ هذا جانب من جوانب بحث الإرادة . نقصد بالإرادة كقيمة : تفاضل الارادات ، أي كيف تكون إرادة أفضل من إرادة ؟ بل كيف يكون مثل أعلى أفضل من مثل أعلى آخر ؟ أي كيف تكون عقيدة أفضل من عقيدة أو كيف تكون روح أمة أفضل من روح أمة أخرى ؟

تكون روح أمة أفضل حين تشهد للمثل الأعلى حقائق الحياة والعلم بالصدق ، وأنه ينسجم مع المستقبل ويظل يؤدي دوره الكامل . وقد بحث محمد إقبال هذا الموضوع ، فكان مما قال :

« كان من بين ما يحكم به على قيمة دعوة النبي ، البحث في نوع الرجولة التي ابتدعها والفحص عن العالم الثقافي الذي انبعث عن روح دعوته »[1] .

فإذا قارنا سلوك رجل بسلوك رجل آخر أمكننا أن نميز بينهما ونحكم على قيمة المثل الأعلى الذي صنع كلاً منهما ... إن الفطرة الصافية تختار أفضل المثل العليا حين تعرض عليها ، وتقدر قيمتها بالنظر إلى نماذج الناس الذين صنعتهم هذه المثل العليا .

وإن قيمة الأنموذج الذي يصوغه الإسلام تبدو من المكانة التي وضع الله فيها الإنسان ، والقيمة التي أعطاه إياها حين جعل الكون مسخراً له . وهيأه ليكون خليفته في الأرض ، وتلك مكانة ما بعدها مكانة . وليس المراد هنا إثبات أفضلية الإسلام كقيمة . وإنما المراد إبراز أن الارادات تتفاضل على أساس قيمتها ، ولتحديد الأفضلية ينظر إلى أنموذج الإنسان الذي صنعه المثل الأعلى – كما سبق أن نقلت عن إقبال – وكما يقول عيسى عليه السلام : « من ثمارهم تعرفونهم »[1] ، والله تعالى يقول : « وخير عقباً » (سورة الكهف : الآية 44) أي انظر إلى العواقب .

نتحدث عن الإرادة هنا من جانبين :

1"– قيمة المثل الأعلى .

2"– والشروط التي يجب أن تتوفر في الإنسان لتتكون عنده إرادة مثل أعلى ما (أي المراد) .

وعند بحثنا الإرادة ينبغي أن نشير إلى أن المثل الأعلى ولو كان في أعلى المستويات ينبغي أن نشير إلى أن المثل الأعلى ولو كان في أعلى المستويات لا يكفي لتوليد الإرادة ، لأن الزوج الآخر وهو العقل الذي سيختار المثل الأعلى ، قد يكون خارجاً عن فطرته ، أو مرتبطاً بأهواء أخرى ، فوضع العقل أيضاً – من كونه على الفطرة ، أو محرف لحدوث أهواء فيه – يؤثر على قبول المثل الأعلى .

ومن هنا يمكن أن نفهم قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (سورة الأنعام : الآية 124) . فاختيار الرسول ρ كفرد ، واختيار الأمة العربية كمجتمع لحمل الرسالة مبني على فطرتهم أسلم ، وأهواءهم أقل من أهواء المجتمعات المعاصرة لهم من الفرس والروم التي لم تكن أحوالها تلائم لحمل الرسالة في تلك المرحلة من تاريخهم ، فهم في ذلك الوقت من الأنموذج الذي وصفهم الله بقوله :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (سورة غافر : الآية 83) .

وهذا الموضوع في حاجة إلى بيان أوفى ، لأن له دخلاً وأهميته في بحث الإرادة كصناعة ... وكثير من الذين يبحثون المشكلة الإسلامية لا يعطون لهذا الجانب الأهمية التي يستحقها . فكل بحثهم يتوجه إلى إبراز أهمية المثل العليا الإسلامية ، بصرف النظر عن تأمل حال الإنسان الذي سيحملها . بينما « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (سورة الأنعام : الآية 124) : تشير إلى

---

[1] تجديد التفكير الديني – فصل روح الثقافة الإسلامية ص 142 .

[1] إنجيل متى إصحاح 7 فقرة (20) .

الشروط التي ينبغي توفرها في المجتمع والإنسان – ولا تشير إلى الشرط الذي ينبغي توفره في الرسالة – وهذا الجانب يبرز أهمية أوضاع معينة للمجتمعات تساعد على قبول المثل الأعلى أو رفضه .

إن تفاوت الأفراد والجماعات في قبولهم المثل الأعلى راجع إلى ثقافتهم لا إلى فطرهم واستعداداتهم ، وفي هذا جاءت الآية « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (سورة الأنعام : الآية 124) . والسيطرة على تغيير ما بالنفس تدخل هذا الموضوع أيضاً في عالم التسخير الذي يقتدر به على تغيير ما بالأنفس من مثل عليا وضيعة إلى مثل عليا سليمة .

وأما الإرادة كصناعة :

فلا نقصد منها إيجاد الإرادة فهو جانب آخر من الموضوع ، وإنما نقصد العملية الفنية لتحقيق ما نريده ، وكفاءة الجهاز الذي يقوم بعملية عرض المثل الأعلى على العقل (بغض النظر عن قيمة المثل الأعلى) وإن كانت الإرادة تتولد ذاتياً حين يعرض المثل الأعلى . إلا أن صحة العقل ووضوح المثل الأعلى ، كلما كانا تامين ، كان القبول وتولُّد الإرادة أتم . وهذا لا يرجع إلى قيمة المثل الأعلى ، وإنما يرجع إلى الجهاز الذي يقوم بتوليد الإرادة وحفظها . ويمكن تقريب الموضوع بمثل :

مدرستان تعلمان البرامج نفسها . ومع ذلك يمكن رؤية الفرق بينهما حين تعطي إحداهما نتائج أحسن من الأخرى ، وهذا يمكن أن يكون راجعاً إلى نماذج الطلاب في المدرسة ، أو إلى نماذج المعلمين والإدارات مع وحدة البرامج التي تعرض . وهكذا فإن بعض الأجواء تكون مساعدة في وضوح الرؤية الفكرية .

وهنا ارجع مرة أخرى إلى أهمية البلاغ المبين ، وإلى أهمية الجهاز الذي يقوم بالبلاغ في العالم الإسلامي ، إلى مدرسة العالم الإسلامي التي برنامجها القرآن ، وقد أنتج هذا البرنامج (الصحابة) فماذا ينتج لنا الآن ؟ إن الأمر لا يرجع إلى البرنامج . وإنما إلى المشرفين على البرنامج .. إلى الذين يقومون بتوليد الإرادة وحفظها . وفهم هذا سبب لفهم الفصل بين ما يرجع إلى المثل الأعلى وما يرجع إلى المشرف من نقص في عرض المثل الأعلى .. وبعبارة أخرى : الفرق بين المبدأ والتطبيق . فالمبدأ الجيد إذا أشرف على تطبيقه أناس غير مؤهلين كانت النتيجة الفشل . ويرى المنكرون للمبدأ أن الفشل راجع إلى طبيعة المبدأ فيقولون لو كان الإسلام حقاً لرفع أهله ، بينما يرى أصحاب المبدأ أن فشلهم راجع إلى القدر الأعلى وكلتا النظريتين خاطئة . والمسألة رباعية :

1"– مبدأ حق وتطبيق حق : وهذا ينتج نتائج إيجابية هي أعلى ما تكون نسبتها كما تحققت على يد رسول الله ρ .

2"– مثل أعلى باطل وتطبيق جيد : قد يعطي نسبة عالية من النتائج ولكن دون الأول ، كما جرى في اليابان وألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية فقد استطاعتا بالتطبيق الجيد أن ترفعا إرادة شعوبهما أعلى درجات الإرادة وهي بذل النفس والمال في سبيل خدمة مثلهم الأعلى الباطل وهو الاستكبار في الأرض والاستعلاء على البشر .

3"– مثل أعلى حق وجهل في التطبيق : يعطي نتائج أقل من الأول . وحتى ما بقي له من نتائج لا يرجع إلى حذق في عملية توليد الإرادة ، وإنما إلى ما في المثل الأعلى من قوة ذاتية ؛ وهذا ما يعنيه أحد الدارسين للمشكلة الإسلامية في قوله : (إن المسلمين ليسوا هم الذين حفظوا الإسلام ، وإنما الإسلام هو الذي حفظهم ...) وقد يتداخل الأمر بين حفظ الإسلام كمبدأ ، أو حفظ المسلمين كبشر . ولكن لابد من فهم ما يرجع إلى كل واحد منهما ، وهذا التداخل في كثير من الأحيان يكون سبباً لأحكام خاطئة . فمثلاً : حين يهاجم الإسلام من خلال عمل المسلمين ، فهذا هجوم خاطئ على المبدأ نشأ من تداخل المبدأ بالمطبق . وكذلك الدفاعات الخاطئة حين نحاول أن نجعل بعض أعمال المسلمين الخاطئة في مستوى القرآن أو نجعل هذه الأعمال الخاطئة وسيلة لفهم القرآن . وهذا ما يجعل أعمال المسلمين وأفكارهم غير قابلة للنقد والمراجعة في العصر الحاضر ؛ مما يوقع كثيراً من الشباب في البلبلة الفكرية .

4"– مثل أعلى باطل وتطبيق سيئ .. وهذا لا يمكن أن ينشأ عليه مجتمع أصلاً .

ويمكن أن يكون تحت كل صنف من الأصناف الأربعة درجات لا تحصر من الخطأ والصواب ، في كل من المبدأ والتطبيق .

إن الأول يكتسح العالم بسرعة . والثاني يعمل ضجيجاً وينجح إلى حد ما ، ولكنه ينطفئ على مر التاريخ . والثالث يبقى بقوة ما في المثل الأعلى من صلابة كالأديان الكبرى وخاصة الإسلام .

والحالة الثالثة هي التي تقبل العودة بإصلاح الإنسان ، وهو ما يدور حوله الكفاح والصراع في العالم الإسلامي بين الذين يرون الحاجة إلى تطوير المثل الأعلى – ويختلفون كثيراً في معنى التطوير ، بين تغييره وبين إعادة فهمه على وجهه الصحيح – وبين الذين يرون ثبات المثل الأعلى الإسلامي وعدم حاجته إلى التطوير ، ويختلف هؤلاء كثيراً أيضاً في معنى الثبات فهل الذي يثبت هو المبدأ أم التاريخ ؟

وهنا أرى أنه ينبغي الإشارة إلى أن الإرادة كصناعة راجعة إلى القدرات ، وهذا ما سنبحثه لاحقاً ..

الفصل الرابع

القُدرَة

طال الاستغراق في بحث الإرادة ، فتأخر بحث القدرة أكثر مما ينبغي .. ونبدأ فنسأل : ما القدرة ؟

في المثل الذي سبق أن ذكرته في عمل إطفاء المصباح ، استبان لنا ما لإرادة ؟ وما القدرة ؟ وأن القدرة هي استطاعتنا الإطفاء باستخدام اليد والقوة العضلية . فالذي لا قدرة له لا يتمكن من إطفاء المصباح أو إيقاده مهما كانت عنده إرادة في الإيقاد أو الإطفاء ، فكأن القدرة بهذا التعريف هي : القدرة الجسمية العضلية وهو أمر ضروري لكل عمل .

وفي مثال أداء فريضة الحج توجد قدرة وإرادة . والقدرة هي استطاعة السبيل « لمن استطاع إليه سبيلاً » (سورة آل عمران : الآية 97) التي فسرها الفقهاء بالزاد والراحة ، وهي قدرة مالية يرجع تحصيلها إلى القدرة الجسمية أي إلى الطاقة . والطاقة في الكون لها أشكال مختلفة : كهربائية وميكانيكية وكيميائية ... وتؤول الطاقة في نهاية الأمر إلى الحركة ؛ إذ قانون تحوّل المادة إلى طاقة وبالعكس هو : (2/1ك سر2) أي الطاقة تساوي نصف جداء الكتلة في مربع السرعة . وتدل عبارة السرعة في القانون السابق على الحركة ؟ والحركة في هذا الكون نوعان : حركة إرادية كحركة الإنسان ، وحركة لاإرادية كحركة الشمس والقمر .

وكما التبست الإرادة الكونية بالإرادة الشرعية عند بعض المتصوفة فجعلوا كلتيهما طاعة حتى قال أحدهم :

أصبحت منفعلاً لما يختاره   فأصبحت أفعالي كلها طاعات

كذلك في القدرة : التبست القدرة المجردة من الإرادة بالقدرة الإرادية ، فأصبح الناس يسألون أنفسهم هل نحن مسيرون أم مخيرون ؟!! فبتساؤلهم هذا اعتبروا حركتهم وأفعالهم كحركة الشمس والقمر المسيرة ، بينما الشمس والقمر مسخرات للإنسان ذي القدرة المقترنة بالإرادة .

1– عمق المشكلة :

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » (سورة الجاثية : الآية 13) .

لقد وردت كلمة التسخير في كتاب الله كثيراً ... هذا وإن مناط التسخير العلم والفهم ، فسخر الله الكون وما فيه للإنسان دون غيره من المخلوقات لأنه قادر على تحصيل العلم :

« وعلّم آدم الأسماء كلها » (سورة البقرة : الآية 31) ، « الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » (سورة الرحمن : الآيات 1،3) . « اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم » (سورة العلق : الآيات 3،4) .

كما جاء في التوراة : « لعل الحكمة لا تنادي .. أيها الناس أنادي وصوتي إلى بني آدم ، أيها الفضة . والمعرفة أكثر من الذهب المختار ، لأن الحكمة خير من اللآلئ ، وكل الجواهر لا تساويها .. أنا الحكمة أسكن الذكاء .. أنا الفهم لي القدرة . أنا أحب الذين يحبونني ، الذين يبكّرون إليّ يجدونني »[1] .

إن هذه الكلمات من الهدى والنور الذي قال الله عنه :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا » (سورة المائدة : الآية 44) .

مستويات القدرة :

قلت في بحث القدرة : كما أن للإنسان قدرة على الحركة ، له قدرة على الفهم والإدراك أيضاً أي فهم السنن وقوانين المادة والحياة والأخلاق . إن فهم القوانين المادية قدرة من القدرات التي رفعت الإنسان إلى القمر ، وفهم قوانين الحياة رفع مستوى متوسط العمر إلى السبعين في بعض البلاد[1] . وفهم قوانين الأخلاق هو الذي سيثبت ما علمه الله في الإنسان ، ولم تعلمه الملائكة حين قالوا :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها » (سورة البقرة : الآيتان 30،31) فكان بدء وضع الأسماء وكتابتها مدخل الإنسان لفهم السنن .

إذن فالقدرة على مستويين : مستوى طاقة مادية ، ومستوى طاقة عقلية فهمية ولابد من التعرض لهما .

أ– القدرات المادية :

يمكن أن نتصور القدرات المادية في قوة العضلات وكثرة الأشخاص وسعة الأراضي التي يملكها الشعب ، والثروات التي في باطن الأرض من نفط ومعادن ومساقط المياه – ويتنافس العالم اليوم لإيجاد مصدر متجدد للطاقة قبل نفاذ طاقة النفط – ومن هذا الجانب ربما نقول : إن العالم الإسلامي عنده قدرات هائلة سواء في عدد الناس ، أو ما يملكون من قدرات ، ولكن هذه القدرات مهدورة ولا نعرف قيمتها ولا نستغلها . فالنفط مثلاً قبل أن يعرف الناس كيفية الاستفادة منه ، لم يكن من القدرات لديهم ، ذلك أن القدرة المادية تظل كامنة لا يستفاد منها حتى يكشف الإنسان سنن استخدامها – تسخيرها – عن طريق استخدام القدرات الفهمية ...

ب– القدرات الفهمية :

ويمكن أن نسميها : القدرات العلمية ، ويقصد بها معرفة استخدام القدرات المادية – تسخير المادة – وتزداد القدرات الفهمية على مرِّ الزمن أهمية لأن القدرات المادية لا تظهر قيمتها حتى تتوفر لها القدرات الفهمية .

ونستطيع القول : إن موضوع هذا الكتاب كله ودوافع بحثه يتعلق بهذا الموضوع ؛ وهو ما يريد المؤلف إبرازه . وما ينقص العالم الإسلامي الآن هو القدرات الفهمية لا القدرات المادية أي ينقصهم العلم[1] . وأبحث هذا الموضوع لأني أرى أن مشكلة العالم الإسلامي في وقته الراهن هي نقص القدرات الفهمية ، أعني بها معرفة سنن تسخير إمكانات العالم الإسلامي المادية والبشرية وهو ما ينبغي علينا أن نحصله .

---

[1] سفر الأمثال – اصحاح 8 .

[1] مجلة العصر الحديث العدد 21-22 ، ص 30، أيار 1979 .

[1] حين أقول هذا فليس معنى ذلك أنني حصلت العلم وإنما عرفت أنه ينقصني العلم وعلي تحصيله .

وإذا استطعت أن أوضح هذه النقطة للقارئ الكريم توضيحاً جيداً ، فهذا هو هدفي من البحث ، لأني اعتقد انه إذا تبين له هذا الموضوع جيداً فإنه سيبدأ في تحصيل هذه القدرة وسيسعى إليها في مظانها ليعثر عليها إن كانت مكتشفة ، أو يبدأ في البحث عنها ليكتشفها هو .. وتخلف العالم الإسلامي يرجع إلى فقده القدرات الفهمية ، وهذا ما أريد بيانه وبحثه .

وأظن أني قدمت بما فيه الكفاية أن العمل لا يتحقق بغير القدرة والإرادة ؛ ولزيادة الإيضاح سميناها الزوجين اللذين يلدان العمل الصالح والناجح . وإذا نقص أو فقد أحدهما لم يكن ممكناً أن يحدث العمل ، ولقد ألقينا بعض الأضواء على بحث الإرادة ، والآن علينا أن نبحث موضوع القدرات .

قد يظهر بهذا الشكل الذي عرضت به الموضوع أن فهمه وإدراكه سهل ولا تقيد فيه ، ولكن – بحسب خبرتي في بحث هذه المشكلة – أرى أن الأمر ليس سهلاً ولا قريب الفهم للعالم الإسلامي ...

وبما أن مشكلة عجز المسلمين هي من المشكلات الكبيرة العالمية ، فإن البحث في مشكلتهم له من المكانة والجلال ما يكافئ عظم المشكلة ، وهذا ما يجعلني أضع نفسي بين الذين يحاولون بحثها باستيحاء بالغ ، وليس هذا فقد بل حين أزعم أن الباحثين في هذه المشكلة لم يحدّدوا المشكلة فضلاً عن أن يحلوّها ، فأنا أيضاً لا أزعم أني سأحل المشكلة – لأن هذا ليس إليّ – ولكن العالم الإسلامي نفسه هو الذي سيحل المشكلة ، ولكني سأحاول تحديدها ليتوجه المسلم إلى مكانها ويبدأ العمل بكل بساطة وطمأنينة بدل أن يحاول القيام ببطولات خارقة ، وعنتريات فذة بقفزات فوق السنن في حين أن حل مشكلته يبدأ ويتم بأعمال يومية ولحظية يؤدي فيها واجباته البسيطة .

وهنا أشعر بالامتعاض ، أقول هذا نتيجة خبرتي ومعاناتي في المستويات المختلفة ، حين أبذل جهدي في توضيح الموضوع أواجه بسؤال عفوي عادي أشعر أنه هدم كل ما كنت أحاول بناءه ، فأُصدم ولا اعرف ماذا أفعل . ومن لم يعان هذا الموضوع لا يعرف ما يحيق بأفكاره من التشويه والبتر والابتذال . فمثلاً كلما ما تعبنا في إثبات أن الذي ينقص المسلمين هو الصواب وليس الإخلاص – على الأقل فبالوقت الراهن – وبعبارة أخرى إن الذي ينقصنا العلم وليس الإيمان (القدرات وليس الارادات) ..يرجع ويقول لنا : إن المشكلة تكمن فيعدم وجود المخلصين المؤمنين . وفي مثل الذهاب إلى الحج قد يفقد الإنسان الإرادة وعنده القدرة ، وقد يفقد وعنده الإرادة ، ووجود هذين النموذجين : من لا يريد الذهاب ومن لا يقدر على الذهاب –لا يختلف فيه أحد – ولكن مع هذا الوضوح قد يختلط الأمر عليك ، وتصير إلى إنكار أن يوجد هذان الصنفان من الناس ، وإنما يوجد صنف واحد فقط ؛ وقد تقول لي : يوجد الذين لا يريدون ، ولكن لا يوجد من لا يستطيع . وأقول : هذا ظلم ومحاولة للتهرب من الموضوع ، لأنه يوجد كثير من الناس لا يستطيعون الحج وإن كانوا يريدون ، وهؤلاء كمن :

« تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » (سورة التوبة : الآية 92) .

فالتسوية بين هؤلاء وبين المخلفين الذين ذكرهم الله في سورة التوبة وفضحهم ، تسوية غير مقبولة .

وهذا الواضح الخفي هو الذي جعل حسن البنا رحمه الله يكتب في مقدمة رسالته (إلى أي شيء ندعو الناس) : « قد تتحدث إلى كثير من الناس في موضوعات مختلفة ، فتعتقد أنك قد أوضحت كل الإيضاح ، وأبنت كل الإبانة ، وأنك لم تدع سبيلاً إلى الكشف عما في نفسك إلا سلكتها حتى تركت من تحدثهم على المحجة البيضاء ، وجعلت لهم ما تريد بحديثك من الحقائق كفلق الصبح أو كالشمس في رابعة النهار ، وما أشد دهشتك بعد قليل حين ينكشف لك أن القوم لم يفهموا عنك ولم يدركوا قولك ... رأيت ذلك مرات ولمسته في عدة مواقف »[1] .

---

[1] مجموعة رسائل حسن البنا – ص 124 – بيروت – 1965 .

وهذا ما جعل ابن خلدون يذكر قصة طريفة لتقريب هذه المشكلة لما ذكر غرائب ما يتحدث به ابن بطوطة من رحلته قال : « فتتناجى الناس بتكذيبه ، ولقيت أيّامئذ وزير السلطان فارس ابن وردار البعيد الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن ورأيته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس في تكذيبه . فقال لي الوزير فارس ابن وردار البعيد الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن ورأيته إنكار أخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس في تكذيبه . فقال لي الوزير فارس : إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره ، فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن ، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك المحبس ، فلما أدرك وعقل ، سأل أباه عن اللحم الذي كان يتغذى به فقال له أبوه : هذا لحم الغنم ، فقال : وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها ، فيقول : يا أبت : تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول : أين الغنم من الفأر ؟ وكذا في لحم الإبل والبقر إذ لم يعاين في محبسه من الحيوانات إلا الفأر ، فيحسبها كلها أبناء جنس الفأر ...

وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار ، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الأغراب كما قدمنا أولا الكتاب . فليرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه . وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق ، فإن نظامه أوسع شيء ، فلا يرفض حداً بين الواقعات ، وإنما مرادنا بحسب المادة التي للشيء »[1] .

وهذا ما قرره مالك بن نبي – رحمه الله – بأسلوب آخر في كتابه (الأفريقية الآسيوية) حيث قال : « لأن البداهة لم تكن لتبرئ الإنسان من فكرة مسيطرة عليه »[1] .

وقوله : « وحتى في الكتابات العلمية الخالصة ، نلاحظ وجود هذا العنصر الانحرافي الذي يقحم دخائل النفس الإنسانية في المشكلات الاقتصادية . ومن الأمثلة على ذلك ما نلاحظه في كتابات بعض الاقتصاديين الغربيين تلك التي لا نستطيع أن ننازع في نزاهتها الخالصة ، أو جدارتها ، فإن عنصر الانحراف يتدخل كلما اتصل الحديث بالمشكلة الاستعمارية ، وإنه ليتحدث عنها بمنطق الفني الكامل الذي لا يغض النظر في أية لحظة عن قيمة الأرقام ودلالة الأحداث والوقائع ، غير أنه بعد أن يبرهن على الخسارة الهائلة التي جشّمتها مستعمرة معينة لمستعمريها ، يستخلص نتيجة غير منتظرة هي أن وجود بلاده ضروري في المستعمرات على الرغم من خسارة الميزانية . هذه لا جدال نقطة تتشابك فيها حقيقة الضمير مع حقائق العلم ، وينتج عن هذا انحراف يحدث بصورة مغرضة في جميع التصريحات والبيانات »[2] .

هكذا تعمل الفكرة المسيطرة على الإنسان فتحول بينه وبين فهم الفكرة الأخرى مهما كانت بدهية . وهذه الأمثلة سقناها في مستوى صعوبة انتقال الفرد ضمن حضارة معينة من مستواه المتخلف إلى مستوى آخر أفضل .

كما يمكن رؤية هذه الصعوبات في مستوى إنسانيين من حضارتين مختلفتين ولكن بشكل معقد أكثر . فالمسلم يرى بداهة مساواة الأبيض والأسود ، ولا يدرك كم أمام الإنسان الأمريكي من عقبات تحول بينه وبين فهم هذه البدهية البسيطة ، والمسلم الذي يقرأ في كتاب الله تعالى :

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » (سورة النحل : الآية 58) .

---

[1] مقدمة ابن خلدون – ص 158 – القاهرة 1966 .

[1] مالك بن نبي – الأفرسيوية – ص 53 – القاهرة – الطبعة الأولى .

[2] المصدر نفسه – ص 41 .

لا يزال يحمل فكراً جاهلياً كثر أو قلّ ، بينما الرجل الغربي الذي تتهمه بالجاهلية عنده هذه الحساسية إذا ولدت له أنثى .. ولا يتمكن مسلم اليوم أن يدرك مشاعر الغربيين هنا ، لأن بيئته سيطرت عليها فكرة ما حالت بينه وبين فهم ما يريده الآخر .. وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم حين يقول :

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟؟ » (سورة الرعد : الآية 5) ، وقوله تعالى : « قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ؟ ثم هم يصدفون » (سورة الأنعام : الآية 46) .

يقول ابن تيمية : (إن الله تعالى لم يقصّ علينا في القرآن قصة أحد إلا لنعتبر بها لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه ومصلحتنا ، وإنما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني والأول ، وكانا مشتركين في المقتضي للحكم ، فلولا أن في نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله – شبه بنا ، لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط ، ولكن الأمر كما قال الله تعالى :

« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » (سورة الذاريات : الآية 52) .

وقال الله تعالى : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » (سورة البقرة : الآية 118) .

وقال الله تعلى : « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (سورة التوبة : الآية 30))[1] .

ولهذا قال النبي ρ : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ، قلنا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن »[2] . كما قال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « لا قوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ،فقيل يا رسول الله كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك »[3] .

فالمسلمون – على الرغم من بقائهم مسلمين – معرضون لأن يقعوا بما وقع فيه غيرهم من تجافٍ للحق وعدم رؤيته ، وأنه يمكن أن يبتلوا بمفاهيم خاطئة تجعلهم يتحدون أوضح البدهيات واليات البينات . من ذلك مثلاً ظن العالم الإسلامي أن الذي ينقصه لحل مشكلته الإخلاص وليس الصواب (أي الإرادة وليست القدرة) بينما يذكر ابن تيمية في لفتة فكرية رائعة « أن الحب (الإخلاص) يتبع العلم (الصواب) »[1] .

والقرآن يؤكد كثيراً كيف يمكن للناس أن يتحدّوا البهيات والآيات البينات انطلاقاً من الأفكار المسيطرة والمسلمات التي عندهم من غير محاولة لفهم أفكارهم المسيطرة وأدلتها ، وإنما يكتفون بالإجماع الظاهري الذي كان عليه الآباء ، وهذا الذي وجودا عليه الآباء ، جدار متين يسندون إليه ظهورهم بوعي ويغر وعي حين يتحدّون البدهيات في كل عصر سواء في ذلك الأمريكي حين يصر على العنصرية ، أو المسلم حين يصر على التعامي عن آيات الآفاق والأنفس التي ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل كما هي اليوم . والقرآن مليء بمثل هذه المواقف التي كانت تقفها الأمم من الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس اتباعاً لأهوائهم ، وما ألفوا عليه آباءهم .

وهذا الموضوع جدير بالبحث والدرس والتعميم ورؤية مشاكله اليومية . وإن الآليات الذهنية نفسها اليوم تقوم بتحدي البدهيات سواء ذلك عند المسلمين أو غيرهم ؛ وأنا أحاول أن أبحث نقطة من هذه النقاط التي تسيطر على المسلمين ، وتحول

---

[1] الفتاوى لابن تيمية – الجزء 14 – ص 322 .

[2] صحيح البخاري – كتاب الاعتصام – الطبعة المنيرية – ج9 – ص 184 .

[3] المصدر السابق – ص 184 .

[1] فتاوى ابن تيمية – ج 10 – ص 56 .

بينهم وبين رؤية الواقع على حقيقته ووضوحه ؛ أل وهي ما يحدث من خطأ في فهم موضوع القدرة والإرادة ، وكيف نقع في التناقضات في كل منهما .

2- كيف يحصّل الإنسان القدرات :

إذا نظرنا إلى الطفل حين يولد نجد لديه قدرة مص الثدي – وهي قدرة مادية – وهذه القدرة مهما أن عنصر الإرادة فيها خفياً فهي قدرة ، ولكن بعد قليل تصبح لديه قدرة أخرى هي التعبير عن إرادته بالبكاء فيستخدم قدرة البكاء لإظهار إرادة ما ، لأن الطفل من شأنه عدم البكاء إذا كان في راحة تامة من حيث النظافة والغذاء والصحة والوضع المريح ، والباحثون والمجربون يعلمون هذا . وكلما كبر الطفل صارت له قدرات ، فهو لا يبصر في الأيام الأولى من ولادته ، كما أنه لا يستطيع القعود والمشي و... ومع مرور الزمن تنمو هذه القدرات لديه . وكذلك الشأن في القدرات الفهمية فإن الطفل يبدأ في التمييز بين وجه والدته وإخوانه ، ثم في فهم الكلمات إلى أن يتعلم التكلم ، ويسأل عن الأشياء التي يراها . وهكذا يمر الطفل في مراحل مدهشة من النمو ، سواء في نوه الجسمي ، أو نموه الفهمي ، أو نموه الأخلاقي ..

إن لنمو القدرات الجسدية وتحصيلها ، قوانين واضحة ساهمت في تحسين الوضع الصحي للبشر ، وقللت من وفيات الأطفال ؛ ويمكن للإنسان مهما اختلفت ثقافته أن يكتمل بناؤه الجسدي في سن العشرين بتطبيقه الأسلوب الصحي المناسب .

بينما القدرة الفهمية وتحصيلها ليست كذلك . وأما كيف بدأت ؟ فنجيب ع ذلك بقولنا : إن القدرات الفهمية كسنن ، موجودة من يوم خلق الله الأشياء ، بل قدّرها قبل أن يخلق العالم ... فمثلاً سنن الذرة هي سنن الذرة قبل كشفنا لها وبعد كشفنا لها ، ولكن حين كشفناها صارت لنا قدرات فهمية عن الذرة لم تكن موجودة عندنا من قبل . وسنن الجراثيم الممرضة هي كما كانت قبل اكتشافنا لها ، ولكن نحن الذين تغير موقفنا منها بعد أن كشفناها وصارت لنا قدرة على تسخيرها .

ولننظر نظرة أعمق للقدرات – على أساس كيف بدأ الخلق – إلى الفرق بين صغار الإنسان والحيوان . فلو أخذنا مولوداً حديثاً من الحيوانات وليكن من البقر ، وربيناه من غير أن يرى واحداً من بني جنسه ، حتى إذا بلغ مرحلة الإخصاب وأدخلناه بين بني جنسه لا نجد فرقاً كبيراً بينه وبين الذي عاش بين أفراد جنسه . ولكن لو تصورنا هذا الأمر في جنس الإنسان ، فأخذنا طفلاً من يوم ولادته ، وبطريقة ما وصل هذا الطفل إلى مرحلة الإخصاب دون أن يرى احداً من بني آدم ؛ كيف تتصور أن يكون هذا الإنسان عندما ندخله إلى بني جنسه ؟ يمكنك أيها القارئ أن تتخيل كيف سيكون هذا الإنسان ؟ إنه لا يستطيع أن يتكلم أية لغة من اللغات ، بل تكون قد فاتته المرحلة الذهبية في تعلم لغة ما بسهولة ويسر ، ثم كم جانب من جوانب القدرات الإنسانية يظل ضائعاً ؟ بل إن هذا الإنسان يكون أدنى من الحيوانات ، لأن الحيوانات بغرائزها تنظم حياتها ، بينما الإنسان مركب من قدرات الإنسان التاريخية التي اكتسبها على مر التاريخ ، كالأمور الأخلاقية ومعنى الحلال والحرام ، والحق والواجب ، وما إلى ذلك من أمور . ومهما حلقت في التفكير ، فما أظنك تحيط بما يفقد هذا الإنسان بفقده الحياة مع بني جنسه ... ومن هنا نعلم أن الإنسان لا يمكن أن يستقل عن بني جنسه . ليس عن بني جنسه المعاصرين له ؛ بل عن بني جنسه الأقدمين ، لأن كل المعارف التي للأجيال الماضية تعطى مختصرة للطفل الذي ينشأ في المجتمع .وبهذا يُعرف أن الإنسان يكتسب قدرات هائلة ، ولو كان في قبيلة ولو بدائية وبين من لم ير إنساناً قط . وكذلك يمكن ملاحظة الفرق بين من نشأ في قبيلة بدائية وبين من نشأ في مجتمع متمدن . وهذا يدلنا على أن الإنسان حين يولد ، فإن المجتمع هو الذي يعطيه القدرات المكتسبة المتراكمة على مر التاريخ . ينبغي أن لا ننسى هذا ؛ وهو أن الإنسان في قدراته وصلاته بالكون والإنسان والخالق في حاجة إلى أن نلخص له تاريخ مكاسب الإنسان كلها لنعطي له خلال سنوات قصيرة كل ما تبعت به البشرية في الحصول عليه خلال آلاف السنين ، وهذا أوضح ما يكون في العلوم : الطب والفلك والرياضيات ... فكم تعبت البشرية حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في هذه العلوم – مثل كشف التعقيم والتلقيح وبعد النجوم وقوانين سرها ورموز الأرقام والصفر ... – هذه القدرات الفهمية لها تواريخها والزمن الذي

اكتشفها الإنسان فيه ، وكذلك كل القدرات الأخرى من معرفة إيقاد النار وزرع الأرض واستئناس الحيوان ث تسخير البخار والكهرباء ... وكما أن صنع سيارة أو صاروخ أو ... يحتاج إلى قدرات فهمية لا شك فيها ؛ فإن تنظيم المجتمع وصنع ثقافته واختيار المبدأ الذي يترابط على أساسه ، يحتاج إلى قدرات فهمية أيضاً .

والجانب الذي نهتم به في هذا الكتاب ؛ هو جانب القدرات الفهمية ، ولاسيما القدرات الفهمية لصناعة المجتمع ، وفهم القوانين التي لها أمر صلابة المجتمع وقوة تماسكه ، وأساليب علاجه وتغييره وضبطه .

وينبغي أن نبدأ في موضوع القدرات من نقطة الصفر أيضاً . فلنفهم كيف توجد ، ومن أي أبوين تولد ، لابد من رؤية ذلك بوضوح . ولنتمكن من ذلك لابد من اتباع أمر الله في النظر كيف بدأ الخلق ومنه خلق القدرات الفهمية . وهنا يمكن أن نقول : إن الحيوانات ليس لها قدرات فهمية وغنما لها قدرات غريزية موروثة . ولإمكان رؤية بدء خلق القدرات الفهمية ، يمكن أن ننظر إلى الأطفال كيف يتعلمون من المجتمع ما تعلمه الطفل خلال بضع سنوات . كما يمكن للطفل العادي خلل عشرين سنة أو ثلاثين سنة من عمره .. أن يبلغ في الموضوع الذي تخصص فيه إلى نهاية ما وصل إليه العلم في هذا الموضوع الذي جهدت فيه البشرية لبضعة آلاف من السنين .

ومن هذه الظاهرة نفهم أمرين :

1"- كيف تتكون القدرات ببطء خلال التاريخ

2"- كيف تنتقل هذه القدرات بعد أن أصبحت علماً إلى الأطفال خلال سنوات قليلة .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ينبغي البحث عن أبوي القدرات أي عن الزوجين اللذين يلدان القدرات وهما العقل وسنن الكون .

أما الزوج الأول وهو عقل الإنسان ، فإننا لا نبحث عن كنهه وإنما عن وظيفته ، وقد قال الله تعالى عنه :

« ثم أنشأناه خلقاً آخر » (سورة المؤمنون : الآية 14) .. « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » (سورة الإسراء : الآية 36) .

والزوج الثاني وفيه مجال عمل عقل الإنسان ؛ هو وقائع الكون وأحداث التاريخ البشري – أي آيات الآفاق والأنفس – لأن العقل إن لم يتصل بوقائع الكون وأحداث التاريخ البشري ، لا يمكن له أن ينمو . فكما أن العين لا تبصر بغير ضوء ، فكذلك العقل لا يقوم بوظيفته بغير وقائع الكون (آيات الآفاق) ، وأحداث التاريخ البشري (آيات الأنفس) .

إذن نستطيع القول : بأن العقل والكون يتفاعلان لإيجاد القدرات الفهمية .

إن من طبيعة العقل فهم السنن واستنباطها من المخلوقات ووقائع الكون وأحداث التاريخ التي تخضع بطبيعتها للسنن . وهذه العلاقة المزدوجة هي التي تولد القدرات . ومظهر هذه القدرات هو التسخير . فالقدرة تبرز من خلال التسخير « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (سورة الجاثية : الآية 13) .

وجدنا فيما سبق عندما يعرض المثل الأعلى على العقل فإنه يدركه ويميزه ، كما تدرك حاسة الشم الرائحة وتميزها . فكما أن العقل طرف في تحصيل الارادات ، كذلك هو أيضاً طرف في تحصيل القدرات الفهمية ؛ وذلك حين تعرض الأحداث التاريخية ووقائع الكون عليه ، يبدأ في البحث عن سننها وأسبابها ، فيسأل : كيف ولِمَ يحدث هذا ؟ ثم يكشف قانونه كما فعل ابن خلدون في النظر إلى الأحداث التاريخية للبشر في عمرانها ونموها وتوسعها وانحدارها . ولهذا يأمرنا الله تعالى أن ننظر إلى سير الذين خلوا من قبل لنكشف عوامل هلاكها أو نموها ، وعوامل سعادتها وشقائقها . ومكن بسهولة رؤية الهلاك والشقاء والنجاة والسعادة ، ولكن رؤية أسبابها أصعب ؛ وهذا ما بحثه ابن خلدون ، والدارسون للتاريخ من هذه الجهة . وبرؤية أسباب ذلك رؤية واضحة يتحول التاريخ إلى علم وإلى تسخير ، وما لم يتحول إلى تسخير – لتفادي المصائب – ليكون قد تحوّل إلى علم أصلاً .

وهنا ينبغي البحث في الموضوع من جانبين : جانب كيفية كشف السنة ، وجانب التأكد من صحة هذا الكشف . ويكون الأول بملاحظة كيفية وقوع الحدث ورؤية سببه . ويكون الثاني بالقدرة على توجيه الحدث وتسخيره والسيطرة عليه .

والجانب الأول يمكن أن يبحث من خلال ما يعرضه ابن تيمية من مراتب الوجود في قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » (سورة العلق : الآية 1) فيعتبر أن مراتب الوجود أربعة : وجود عيني ، وجود ذهني ، وجود لساني ، وجود بناني .. والآية تنص على الوجود الأخير والوجود الأول . فالوجود الأول هو الوجود الخلقي الذي سماه العيني ، وسماه الغزالي : الوجود الخارجي أي وجد الشيء في الواقع الخارجي ، ثم وجود صورة هذا الوجود الخارجي في ذهن الإنسان ، ثم التعبير عن هذه الصورة الذهنية باللفظ – باللسان لفظاً – ثم التعبير عن هذا اللفظ بالخط الذي سماه ابن تيمية : بَناني[1] .

ويمكن ضرب المثل لذلك بالرعد ، فله وجود خارجي يحدث في السحاب ، وله صورة ذهنية في الإنسان . ويعبر عن هذه الصورة الذهنية التي حدثت في ذهنه بلفظ رعد ، ثم يعبر عن ذلك برسم صورة من الخط يدل على هذا اللفظ .

فالله تعالى ذكر القراءة ، وذكر الخلق ، لأن الوجود الخارجي هو الخلق الذي تحدث للإنسان صورة عنه ، ثم يعبر عنها باللفظ ثم بالخط ..

فالخلق هو الوجود الأول الذي يسمى العيني أو الخرجي ، والخط – أو البناني أو الرسمي – هو الوجود الأخير . فالله ذكر الأخير والأول وما بينهما واسطة . وما ذكره ابن تيمية والغزالي يدل على الجانب لاسمي أكثر من الجانب السنني .

أما بحث هذا الموضوع من الجانب السنني فيكون في مطابقة الصورة الذهنية للوجود الخارجي ، أي مطابقة الفهم للخلق بأن نفهم سنة الخلق . وهذا الموضوع بحثته في كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) وهو أن الله يخلق السنة والنتيجة ، وقد أقدرنا الله على استخدام السنن التي على أساسها يحدث لنا التسخير ، فإذا تصرفنا في الأسباب التي خلقها الله ، حصلت لنا النتائج . فدور الإنسان هو فهم السنن (الأسباب) ، والتصرف فيها هو التسخير .

وعندما يطابق الفهم للخلق (أي للسنة) تأتي النتائج كاملة ؛ أي يحصل التسخير ، وبمقدار ما يكون فهم الأسباب ناقصاً يكون العلم ناقصاً ، ويكون التسخير ناقصاً ، لأن دليل صحة الفهم هو تمام التسخير . وحين لا تأتي النتائج تامة فإننا – للأسف – لا نعترف بالخطأ أو بالنقص في فهمنا . بل نتذرع بأن النتيجة لم تأت وذلك لحكمة أرادها الله ... وكثيراً ما تغدو هذه الحالة ستراً لعجزنا وتهرباً من مسؤولية البحث والتنقيب عن أسباب قصورنا .

ولهذا يأمرنا الله تعالى بالنظر إلى العواقب ، لأنها تدل على صدق فهم السنن . فالعواقب والتسخير كلمتان قرآنيتان ،وهما الدليلان على صدق فهم الإنسان للموضوع ، ويمكن فهم هذا بشيء من السهولة \في موضوع آيات الآفاق ولاسيما في هذا العصر لأن التقدم العلمي في التسخير يتم على قدر ما يكتشف الإنسان من السنن . وينبغي أن يتم نقل هذا القانون إلى مستوى المجتمع ، وهذا ما فعله القرآن حين أمر بالنظر إلى عاقبة الذين خلوا من قبل ، وبالنظر إلى عاقبة الأمور . من ذلك قوله تعالى :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (سورة آل عمران : الآية 137) .. « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » (سورة يوسف : الآية 109) .

هذه هي القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي لينجح في مسعاه وفي صنعه للامة المسلمة .

وأمام العالم الإسلامي عقبات في إدراك هذا الموضوع ، وهذا ما يجعل سعيه عقيماً ، وهذا ما جعلني أحدد بأن هذا الجانب هو الذي ينقص العالم الإسلامي ليمشي سوياً بدل أن يظل مكبّاً على وجهه معرضاً عن أمر الله بالنظر في (كيف بدأ الخلق) (سورة العنكبوت : الاية20) . ومازال أكثر المسلمين يظن أن هذا الأمر شيء غير الكتاب والسنة ، ولسنا بحاجة إليه لأننا لسنا

---

[1] للاستزادة يرجى مراجعة المجلد 16 من الفتاوى لابن تيمية ص 2520 حتى 280 .

بحاجة إلى ما سوى الكتاب والسنة . إنهم لا يدركون مقدار ما يلح القرآن على النظر إلى سنن الذين خلوا من قبل . وهنا أريد أن أقول : إن فهمنا للكتاب والسنة متقيّد . وأعني بمتقيد : لو أن إنساناً خالي الذهن لا علم له بالمناخ الذي يحيط بالقرآن ، عرضنا عليه القرآن وقلنا له : انظر لنا الأمور التي يهتم بها هذا الكتاب . إن هذا الإنسان يرى بسهولة أن اهتمام القرآن يتوجه لفهم سنن الذين خلوا من قبل ، وللنظر إلى السنة والقوانين التي تتحكم في سِيَر البشر . إن هذا القارئ ينظر إلى القرآن الكريم من غير أن يتأثر بالمناخ الثقافي المحيط بالقرآن الذي صنعه المسلمون خلال القرون ؛ وهو مناخ يقيد المسلم بفهم خاص يبعده عن إدراك هذه الأمور القرآنية ، ويجعله لا يرى لها أهمية وفائدة ...

إن هذا المناخ هو الذي يسبب ما سمته الآية الكريمة (الإعراض) في قوله تعالى :

« وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (سورة يوسف : الآية 105) .

إذن فعدم قدرة المسلمين في فهم أهمية هذه الأوامر ليست راجعة إلى الكتاب والسنة ، ولكن إلى المسلم الذي صارت عليه الآصار والأغلال من صنع القرون الماضية ، ومن إهمال العصور السابقة لهذه الأوامر .

إن فقدان المسلم لفكرة التسخير ، وفكرة المراجعة وكشف الخطأ في النظر ، وإعادة البحث في الأسباب ... كل هذا قد جعله عاجزاً عن أن ينظر إلى الكتاب والسنة نظراً سليماً . لقد ضيعنا قاعدة التصحيح للخطأ ، فلهذا لا قدرة لنا على الخروج من الخطأ ، لأننا فقدنا قانون تصحيح الفهم ليتطابق مع سنن الوقائع في الكون والأحداث في التاريخ مردّدين : علينا أن نسعى ، وليس علينا إدراك النجاح ، وبهذه السهولة نمتنع عن مراجعة الموضوع لتلافي النقص في فهم السنن .. هذه عقبة كؤود تثقل كواهل المسلمين . وحين يقول الباحثون في التاريخ :

« إن العوامل التي تعيق النمو هي مواريث خاطئة تحول بين المسلمين وبين رؤية الصواب » ، فإنهم يرون أن العلاج يكون بالتخفيف من أثقال المواريث أكثر من أن يكون بإضافة أشياء جديدة .

ويبدو هذا واضحاً في المثل الذي قدمناه سابقاً وهو أن الإنسان خالي الذهن أقدر على فهم القرآن من الإنسان الذي حمل مواريث خاطئة تمنعه من الفهم الصحيح .

وقد يرد معترض قائلاً : ما بال الأولين لم يروا هذا الذي تراه الآن ؟

وقد يكون هذا الاعتراض صحيحاً ، إلا أن الظروف التي عاش فيها الأولون ل تكن مواتية لفهم هذه الأمور كالظروف التي نعيش فيها الآن مع تقدم العلم واتساع كشوفه في مجال الآفاق والأنفس .

إلا أن الآصار والأغلال المتمثلة في المواريث الثقافية تمنع عنا الرؤية الصحيحة لأنوار الله تعالى ، وهذا ما يجب أن نسعى للتخلص منه ، وتلك مهمة رسول الله ρ حين وصفه الله بقوله :

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (سورة الأعراف : الآية 157) .

وهنا يجدر بنا أن نبحث فكرة مهمة وهي :

ملكة لتحصيل القدرات :

إن الثقافة التي تثقف بها والدراسات التي نعيش نعها ، لا تبث فيا اكتساب ملة البحث والدرس وكشف السنن والقوانين . ولا يشعرنا الكاتب الذي نقرأ له أن بحثه ليس كافياً ، وأن على الباحثين بعده أن يوضحوا الموضوع أكثر منه ، كما لا يوحي إلينا أن العلم قابل للزيادة ؛ فلا يحثنا على طلب المزيد منه ، ولا ينذر عن ضآلة ما يقدمه ، ليس بالكلمات وإنما بالأسلوب نفسه الذي يستطيع به أن يدل على بث روح الدأب لكشف السنن وتوضيح القوانين . وثقافتنا توحي بأن العالم خلق كاملاً ، فلا يمكن

المزيد عليه ، وكأن البحوث انتهت مع الأولين الذين ل يتركوا شاردة ولا واردة إلا بحثوها وفهموها وحصّلوا الذروة والنهاية ، وليس عليه هو إلا أن يتملّق بحوثهم[1] .

فعلى الأجيال اللاحقة أن تكشف هذه الأمراض . وأن تبرز كيف يوحي كتّاب جيلنا والذين سبقوهم لقرائهم بالخمول والكسل ويقتلون فيهم المواهب ويأسرون العقول .

والمسلم حين يسمع مثل هذا الكلام قد يفهم هذا بالنسبة لأشخاص معينين ، وبالنسبة لأجيال معينة ، ولكن لا يريد أن يعمم هذه القاعدة على جميع الأشخاص والأجيال ، وبهذا الاستثناء يهدم القاعدة ويعطل الفائدة فلا يصل إلى الحق ، وإنما ينتقل من تقليد إلى تقليد ، ه لا يشعر أنه قد اغتال القاعدة الأصلية القائلة :

(لا تعرف الحق بالرجال ،ولكن أعرف الحق تعرف أهله) .

وإن القفل الذي يسدّ به باب ملكة تحصيل القدرات ، هو أن يصير الآباء مكان الحقيقة مهما كان هؤلاء الآباء .. وهذه إشارات صغيرة لوباء قتّال يشل العالم الإسلامي ، ويصرفه عن القدرات الفهمية ، وكيف يتم تحصيلها ... وهذا الكتاب بحث لإبراز أهمية القدرات الفهمية (العلم) لمعرفة حل المشكلات وتسخيرها .. أين أنت يامن سينسف هذه الحواجز التي لا نقدر على مسّها ؟ أين أنت يا من ستقلِّم شجرة المسلمين من الأغصان اليابسة التي منعت من أن تعطي الثمار ؟ هل أنت لاتزال في عالم الأصلاب ؟

انظر كيف نبذل جهوداً شاقة مضنية للتغلب على الأوهام ، ولتكن لك هذه الجهود سابقة ، تساعدك على تحصيل القدرات الفهمية للإشراف على بستان المسلمين ، ولتتناوله من ايدي الذين يحرصون على الأغصان اليابسة التي علقت بها ، ولتخلّص هذا البستان من الذين يريدون أن يستأصلوا شجرة الإسلام .

أنت يا من يكون لك شرف تحصيل القدرات الفهمية للإشراف على هذه الجنة التي أصابها الإهمال من أصحابها ، والإفساد من آخرين مختلطين .

3- الإرادة كانت قدرة :

تتولد الإرادة في صورة قدرة لاختيار الهدف الأفضل ، وتتولد القدرة في صورة قدرة لكشف الوسائل لتحقيق الهدف ، فكما أن الله خلقنا من زوجين ، كذلك خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ... كذلك القدرة والإرادة زوجا خُلقا من نفس واحدة ، ثم خلق منها زوجها وبث منهما أعمالاً كثيرة ناجحة وصالحة ...

خلق الله آدم ، ثم خلق منه زوجه ثم كان رجال ونساء .. وخلق الله القدرة ، ثم خلق منها زوجها الإرادة ثم كانت أعمال كثيرة ..

فالأصل القدرة ، ثم الإرادة التي تتفاعل معها ، فالقدرة على الإرادة ، مثل القدرة على الشم فمنها تنشأ إرادة الشم .. والأصل أن يفهم الإنسان ثم يريد ، هذا هو الأصل ، وإن كان في الإمكان حصول العكس أحياناً ، كما أن أصل اللاشعور شعور سابق ، كذلك أصل الإرادة قدرة سابقة .

---

[1] كذلك العلاقة بين التلميذ والمعلم ، حيث يوحي المعلم بأنه يعلم كل شيء . وأخذ الأطفال الصغار هذا إلى أن يكتشفوا جهل المعلم في بعض الأمور . إلا أن هذا الكشف لا يأتي بشكل إيجابي لا من المعلم ولا من التلميذ ، وإنما بشكل سلبي من كليهما . فالمعلم لا يقابل ما يجهل بسوية بل كثيراً ما يكون بمواربة وخداع ... والتلميذ المسكين يتقمص هذا الموقف الذي ينتج سوء العلاقة المشبعة بالاحتقار .

والقدرة – بمعنى إمكان فهم الأفضل مما هو متاح للإنسان – هي التي تُحدث الإرادة عند الإنسان ، وعلى هذا يمكن أن نقول : القدرة تلد الإرادة وتعود الإرادة فتدفع إلى طلب الصواب والزيادة منه ، وازدياد الصواب يساهم في بلورة الإرادة فتقوى ، وهي بدورها تدفع إلى تحصيل القدرات ، وهكذا يسير الأمر بعد ذلك ، وهكذا نكن قد فهمنا البدء ، وفهمنا التقدّم . وبعد البدء والتقدّم إما التوقف والتقهقر أو الاستمرار والتقدم .

فهمنا كيف يتم البدء والتقدم ، ولكن كيف يحدث الانتكاس :

« ومن نعمره ننكسه في الخلق » (سورة يس : الآية 65) .

إن الإشارة في الآية إلى الحياة العضوية الفردية , وأما في الحياة العضوية الاجتماعية ، فإن الانتكاس يتم بأن ينشأ قوم لا يكون واضحاً لديهم أمر العلاقة « التسخيرية » – بلغة القرآن ، أو « السببية أو الجدلية » بلغة أخرى – بين القدرة والإرادة . فيزهدون في العلم أو يقتصرون على جانب منه ، فتبقى الإرادة عزلى عن قدرتها وتبدأ في الضمور ، وهكذا يقلّ العلم ، فتقل الإرادة كما قال رسول الله ρ :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[1] .

ويمكن ملاحظة ذلك الآن حيث نجد الذين يملكون إيرادات صحيحة ، ويتحسّرون على انحسار مبادئ الإسلام من النفوس ، ويتألمون بصدق ،ولكنهم لا يعلمون كيف يحققون ما يريدون . فمع تألمنا يحدث ما لا نريد وذلك راجع إلى ذهاب العلم أي ذهاب الصواب وذهاب القدرات .

وهناك من يقول : « إن انهيار الأمم يصاحب توسعاً في العلم » . إن هذا التوسع ظاهري ، لأن علماً أساسياً قد فُقد فسبب فقده الانهيار . ومثال ذلك واضح في أي جهاز يبدأ بفقد القدرة على أداء وظيفته إذ لابد أن يكون قد اعتراه خلل معين ، وينبغي ألا نخطئ هنا فنظن أن هذا الخلل قد نشأ من علم لاعن جهل .. وعدم تعميم مثل هذه البدهية على الحياة الاجتماعية هو الذي يُسقط الأمم ، وينبغي إدانة العلم نفسه بسبب ادعاءاتهم ، بل علينا أن نكشف الجهل الذي تسبب في الخطأ . وإلا فأي خطأ أكبر من أن نقول : إن الخطأ نشأ من العلم ، فلهذا تناقض صريح . ولكن إن أقررنا الذين يفرجون بما عندهم من شواطئ العلم نكون في ذلك الوقت في الصحارى وليس في لجج العلم وبحره ، وتقوى بذلك شوكة الجهل البسيط بجهلنا المركب . إن العلم لا يكون سبباً للضلال ، وإنما نقص العلم سبب الضلال . ويجب أن نكشف ما حسبه الناس علماً على حقيقته ، فنبيّن أنه لا يزيد عن كونه ظناً أو علماً ناقصاً غير كامل . ولذلك نسوق ما جاء في مجلة اليونسكو (ديوجين – مصباح الفكر – العدد 1972/19 في مقال لمحمد أركون) : « ... وفيما يتعلق بالغرب نراهم يبذلون الآن جهوداً دائبة لتحرير العلم من منهج ديكارت ، ثم إن تقدم العلوم اللغوية وعلم النفس والتاريخ والأنثروبولوجيا – البشريات – وبخاصة علم الأحياء من شأنه أن يجعل المذهب الماركسي أكثر مرونة ، وتجري بحوث جادة للقضاء على الآلهة الزائفة التي عبدها العقل بإخلاص ، ولا يزال يقدسها .. وبدلاً من تقسيم العلم إلى : أ– نظرية تقوم على الفروض الميتافيزيقية . ب– تطبيق يترك أمره للمهندس والعامل . يسود الاتجاه الآن نحو ما يسمى بالعلم العملي أي : الجمع بين النظرية والتطبيق ، وهذا الموقف الجديد الذي يقفه العقل أمام نفسه يفرض عليه أن يعيد النظر في تاريخه كله ، لا ليرفض هذا التاريخ بغطرسة وكبرياء ، بل ليفهم عمليات هذا التاريخ على نحو أفضل ، فيستطيع – على سبيل المثال – أن يفسر لنا كيف ربط مصير النفس الإنسانية بهيمنة الفكر الذي يزعم انه يستطيع تعليل كافة الحقائق بمقتضى بعض القوانين المنطقية المتناسقة . على أن هذه الجهود تستهدف – تقويض الصرح القائم – والتي يجب أن تسبق كل عمل على

---

[1] رواه البخاري في كتاب العلم .

أساس أنه لا يمكن أن تبدأ إلا في الغرب نفسه ، ذلك أن جميع الباحثين في الغرب ، لم يتحولوا عن موقفهم ، ولم يغيروا من أنفسهم ، وكل ما تم إحرازه من تقدم في هذه السبل لم يمس جوهر الثقافة العلمية التي لا تزال تتسم في كثير من النواحي بخصائص فلسفة التنوير . ولم يقم الغرب بأي عمل حاسم حتى الآن إزاء الحضارات الأجنبية . وفيما يتعلق بالإسلام نلاحظ في فرنسا مثلاً قلة اهتمام بالدراسات العربية ... » .

إن ما ظنه هذا الكتاب محاولة للتحرر من منهج ديكارت ، ليس في حقيقته إلا تعميماً لهذا المنهج ، وذلك بالانتقال من عالم الآفاق إلى عالم الأنفس ، والتأكيد على أن :

برهان العلم في نتائجه التي سمّاها القرآن الكريم (العاقبة) : « والعاقبة للتقوى » (سورة طه : الآية 132) .

وهذا ما يظهره عسى عليه السلام حين سئل : كيف نعرف الأنبياء الصادقين من المتنبئين ؟ قال : « من ثمارهم تعرفونهم »[1] . وليس هذا ذرائعية العاجلة ، بل ذرائعية العاجلة :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (سورة الأعلى : الآيتان 16،174) .

فما هو خير وأبقى هو البرهان الصحيح ، فمن شاء أن يسميه ذرائعية فليسمه ، من أراد أن يسميه براغماتية فليسمه ؛ ونحن نسميه بما سماه الله تعالى : « خير وأبقى » أي أن الحق هو خير وأبقى ، وما هو خير وأبقى هو الحق .

لقد أخذ العلم يتوسع ويكشف البراهين في الآفاق والأنفس كما وعد الله تعالى :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (سورة فصلت : الآية 53) .

فالإيمان بالله واليوم الآخر علم وأي علم ، بل هو رأس العلم ببرهان أن من يؤمن بالله واليوم الآخر هو الذي يعطي في الدنيا – أيضاً – الخير والأبقى ؛ وهذا البرهان لا يمكن أن يرده أحد إذا قام البرهان عليه أنه خير وأبقى . إن آيات الآفاق والأنفس تدل على انه خير وأبقى ، وبقي علينا نحن أن نتمكن من إشهاد آيات الآفاق والأنفس على ذلك ، بالكدح والسعي المستتر والنظر الدائب والتفكر في خلق السموات والأرض .

والقرآن لا يوجهنا إلى غير تأمل ما يقع تحت أسماعنا وأبصارنا من الشواهد على الإيمان بالله واليوم الآخر .

صحيح أن الإسلام فيه غيب ، ولكن برهانه من عالم الشهادة ولهذا ينبغي أن نفصل بين معنى هذا الغيب ومعنى الميتافيزيقية التي هي في نظر الغرب أمر لا برهان عليه ولا يخضع لقانون . ونحن المسلمين مكلفون بألا نؤمن بما لا برهان عليه ، ولا بشيء ليس على قانون ثابت . وفي هذا يقول ابن تيمية : « وقد بيّن سبحانه وتعالى أن السنة لا تتبدل ولا تتحول ... والسنة : هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثانية مثلما فعل بنظيره الأول »[1] .

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » (سورة الأحزاب : الآية 62) .

وقد بدأ كثير من كتّاب العربية يستخدمون لفظة « الغيبية » بالمعنى الغربي أي اللاسننية واللاعلمية ، كما استخدموا مصطلح « العلم » بالمعنى الغربي ، فوقعوا في ضلال وفهم قاصر حين قالوا تبعاً لذلك : إن العلم محايد أخلاقياً . وأي قيمة للعلم إن لم ينتج ما هو « خير وأبقى » ، وإن لم يرفع إنسانية الإنسان ويحقق كرامته[2] ؟!

وإذا ذهبت القدرات تبدأ الارادات في الذهاب أيضاً ، كما نجد صور ذلك في المجتمع حيث توجهت إرادة البعض إلى إيرادات أخرى .. هكذا البدء ، وهكذا الإعادة :

---

[1] إنجيل متى – إصحاح 7 – فقرة 20 .

[1] ابن تيمية ، الفتاوى ، المجلد 13 ، ص 20 .

[2] إن هذا التعقيب بمثابة إشارات صغيرة على ما يسميه محمد أرون « تفويض الصرح القائم » .

« وإن عدتم عدنا » (سورة الإسراء : الآية 8) ، « سنة الله في الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسن الله تبديلا » (سورة الأحزاب : الآية 62) .

وحينما يستجيب البشر لسنة الله ، تسير الأمور إلى الرشاد :

« ما يفعل الله بعذابكن إن شكرتم وآمنتم » (سورة النساء : الآية 147) .

ولكن هل يمكن إعطاء الإرادة قبل القدرة ؟

إن القدرة على الإرادة غير القدرة على وسائل تحقيق الإرادة ، وإن كانت كلتاهما قدرة . وإن عند الإنسان قدرة على تحصيل الإرادة قبل أن تكون لديه قدرة على فهم صوابها وسبل تحقيقها . ومن هذا الجانب يمكن أن نرى البشرية أُعطيت القدرة على إرادة المثل الأعلى قبل أن يتيسّر لها معرفة صوابه وإمكان تحقيقه .. ويؤيد هذا قوله تعالى :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (سورة فصلت : الآية 53) .

والمقصود بالحق في هذه الآية هو مجمل ما في الدين من مثل عليا كالإيمان بالله واليوم الآخر والدعوة إلى مساواة الناس ، وإلى فكرة العالمية وإلى سوى ذلك مما نادى به الدين وتقبّله الناس قبل أن تكون لديهم القدرة على إدراك صوابه بأدلة العلم التي سماها القرآن : آيات الآفاق والأنفس . فالناس قد أعطوا هذه الأفكار قبل أن تتيسر لهم وسائل تحقيقها ، لأن القدرات تتكون شيئاً فشيئاً على مرّ الزمان .

وكذلك الطفل يتلقى المثل العليا وقيم الأخلاق بما لديه من قدرة على تلقيها قبل أن يتمكن من فهم صوابها وصحتها وأخذ الأدلة على ذلك .

كذلك الأمر مع البشرية ، فقد أنزل الله على الناس الهدى الذي يمكن أن يتبنوه وتظهر أدلته في كل جيل بما يناسبه من مستويات العلم .

وحين علّق الله أدلة الدِّين بآيات الآفاق والأنفس ، فإن ذلك يدل على بلوغ البشرية درجة النضج في تلك المرحلة ، لأن أدلة الدين لم تعد غيباً ؛ وإن كان في الدين غيب إلا أن أدلته من عالم الشهادة في الآفاق والأنفس ، وهذا ما جعل الدين صالحاً لكل زمان ومكان لأنه وجه إلى آيات الآفاق والأنفس ...

ويمكن أن نضيف إلى هذا كيف أن معنى العلم زاد وضوحاً وسعة ، وبسط آفاقه على مجالات أكثر ...

إن دليل العلم عند الناس فيما مضى لم يكن مرتبطاً بالعاقبة –كما هو في القرآن – وإنما كان مرتبطاً بالاستنتاج العقلي ، بينما أصبح الآن مرتبطاً بالعاقبة ، أي بنتائجه ، وبهذا تغير أو تحدد اتجاهه . وكثيراً ما يخفى هذا التطور الذي حدث للعلم ، فيظن الناس أن العلم مازال مرتبطاً بالمنطق الارسطي الاستنتاجي ...

بينما غدا دليل العلم عاقبة الأحداث . فما هو خير وأبقى من العواقب هو برهان العلم ...

حتى إن موضوع الإيمان باليوم الآخر يعرضه القرآن على أساس العواقب ، فأي إيمان أعطى عواقب خراً وأبقى فهو أحق ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ؛ وترجون من الله ما لا يرجون » (سورة النساء : الآية 104) . إن الألم عند المؤمن والكافر واحد ، ولكن المؤمن يزيد بأنه يرجو من الله مالا يرجوه الكافر ، ومادام الإيمان يعطي نتائج طيبة تمر آثارها في الحياة واضحة ، فإن الإيمان هو عين العلم . وكذلك قوله تعالى :

« فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (سورة الذاريات : الآية 18) ؛ « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » (سورة العنكبوت : الآية 43) .

وبربط الحكم على الحدث بالعاقبة صار الإيمان باليوم الآخر من العلم الذي يُرى أثره في الحياة العملية اليومية ، وهذا هو العلم التجريبي الذي يمكن إثباته في مجالات مختلفة ، وإما يحتاج إلى تأمل . فقوله تعالى :

« بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد » (سبأ : الآية 8)

نجد أدلة صدقه لا في عالم الغيب وإنما في عالم الشهادة بين جوانح الناس الذين يعيشون على هذه الأرض ، بإظهار ما يعطيه الإيمان للناس من الطمأنينة والتخفيف من الشقاء والعذاب النفسي والضلال الذي يعاني منها من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .د

وبربط الحكم على الحدث بالعاقبة ، صار العلم بالآخرة في قوة العلم التجريبي ، وصار مجاله أوسع ؛ فبدل أن يكون مجال العلم التجريبي المخبر الذي تستخدم فيه الأنابيب ، تحوَّل إلى مجال الكون الفسيح وأحداثه التاريخية التي سجلت عواقب الأمور .

وبربط برهان العلم بعاقبة الأمور ، صار من الضروري أم يكون المجتمع الإنساني مستحضراً كل أحداث التاريخ ليستفيد من عواقبها ، ويتأمل كيفية حدوثها ، أي كيفية بدء خلقها :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟ » (سورة العنكبوت : الآية 20) .

ومن لم يفعل فسيضطر أن يدفع ثمن جهله .

ولكن ما جدوى هذا البحث ؟

إن جدواه أن الإيمان سيقدم إلى الناس بالصورة نفسها التي يقدم بها علم الجغرافيا أو الفلك أو الكيمياء أو الفيزياء .. وبذلك يصير الإيمان علماً . وهنا نعلم أنه لا إله إلا الله :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله » (سورة محمد : الآية 19) ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (سورة آل عمران : الآية 18) .

وما دام الموضوع يُبحث على أساس العواقب ، فإن قبول الدين يرجع إلى النظر في عواقبه ، فيقبله الناس كما قبلوا عواقب البحوث العلمية في شتى المجالات بدون أية عقدة عن شخص وزمان ومكان كشفها . هذه القدرات الفهمية ينبغي أن يحصلها العالم الإسلامي ليدخل إلى العالم من جديد وبيده الهدى الذي يخضع للبرهان . وكما أصبحت الكيمياء من أدق العلوم بعد أن كانت نوعاً من السحر ...

كذلك يجب أن يصبح الإيمان ضرورة علمية لا غنى عنها للإنسان ، وذلك حين يظهر الإيمان ومعه البرهان من أحداث التاريخ وعواقب الأمور الماضية والحاضرة ، والتطلع إلى المستقبل :

« ولتعلمن نبأه بعد حين » (سورة ص : الآية 88) .

وهذا الموضوع يحتاج إلى نظر عميق ودراسات مجهدة واسعة يقصِّر المسلم عن أداء دوره فيها ، مع أن هذه الدراسات ونتائجها هي ما تنتظره التكنولوجيا الحديثة لكي تتسخر لخدمة المثل الأعلى الذي تبرهن تلك الدراسات على صحته وتخرجه إلى حيّز العلم .

إن الحضارة مقدِّمة ممهدة لمجيء المثل إلا على – المبدأ الديني – وذلك ما يراه توينبي حين اعتبر أن الحضارة الرومانية بسلامتها وطرق مواصلاتها ورقي مؤسساتها كانت مقدمة سارت عليها الفكرة المسيحية التي حملها المبشرون على الطرق الرومانية الآمنة ؛ حتى جعلوا روما نفسها مركز الكنيسة .

4- القدرة الأخلاقية الكامنة :

كما أن هناك طاقة مادية تنشأ من احتراق الخشب والنفط وانشطار نواة الذرة ، كذلك هناك مجال آخر في الخلق الآخر[1] الذي هو الإنسان ، وفيه طاقات أخلاقية .

---

[1] إشارة إلى قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » سورة المؤمنون : الآية 14 .

إن (انيشتاين) أضاف البعد الرابع وهو الزمان إلى أبعاد المكان الثلاثة ، ولكن الباحث في التاريخ مثل (توينبي) أضاف بعدين جديدين للوجود – في آخر دراسته للتاريخ – وهما : بعد الحياة وبعد الأخلاق .

يقول توينبي : « كيف قدِّر لهذا الكتاب أن يكتب ؟ لمَ يدرس الناس التاريخ ؟ يجيب كاتب هذه الدراسة شخصياً بأن المؤرخ يستجيب – في دراسة التاريخ – إلى نداء الله له بتتبع خلقه بالسعي لمعرفته تعالى[1] ، والمؤرخ هنا – شأنه شأن كل امرئ – سعيد بأن يكون له في الحياة غاية يسعى إليها .

وللمؤرخ زاوية رؤيا واحدة من بين زوايا الرؤيا التي لا تعد ولا تحصى ، وإن أخصَّ ما تتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني هو أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة داخل إطار هو – وفقاً لتجربتنا البشرية عنه – ذو ستة أبعاد ..

فإن زاوية الرؤيا للمؤرخ ، ترينا الكون المادي يتحرك منحرفاً عن المركز في إطار ذي أربعة أبعاد من المكان / الزمان . كما ترينا الحياة على كوكبنا تتحرك حركة دائرية في إطار ذي خمسة أبعاد من الحياة / الزمان / المكان .. وترينا نفوس البشر وقد ارتفعت إلى البعد السادس بنفحة من الروح القدس وإنها لتتحرك – وهي تمارس ما قدِّر لها من التحرر الروحي[1] – إما صوب خالقها أو بمنأى عنه . فإن كنا على حق إذ نرى في التاريخ صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ، فإنا لن نعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ في العقول البشرية التي تتماثل فرضاً درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ وفقاً للظروف التاريخية لمن يتلقاها ، إذ لا مناص من أن تقوم نزعة حب الاستطلاع بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ ، ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغير الاجتماعي واضحة وضوحاً ساطعً قوياً ... »[2] .

يريد (توينبي) من هذا الكلام أن إرادة الناس تظل كامنة معطلة حتى يروا طريق الصواب لتحقيق هذه الإرادة ... حينئذ تنطلق الإرادة من مكنها ، ويتحرك جهاز الكون بتحرك البعد السادس الذي يسميه القرآن (الخلق الآخر) :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ؛ ثم أنشأناه خلقاً آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين » (سورة المؤمنون : الآيات 12،13،14) .

وكما نستخدم القدرة الفهمية في تسخير الجانب المادي ، ينبغي أن نستخدمها أيضاً لإقامة الحياة الأخلاقية . وطريق إقامة هذه الحياة هي التي ينبغي أن تصل إلى درجة الوضوح الساطع .

هذا ما يراه المؤرخ في تتبعه لحركة عالم الأنفس ، وهذا ما يأمرنا الله أن نصل إليه بالنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل .

والآن هل يمكنك أن تتصور نشوء قدرة جديدة من مستوى قدرة القراءة والكتابة يمكن أن تضاف إلى الإنسانية في جانب من الجوانب لترفع من قدرات الإنسان ؟ .. يمكنك هذا إذا تصورت البشرية وليس فيهم أحد يقرأ ويكتب مع كون هذه القدرة كامنة في وجودهم ، وكيف كان يمكن لإنسان في ذلك الوقت أن يتصور الحالة التي يصل إليها الإنسان حين تضاف إليه هذه القدرة . وبإضافة قدرة الكتابة للإنسان أضيفت إليه ذاكرة جديدة ، لم يكن للإنسانية أن تتقدم بدونها ، لأن خبراته كانت تموت معه ، فاكتسبت الأفكار والخبرات والتجارب الخلود في الدنيا بوساطة القراءة والكتابة ، ولا يمكن للإنسان أن يتقدم إلا بوساطة الخبرات والتجارب .

---

[1] بل يعتبر هذا القول استجابة لقوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟ » سورة العنكبوت : الآية 20 .

[1] من تتبعنا لما يقصده توينبي من هذه العبارة يبدو لنا أنه يقصد تحرر الإنسان من انفعالاته ، وسيطرته على دوافع الغي والقسوة والعداوة ووصوله إلى العفو والإيثار والحب ... أي الخروج من الحيوانية إلى الإنسانية .

[2] آرنولد توينبي – موجز دراسة التاريخ – ج4 – الفصل 44 – ص 233 – الطبعة الثانية – القاهرة 1965 .

علمنا أن الإنسان لا ينتمي في قدراته إلى جيله ، بل يقعد فوق الأجيال السابقة كلها ، والذي جعل هذا ممكناً هو كشف قدرة القراءة . هذه القدرات الكامنة التي أشار إليها محمد إقبال في الحوار الذي تخله بين الله والإنسان حين قال الله تعالى للإنسان « أثبت قدرة الله فيك »[1] . وهنا نشير إلى القدرة التي يظنها الناس مستحيلة الحدوث ، وهي خروج الإنسان باستخدام القدرات الكامنة فيه من توقعات الملائكة فيه إلى ما علمه الله فيه من قدرات كامنة حين قال تعالى رداً على الملائكة :

« إني أعلم مالا تعلمون » (سورة البقرة : الآية 30) .

وكما تنمو القدرات لاستخدام الطاقة المادية ، ينبغي أن تنمو القدرات لاستخدام القدرة النفسية ، ولن تصبح القدرات المادية نعمة للإنسان إلا إذا تقدم في القدرات النفسية ، لهذا يقول الله تعالى :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً » (سورة سبأ : الآية 37) .

فالعالم اليوم لا يعرف كيف يستخدم الأرقام إلا في حساب الطاقة والدخل . ولما يكمل بعد معرفته لقياس التقدم النفسي . إن موازين التقدم ينبغي ألا تبقى متعلقة بالدخل المادي ، وإذا لم يكشف الإنسان مقاييس لفهم التقدم النفسي يظل عاجزاً عن تسخير هذا الجانب المهم من الكيان الإنساني – وهو لم يكتسب بعد دقة جانب الآفاق – وكل ما يطرأ على الإنسان من تقدم إنما ينطلق من تغيير ما بالنفس . وكلما تقدم فهم الإنسان في هذا الجانب برزت أهمية الطفولة وما يملك من استعدادات هائلة إذا توفرت له الأجواء المناسبة .

ولابد من التمييز بين ما يرجع إلى القدرة وما يرجع إلى الإرادة ، وبيان سبب الاشتباه بينهما لأن كلاً منهما يستدعي وجود الآخر . فالقدرات هي التي تكشف أهمية الارادات ، والإيرادات هي التي تبعث على طلب القدرات . فقدرتك على التمييز بين الخطأ والصواب تجعلك تريد الصواب .. وإرادتك الصواب تحملك على السعي لاكتساب قدرات من أجل تحقيقه . وبتعبير آخر : إن قدرتك على التمييز بين الظلم والعدل تجعلك تريد العدل ، وإن إرادتك للعدل تحملك على السعي لاكتساب القدرات التي تحقق العدل وتحميه .

هذا أمر هام لأنه كلما تقدمت القدرات ولاسيما الفهمية منها في مستوى المادة والنفس ، أمكننا أن نفهم المثل الأعلى المناسب للإنسان ؛ وبذلك تكون القدرات سبباً في التوصل إلى اختيار المثل الأعلى المناسب . وكذلك الارادات تبعث على السعي لتحصيل القدرات ، فإذا لم توجد إرادات فعلامَ يبحث الإنسان عن القدرات ؟!

لهذا نجد القرآن يتهم الارادات إذا لم يَسْعَ صاحبها لتحصيل القدرات المتاحة ، وكذلك يتهم القدرات حين لا تدرك ولا تميز المثل العليا الصحيحة ، فيقول في اتهام الارادات :

« لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » (سورة التوبة : الآية 46) .

أي لو وجُدت الارادات لوجدت القدرات ؛ ومنه المثل العربي القديم : « لو صحَّ منك الهوى أرشدت للحيل » . أي لو صحَّ العزم لهديت إلى الوسائل المحققة لذلك . وقد جرت عادة الناس حين تفتقد القدرات لديهم أن يتهموا الإيمان بالنقص ، وهذا الاتهام لا يخلو من صواب لأن من شأن الإرادة ا\ن تحمل الإنسان على طلب القدرات إذا توفرت الشروط وانتفت الموانع . والانتباه لهذا ضروري لأن هناك صوراً خادعة ... ولأن شأن القدرات أن تكتشف الحق والصواب والمثل الأعلى الصحيح الذي يولد الارادات .

فالقدرات تكشف الارادات الصالحة ، والارادات تحمل على توفير القدرات . وبعبارة أخرى : الإخلاص يدفع إلى طلب الصواب ، والصواب يولد الإخلاص وينميه . لهذا لما يعجز العالم الإسلامي اليوم عن تحصيل القدرات مع وجود الإيمان (الارادات)

---

[1] فلسفة إقبال تأليف الأعظمي ص 94 .

لديه ، يسهل على الذي يريد التهام أن يتهم العالم الإسلامي بعدم الإيمان أو عدم الإرادة[1] . وكذلك لما يعجز العالم الغربي عن تحصيل الارادات مع وجود القدرات ، يمكن أن يقال : لو كان هناك مثل أعلى صحيح أحسن مما هم عليه لاهتدوا إليه بقدراتهم الدقيقة المادية والفهمية . هذه الأمور من المتشابهات التي يخيل للناظرين من أول مرة أنها صحيحة لأنها جاءت في صور القواعد الصحيحة دون مراعاة توفير الشروط وارتفاع الموانع للقدرات والرادات ، لأنه يمكن أن تحدث موانع تحول دون رؤية القدرات أو رؤية الارادات .

يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله : (إن أوروبا التي اعتقدت أن العناية قد اختارها لتستودعها مصائر الإنسانية ، قد أخذت من عصر بوكاشيو – حين كانت حضارتها ترضع في مهدها لبان حضارة العرب – أخذت تتنكر للحضارة الإسلامية تنكراً سهلاً .. وهاك ما قاله أحد الأوروبيين في هذا الصدد وهو الدكتور غوستاف لوبون ، فإنه حن أراد أن يختم دراسته عن الحضارة العربية اختتمها بهذا التأمل الحزين :

« لعل القارئ يتساءل : لماذا ينكر العلماء في هذه الظروف تأثير العرب ؟ وقد كان أولى بهم أن يتنزهوا عن اعتبارات التفرقة الدينية ؟ .

والحق أن استقلال آرائنا وتجردها ظاهري أكثر من أن يكون واقعياً . وأننا لا نكون البتة أحراراً في تفكيرنا كما ينبغي حيال بعض الموضوعات ، فلقد تجمعت العقد الموروثة ، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله ، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي ... » .

هذا النص يوضح بصورة غير مباشرة ، ولكنها صريحة موقف الحضارة الأوروبية في وجه العالم الإسلامي منذ بداية التاريخ الاستعماري . وهو موقف يتفق وموقف هذا العالم الإسلامي من أشياء أوربا وأفكارها حين ينظر إليها باحتقار شديد مؤكداً أنه المستقر الوحيد لفضل الله ومواهبه »[1] .

هل آن لنا أن ندخل إلى المشكلة ؟ أم لا نزال ندور حول الموضوع ؟

ما المشكلة ؟ المشكلة هي العمل الإسلامي ، وكيف ينجح ؟

وما دام لابد لنجاح العمل من قدرة وإرادة ، فهل يملك العالم الإسلامي قدرة وإرادة ؟ وإذا وجدتا فهل توفرت الشروط وانتفت الموانع ؟ وما الشروط ؟ وما الموانع ؟

أقذف بوجهة نظري عن الموضوع بأسطر مع أن الكتاب كان لإثبات هذه الفكرة : إن العالم الإسلامي عنده من الرادة متا يكفي على الأقل للإقلا ع ، هذا من جانب الإرادة . أما من جانب القدرة : فعنده من القدرات والإمكانات (المادية) القدر الهائل غير أن عنده إعوازاً حقيقياً في القدرات (الفهمية) . فإذا استطعت أن أفهمه هذه الفكرة فقط ، فهذا هو كل ما أريد من هذا الكتاب . وإذا فهم الشباب الحائر اليائس هذا فسيتوجه بكل جد لتحيل القدرات الفهمية التي تنقصه ، وهذا ما سيضعه على الطريق ليخرج من حيرته وقلقه . هذه هي المشكلة في إيجازها ووضوحها . كيف نعالجها ؟ بل كيف نكشف أن هذه الفكرة مفهومة أم لا ؟ أو أنها معطلة بعوامل أخرى ؟ وها ما أردنا بحثه .

5- أسلوب آخر لتعريف الصواب (القدرات) :

الصواب هو كشف العلاقة السليمة ، سواء كانت هذه العلاقة بين الخالق والإنسان ، أو بين بني آدم بعضهم مع بعض ، أو بين بني آدم والآفاق (الكون بما فيه من مادة ونبات وحياة) ، وهذه العلاقات الثلاث هي :

---

[1] ويظهر هذا الاتهام في صورة اعتبار هذه المجتمعات مجتمعات جاهلية .

[1] مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص 43 ، الطبعة الأولى ، 1959م .

1- علاقة الإنسان مع الخالق (العبودية) :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني » (سورة الذاريات : الآية 56) . « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص » (سورة الزمر : الآيتان 3،2) .

2- العلاقة بين بني آدم فينا بينهم (العدل والإحسان) :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (سورة النحل : الآية 90) . « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » (سورة المائدة : الآية 8) .

3- علاقة الإنسان مع الكون (التسخير) :

« وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (سورة الجاثية : الآية 13) .

ولطريق التي توصل إلى كشف العلاقات السليمة هي العقل أي القدرة التفكيرية عند الإنسان :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » (سورة الإسراء : الآية 36) .

والمسلم العادي حسبه دليلاً على هذه العلاقات ، آيات الله التي سقتها من كتاب الله تعالى . ومن أراد دليلاً غير ذلك فعليه أن ينظر في آيات الله في الآفاق والأنفس ، ليرى مصداق ذلك ؛ لأن آيات الآفاق والأنفس تشهد لآيات الكتاب .

والمسلم مأمور بأن يرى آيات الله في الآفاق والأنفس ، وأن يسير في الأرض ليرى عواقب العلاقات السليمة أو الخاطئة ، عواقب (المصدقين) و(المكذبين) لآيات الله :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (سورة آل عمران : الآية 137) .

وإذا تطلعت نفس المسلم إلى أن يرى سلامة هذه العلاقات التي يقررها الله في كتابه ... وإذا اشتاقت نفسه إلى أن يرى مصداقها في آيات الله في الآفاق والأنفس ، فإن هذا الاشتياق هو ما أزكّيه وأدعو إليه وأكتب من أجله .. ولكن ينبغي على الشباب المسلم المشتاق الناشئ – أصحاب الأسماع والأبصار والأفئدة ، أصحاب لكفاءات السليمة – أن يجتهدوا ليجعلوا أنفسهم من الذين يُظهرون آيات الله في الآفاق والأنفس للناس . وهذا العمل هو العمل الشريف ، وعمل الربانيين وظيفة الرسل التي تركوها لنا . وينبغي أن تدرك أيها المسلم القلق على أحوال المسلمين أنه لا يجوز ترك دراسة آيات الله في الآفاق والأنفس للذين يستغلونها لعلاقاتهم الفاسدة ولمآربهم العاجلة ...

ينبغي أن يستنفر المسلم لرؤية هذه الآيات التي يعرضها الله من خلال خلقه المتتابع في هذا الكون الذي نعيش فيه . كما ينبغي أن أكون صريحاً معك .. إني لا أقدّم لك آيات الآفاق والأنفس ، وإنما أدعوك إلى دراستها وأن تستشعر مسئوليتك في تحصيلها . أدعوك إلى أن تعلم أن سنن الآفاق والأنفس تنتظر الذين يبحثون عنها ، ولا تظنن أنها استنفدت ، وأن تعلم أن عِلْم موسى وعلم الخضر – عليهما السلام – معاً ما هو إلا كنقرة عصفور في بحر : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (سورة الإسراء : الآية 85) ... وليس معنى ذلك أن الله لا يعطي « وقل رب زدني علماً » (سورة طه : الآية 114) ، وليس مثل العلم منجماً مكلما أخذ منه دل على سعته .. فالمجال أمامك واسع :

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » (سورة الكهف : الآية 1096) .

الفصل الخامس

تطبيقات

1 – هل عند العالم الإسلامي إرادة ؟

وقد أجبت عن هذا بنعم .. إنه يملك إرادة ، وعنده إيمان ، وإن إرادته أن يتحول نظام الحياة إلى نظام الإسلام ، وأن يعيش الناس وفق أوامر الله تعالى .

وكما يقولون : « حين يصبح في وسعك أن تتحدث عن مسألة ما ، فتعرضها بالمقياس ، وتعبر عنها بالأرقام ، تكون قد أصبحت على بعض العلم بهذه المسألة » . وهل أستطيع أن أتعرض لإرادة المسلمين بمقياس وأعبر عنها بالأرقام حتى نكون على بعض العلم بهذه المسألة ؟ إننا لو قمنا باستفتاء واضح بين المسلمين قائلين لهم : ماذا تختارون ؟ هل تختارون أن يطبق عليكم دستور القرآن أو دستور غيره ؟ لو عرض هذا بصراحة دون خوف أو ضغط ، فأرى الأغلبية ستختار أحكام القرآن لا أحكام غيره من الدساتير ، ويمكن أن نتأكد من هذا بأنفسنا بالقيام بهذه العملية الإحصائية في المدارس والجامعات والقرى والمعامل والمعسكرات وفي كل مكان .وقد تختلف النسب من مكان إلى آخر ، ولك الأغلبية مع أحكام القرآن .. ومع ذلك ليس هذا الوضع ثابتاً ساكناً ، بل قد يتغير لعوامل يمنك ملاحظتها . وربما قمنا بهذه العملية الإحصائية قبل خمسين سنة ، تكون النتائج غير ما هي عليه الآن ، وكذلك تتغير بعد خمسين سنة أخرى زيادة أو نقصاً . ولكن الواقع دليل على وجود الإرادة عند أكثرية الأمة . إذاً نستطيع القول : إنه يوجد من ناحية الإرادة رأسمال كاف للانطلاق به .

لسنا الآن بحاجة إلى أن نبحث من أين جاءته هذه الإرادة ، والعوامل التي تتدخل في وجودها مع أهميتها أيضاً ؟ لأنه ينبغي أن لا تتوقف الإرادة أيضاً على المصادفات وأمور خارجة عن سلطاننا ، بل ينبغي أن نفهم كيف نوجدها ، وهذا ما أشرت إليه من ناحية التبليغ ، وبأن يصل المثل الأعلى لكل واحد ، وكذلك تعرضنا لهذا في بحث الإرادة كقيمة وكصناعة .

ثم إننا نجد المسلمين عندهم استعداد أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله والإسلام ، حتى عند العوام والنساء والأطفال والعجائز . وكل من دقق في الأمور ، يجد أن الأمة فيها خير ، ويظهر منها ما لم يكن يتوقع من التضحية والبذل في المال والنفس . ومع ذلك فإن هذه النقطة قابلة لأن ينازعني فيها من يريد المنازعة ، حيث ينظر إلى الجانب الآخر وهو قلة هؤلاء الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله من مجموع الأمة ، وأنا أوافقه على قلة هؤلاء أيضاً على عمومه وأنه لو طلبنا من أكثرية الأمة أن يقدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله سوف لا تكون النتيجة مثل نتيجة الاستفتاء السابق في التصويت على أحكام القرآن . قد نجد أكثرية توافق على اختيار الإسلام ، ولكن لا نجد أكثرية تبذل الدم والنفس والمال في سبيل الله . فهل هذا راجع إلى القدرة أم إلى الإرادة ؟ هل الذي يجب أن نعطيهم إياه القدرات ؟ أم الإرادات ؟

أنا أقول : إذا كان الذين يوافقون على اختيار الإسلام مثلاً 70 % ، والذين يوافقون على بذل المال والنفس في سبيل الله أقل من 1 % من هؤلاء ، فإن 69 % أي الباقون لو رجعنا إلى فرزهم مرة أخرى سائلين : لماذا تخلفوا عن بذل المال والنفس في سبيل الله ؟ فإننا سنجد أن 60 % من هؤلاء قد تخلفوا عن البذل لأنهم لم يستطيعوا أن يروا بذل المال والنفس في سبيل الله يعطي النتيجة التي يريدونها ؛ ولم يكن السبب عدم إرادتهم الإسلام .. وبعبارة أخرى : هم لا يعرفون الطريقة التي لو بذلوا أنفسهم وأموالهم بها أعطاهم الله النتيجة التي يريدونها ...

وبحسب فهمي وإدراكي لمشكلات المسلمين أرى أن عدم بذلهم ليس راجعاً لعدم الإرادة للبذل والعطاء ، ولكنهم لا يعرفون الطريقة التي لو بذلوا عليها نفعت وأنتجت ..

هذه نقاط دقيقة ينبغي أن لا نتساهل فيها ، وينبغي أن نعرف السبب الذي من أجله يتخلف البذل ؟ هل من عدم الإرادة ؟ أم من عدم الفهم لكيفية تحصيل المراد ؟ فلو تأكد المسلم من تحصيل المراد لبذل نفسه وماله .

نريد معرفة ما يرجع إلى القدرة الفهمية ، وهو ما يتجاهله من لا يقبلون تفسيري . وأريد أن أضعه تحت المجهر لأسباب كثيرة ، لأن تجاهلنا له يؤدي إلى نتائج أخرى كبيرة في مجالات كثيرة ، نرجو أن نوفق إلى بيان بعضها على الأقل إن لم يكن كلها ...

ثم هل من سنة الله أن يطلب من أنفسنا وأموالنا في سبيله ثم لا يعطينا النصر ؟ أم أن العاقبة للمتقين ؟ « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » (سورة الروم : الآية 47) . أم إن إحدى الحُسنين تقتصر على الشهادة دون النصر ؟

ليس من طبائع الأشياء ، ولا من طبيعة الإنسان أن ينصر مبدأ لا يمكن أن ينتصر . وإذا جهل المسلم كيف يمكن أن ينتصر ، فإن إرادته لا تكفي لحصول النصر ، وإلا فما أسهل أن يريد إنسان النصر !! ولكن للنصر سنناً من خالفها لا ينتصر .. فقد حرم الله المسلمين يوم أحد النصر لمخالفتهم هذه السنة :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله » (سورة آل عمران : الآية 166) .

وإذا فهمنا هذا ينبغي أن نعلم أن النجاح ليس من الإرادة فقط ، بل من القدرة أيضاً على صنع النجاح . وإذا اشتبه عليك ما يرجع إلى القدرات ، فهو الذي أريد أن أكشفه من نفس المسلم ، كما أحب أن أذكر أن لدى المسلم الآن ميلاً عجيباً لينسب الأمر إلى الإرادات (الإيمان) ، بدل أن ينسبه إلى القدرات مع وضوح الفرق لديه بين (البكّائين) و (المتخلّفين) في غزوة تبوك . ومع وضوح أن العمل لا يمكن إتمامه بدون القدرة والإرادة معاً وأنهما زوجان لا بد منهما ، يحلو لنا أن نغمض أعيننا عن أحدهما ونستغني عنه بسهولة لنقول : إن الذي ينقصنا هو إيمان ، وهو إرادة فقط !! وليس القدرة .. والذين كتبوا عن حزيران 1967 مثلاً ، نظروا إلى جانب الإرادات وأهملوا جانب القدرات . ورأوا أن فقدان الإيمان كان سبب الهزيمة ، لأن الإيمان وحده في رأيهم هو الذي نصر الصحابة الذين لم يكونوا يميزون بين الملح والكافور .. ومثل هذا التحليل السطحي يترك في نفوس الجيل أثراً سلبياً حين يوهمهم أن النصر لا يحتاج لغير الإيمان الصادق ، ولا يحتاج لفهم دقيق يفوق فهم الخصم . وعندما نرفع عن كاهل الجيل عبء الدرس والفكر نجعله يوقن أن ما يحتاجه المسلم ليس النظر الدقيق في فهم المشكلات البشرية والأحداث التي تجري ، وإنما الامتلاء من الإيمان . والشاب المسلم يشعر أن ممتلئ إيماناً وحماساً ، وان تحصيل الإيمان المتحمس لا يحتاج للسير في الأرض ولا للنظر إلى الذين خلوا من قبل ، ولا لفهم عملية تغيير ما بالنفس ، وأن أي محاولة للتأمل في فهم مشكلات البشر على مرِّ التاريخ ، إنما هي انصراف عن الواجب الأول وتضييع للوقت فيما لا طائل تحته .

إن ما يستوحيه القارئ من تلك التعليلات ذو أثر شديد على النفس فهو يؤدي إلى تنشيط الهمم ، والقعود عن طلب المعرفة واكتساب القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي ليخرج من محنته .

وإن ما يحتاجه الشباب الإسلامي المعاصر هو أن يوضح لهم أن القعود عن تحصيل العلم والمعرفة من أكبر المعاصي الاجتماعية التي عليهم أن يجتنبوها ، كما يجب إخراجهم من حالة الركود النفسي التي لا يشعرون معها بخطيئتهم الكبرى ، وهم يتخلون عن تحصيل قواعد العلم التي توصلهم إلى سنن تسخير المجتمع .

وهناك مشكلة أخرى هي أن هؤلاء الشباب لا يعرفون ماذا يراد بالعلم الذي ينبغي أن يحصلوه ليغيروا واقع المسلمين ، ولذلك يجب أن يوضح لهم أن تغيير واقع المسلمين يحتاج قبل كل شيء إلى تغيير ما بأنفسهم ... وهذه مسلَّمةٌ لا يمكنك أن تخطو بدونها خطوة واحدة . فالعلم الذي نقصده هو العلم الذي يُمكِّن من تغيير ما بأنفس المسلمين ، ليغير ما بهم وحولهم ، ولك

أن تسمي هذا العلم بعد ذلك بما شئت ، فليس المهم هو الاسم ، وإنما المهم ما يوصل إلى التمكن من هذه الوظيفة .. وهي تحتاج إلى معرفة أمرين :

1 – ماذا نُغيِّر .

2 – كيف نغير ؟

فالأول : يشمل اختيار المثل الأعلى أو تصحيحه . وإلى هذا انصرف جهد العالم الإسلامي منذ قرن أو أكثر في صورة دفاع عن الإسلام أو حذف ما ليس منه .

وأما الثاني : فلم يبذل فيه جهد يذكر ، فما زالت دراسات المسلمين قاصرة عن بحث موضوع تغيير ما بالنفس .

إذن : لِمَ لَمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم ؟ هذا الكتاب مبني على أن الذي يعيق سير المسلمين في هذا الوقت هو نقص القدرات وليس الإرادات ، وهذا ما سبق تقريره بالقدر الذي تيسر .

وكذلك من جملة ما تقرر : أن الإرادات تبعث على تحصيل القدرات ، وقد استشهدنا بقوله تعالى :

« ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة » (سورة التوبة : الآية 46) .

على أن الإنسان إذا أراد شيئاً سعى لإعداد وسائله ، وأن من لا يُعدُّ الأسباب لما يريد ، يتَّهم في صدق إرادته ، وهذا صحيح بصورة عامة .

وهنا يتكرر السؤال السابق : لِمَ لَمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم ؟ وأنت تزعم أن المسلمين عندهم إرادات ، وأن الإرادات تبعث على تحصيل القدرات . فكيف إذن تفسر الموضوع ؟ إن هذا الفهم يبيّن أن الذي ينقصنا الإيمان (الإرادة) لا القدرة !!

أقول : نعم . هذا يحتاج إلى التفسير والتوضيح والتفصيل ، وعدم توضيحه وتفصيله هو لذي يعقد المسألة ، وإن تفسيره يحتاج إلى توضيح أمور .

أولها : أن للإرادة شروطاً لا بد من توفرها حتى توجد القدرة ، ونوضح ذلك بمثل المرأة التي تريد الخير لابنها ، وهذا الخير نفسره بالصحة الجسدية ، فليس من طبيعة الأمهات عدم إرادة الخير لأولادهن ، ومع ذلك فلعدم معرفتهن يخسرن صحة أولادهن . وعدم معرفتهن قد يكون موغلاً في الجهالة بحيث لا يخطر على بال الأم أن هناك وسائل معينة عليها أن تقوم بها للمحافظة على صحة الطفل ؛ غير الأمور التي هي في حدود معرفتها السطحية ، وما خرج عن ذلك فلا يخطر في بالها بصورة يبعثها على الطلب الجدي للمعرفة .

وهكذا شأن العالم الإسلامي في مشكلة صحته الاجتماعية ، فهو مكتفٍ بما عنده من الأمور التقليدية لحفظ سلامة المجتمع دون أن يخطر في باله أن هناك أموراً علمية فنية دقيقة جديدة في الحياة في حاجة إلى أن يحصلها حتى يقي نفسه المشي مكبّاً على وجهه .

ونقدم صورة أخرى تزيد الأمر وضوحاً : عندما نرى – مثلاً – في بعض أحياء العاصمة طفلاً يمشي على يديه لإصابته بشلل الأطفال ، بينما الشخص المختص لإعطاء اللقاح المضاد لهذا المرض في وسط المدينة قاعد ينتظر ليقوم بالتلقيح مجاناً ، ومع ذلك فأبوَا الطفل لا تحملها إرادة الصحة لأبنهما على أن يقوما بتلقيح طفلهما !!

إلى أي شيء يرجع هذا الحدث ؟ هل نرجعه إلى عدم إرادة السلامة للطفل ؟ وهل نتهم الأم بأنها فاقدة لعاطفة الأمومة وأنها خائنة ؟ أم ترجع إلى عدم الفهم للموضوع مع وجود الإرادة ، ومع وجود الحب الكامل للسلامة ؟ إن عدم العلم والمعرفة بما ينبغي أن يقوما به لتحصيل السلامة ، هو الذي منعهما من ذلك . فإذا أردت أن تفسر هذه الحادثة أيضاً بأن سبب عدم تلقيحهما لطفلهما هو عدم إيمانهما بجدوى التلقيح ، حتى في هذه الحالة لا يكون السبب هو عدم إرادة السلامة للطفل ، بل عدم العلم بما ينفع الطفل ، أو غموض هذا الموضوع ، أو إيمانهما بالتوكل على الله في نجاة ابنهما . إن تحليل هذه الحالة مفيد جداً

لبيان مكان العلة في المشكلة ، لأن العوامل التي تحول دون تلقيح الطفل : إما الجهل المطبق الذي يحيط بالموضوع مما يجعله ملتبساً ولا يرفع الهمة لتحقيقه ، وإما التوكل على الله في أن تحصيل النجاة برحمة الله تعالى .

فالعاملان الأول والثاني نريد أن نزيلهما من نفس المسلم فنغير ما بنفسه من الجهل والغموض . وأما العامل الثالث : فنريد أن نصححه بإضافة (إعقل) إلى (توكل) .

هذا المثل الذي سقناه يلقي ضوءاً جديداً جلياً إلى حدٍّ ما ، ويظهر الموضوع ليس بالشكل البسيط الذي نتصوره بحيث يكفي مجرد الإرادة لتتحقق القدرة . فتحقق القدرة بحاجة إلى توفر شروط وزوال موانع لتُنجب الإرادة قدرة . وهذا هو الذي أريد أن يتحقق في العالم الإسلامي لتقوم فيه الإرادة بوظيفتها ، فبدل أن نقول : إنه لا إرادة عنده ، أو لا إيمان عنده ؛ نقول : إن إرادته قد عُطِّلت بما أصابها من فقدان للشروط . ونذكر هنا أيضاً أ فقدان المقياس الذي نميز به النافع من الضار يؤدي إلى الاسترابة والخوف والانكماش من كل جديد ، وإن كان هذا الجديد يحمل النفع ، ولعلنا نذكر ما كان يجري في بعض قرانا من استرابة الناس من عملية التلقيح خشية أن يكون وراءها ضرر مقصود ، فالناس الذين عاشوا في ظروف اجتماعية سيئة استغلالية يتوجسون خيفة من كل شيء ويفسرون كل حدث بإرادة السوء دون الرجوع إلى مقياس إلا مقياس سوء الظن الموروث .

وبمقدار ما يدرك الإنسان سنن الله ويعمل بحسبها ، فإنه يتخلص من نفسية التشاؤم والانكماش ، وينطلق في طريق حياته متفائلاً على بصيرة .

ويمكن أن نتصور هذه الحالة في العالم الإسلامي ، حيث أصبح المسلمون يستريبون من كل علم أو دعوة ويرون في ذلك خطة للهلاك أو الإيقاع بهم . نلاحظ ذلك كثيراً في الدراسات والتعليقات التي تمثل الموقف السلبي تجاه كثير من الأفكار والأبحاث والأحداث ، لأن أصحاب تلك الدراسات فقدوا المقياس الموضوعي ، واكتفوا ردود فغل نابعة من المقياس الذاتي الذي كوَّنه الخوف أوقات الجهالة .

ونتيجة لهذا الموقف فإن العالم ينظر إلى المسلم نظرة إشفاقٍ وأسى ، أو شماتة وإدانة ، ولا بد للمسلم ليتخلص من هذا أن يوسع أفقه ليصحح موقفه من مشكلات الحياة فيكون على بصيرة وبيّنة .

ثانياً : ومما يعطّل إرادة المسلم ويمنعها من أن تعطي ثمارها ، فهمُ المسلم الخاطئ لقدر الله ، وهذا الموضوع من الخفاء والتعقيد ما يحتاج إلى دراسة تحليلية دقيقة لكشف مدى العطالة التي تنتج عن هذه النظرة . إن السلم يرى أن إرادته ليست مما يتحقق بجهده ، وإنما يحققها الله تعالى . ولما علّق المسلم تحقيق إرادته على شيء آخر غير جهده ، أصبح لا قيمة لهذا الجهد ، فزهد في بذله . والموضوع – إلى هذا الحد – بسيط سهل تناوله ، ولكن الصعوبة تبرز حين نبدأ في تعميم هذه القاعدة أو البحث عن الذين يعطِّل فهمهُم هذا الموضوع بهذا المستوى قيمة جهودهم . إن المشكلة ليست فقط في مستوى عوام المسلمين ، بل في مستوى قيادته ... ومعاناة هذا الموضوع جعلت سيد قطب رحمه الله يكتب في كتابه (هذا الدين) : « هناك حقيقة أولّية عن طبيعة هذا الدين .. حقيقة أولية بسيطة ، ولكنها مع بساطتها كثيراً ما تُنسى ولا تدرك ابتداء فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين ... إن البعض ينتظر من هذا الدين – ما دام منزَّلاً من عند الله – أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ، ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ... » .

وأقول هنا : إن المسلم يردي ويتمنى بكل صدق وإخلاص أن يتحقق في واقع الحياة المنهج الإسلامي والشريعة الإسلامية ، ولكن هذه الإرادة وهذه الأمنية الصادقة ، تظل أمنية في قلب المسلم لا تبعثه على فكر ولا على عمل ، لأنه ينتظر أن يتحقق هذا الدين – ما دام منزلاً من عند الله – بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب ودون أي اعتبار لجهد البشر .

هذا الموضوع جدير بالبحث والتوضيح لأن غموضه (أي غموض كيفية تحقيق إرادة المسلم) ، يعطِّل قيمة الإرادة والنية الصالحة ، فتبقى الإرادة لا تحمل على السعي لإيجاد القدرات .

ومسلم اليوم لا يشعر أنه يحتاج إلى شيء يقوم به في سبيل دينه غير أن يقدم نفسه وماله . وحين يفعل هذا يصاب بزهوّ يسدّ أمامه منافذ الفهم ، فلا يشعر أن هناك جهداً آخر أفضل مما وصل إليه ، وهذه الحالة النفسية تعطل السعي إلى التكامل وطلب المزيد من الصواب ، كما تعطل عملية النقد والتصحيح ، إذ أن بذل المسلم لنفسه وماله بهذا الشكل لا تمكنّه من كشف جوانب النقص في أفكاره وفهمه للأمور . ولا يخطر في البال أنه يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة الممتازة من التضحية العوام والعجائز وحتى الأطفال دون أن يؤثر ذلك في ضحالة أفكارهم لحل المشكلات .

ثالثاً : من أسباب ما يعطِّل إرادة المسلم ، فهمه الخاطئ لـ : (كيف بدأ الخلق) ؟ (سورة العنكبوت : الآية 20) وهذا السبب متصل بالسبب السابق ، وإن كان له وجه آخر ، وهو أن المسلم بحسب مواريثه الثقافية خلال القرون صار ينظر إلى أحداث هذا الكون نظراً يخلو من رؤية الأسباب التي تساعد على وجود الأحداث ونموها ، فلا يرى القوانين والسنن التي تعمل في أحداث الكون ، ولا يرى المؤثرات البعيدة والقريبة التي ساهمت في حدوث الأوضاع التي يعيشها ... وحتى فكرة صلة الحاضر بالماضي والمستقبل ، ليست واضحة لديه ، ولذلك يُحوِّل الأحداث بكل هدوء ورضا إلى إرادة العلي القدير ، ويتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته . واستخدم هذه الحوقلة في غير مكانها يبعدها عن أن تكون كنزاً من كنوز الجنة كما ورد في الحديث الشريف ، ويجعلها كلمة استرجاع (إنا لله وإنا إليه راجعون) تقال في موطن الضعف والاستسلام ، لا كلمة استعانة ؛ وهذا ما جعل أحد الصالحين ينذر قائلها الذي استخدمها في معنى الاسترجاع .

حاولنا أن نثبت فيما سبق وجود الإرادة عند المسلم ، ولكن علينا أن نوجه هذه الإرادة لوجهة الصحيحة لتعطي نتائجها من السعي والحركة لإيجاد القدرات .. وهذا التفسير للمشكلة يضع المسلم في طريق الحل بدل أن نحاول نفي الإرادة عنه ، وهو يشعر أنه يملكها .. وماذا نرفع إن لم نعرف كيف نرفع ؟ وكيف نصنع ؟ هذا هو العلم الذي أريده منكم ولكم أيها الشباب المؤمن .

2 – عمى الألوان :

إن كان بعض الناس مصابين بعمى الألوان فلا يرون إلا بعضها ، فإن هناك عمى فكرياً لا يمكن معه أن يفهم الإنسان الأمور والأحداث متكاملة . وهذا العمى الفكري هو الذي يتضمنه قوله تعالى :

« وعلى أبصارهم غشاوة » (سورة البقرة : الآية 7) . « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً » (سورة الأنعام : الآية 25 وكذلك سورة الإسراء : الآية 46) . « ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها » (سورة الأعراف : الآية 179) .

هذا المرض الفكري لا نُبصره ، ولا يقع تحت مجال رؤيتنا . وكما أن البصر يعجز عن الرؤية في الظلام وعن رؤية ما فوق الأشعة ، فإن الفكر يصاب بمثل هذا العجز – وليس هذا الجانب كشفاً جديداً – وتكرار آيات القرآن في هذا المجال ، يجعل الذي لا يعلم يتساءل عن سرِّ هذا التكرار ، والله سبحانه وتعالى يقول :

« انظر كيف نصرِّف الآيات لعلهم يفقهون » (سورة الأنعام : الآية 65) .

إن هذا الموضوع قد صار معروفاً ، ولكن نحن المسلمين مصابون بعمى ألوان فكري لا ندرك بسببه كثيراً من الأفكار : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (سورة الحج : الآية 46) .

وهذا ما يصدم المسلم الذي رسخ في فكره أن عمى القلوب خاص بالكافر ، وكأن المسلم يملك المناعة لمجرد انتسابه إلى الإسلام .. إن هذه السذاجة هي نفسها أبرز مظاهر عمى القلوب .

وقد يكون المسلم مستعداً لبذل ماله ونفسه في سبيل الله ، ولكنه يجهل السبل القويمة المجدية لهذا البذل فيظل يتخبط ويقع في حيرة من أمره . إن عمى القلوب لا يتمثل فقط في حيرة هؤلاء البسطاء ، ولكنه يظهر بشكل أوضح في عقول الخاصة التي تجهل السبل القويمة لاستخدام أنفس هؤلاء وأموالهم التي يجودون بها .

هنا يبلس المتفيهق ، ويرتد البصر خاسئاً وهو حسير ، وتُهدر الطاقات من مغفلية أصحابها لا من عدم وجود الطاقات ، ولا من سوء نوايا أصحابها وعدم إرادتهم الخير لأمتهم ، بل في عمى بصائرهم عن كيفية حل المشكلة .

لو أتينا بأقوى الرجال عضلات ، وأكثرهم صلاة وصياماً ، وأحبهم لنصرة قضية المسلمين ، وهو لا يعلم عن المصارعة اليابانية شيئاً ، وأدخلناه حلبة الصراع مع إنسان شديد الكفر ، لكنه أوعى منه في هذا الفن ، فإن نتيجة المصارعة مأساة لا نحتاج إلى ذكرها . فالإرادات والقدرات العضلية تدحرجت أمام القدرات الفهمية ... وهذا ما يأبى العالم الإسلامي أن يفهمه ويبصره ويعترف به . ولا بد من لفت النظر إلى أن المؤمن الذي يفقد قدرة ما – قدرة المصارعة مثلاً – لا يصبح كافراً ، وإنما مؤمناً مقصراً .

ينبغي أن نحلل الموضوع بدقة أكثر ، لنعلم ماذا ينقص المسلم : هل هو الإيمان والإرادة حقاً ؟ أم تنقصه القدرات الفهمية التدريبية ، أم القدرات المادية ؟ وإننا إذا أخطأنا في التشخيص ، فإن ذلك يؤدي إلى نتائج وخيمة . وهنا أريد أن أنبّه إلى أمرين :

الأول : الدّمج الذي يقوم به المسلم بين القدرة والإرادة ، بين الإيمان والإسلام . إن الإيمان هو الإرادة ، وإن الإسلام هو القدرة ، ولكن كما يقول ابن تيمية : حين يتعرض لبحث النزاع حول : هل الإيمان هو الإسلام ؟ والإسلام هو الإيمان ؟ أم أن كل واحد منهما يفترق عن الآخر ؟

ويخرج ابن تيمية من البحث بأنه إذا أُطلق أي منهما شمل الآخر ، ولكن إذا أردنا أن نبحث كلاً منهما بدقة نجد أحدهما يختلف عن الآخر كما ورد في سورة الحجرات : « قالت الأعراب آمنّا . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ولّما يدخل الإيمان في قلوبكم » (سورة الحجرات : الآية 14) .

قد يكون الرجل مؤمناً كاملاً ، ولديه استعداد أن يبذل نفسه وماله في سبيل الله ، ولكن لا يملك القدرات الفهمية حتى يكون قاضياً أو مفتياً ، وليس هذا فرض عين على كل واحد ، وإنما هو فرض كفاية ؛ ولكن إذا حصل تقصير في فرض الكفاية وقعت المسؤولية على الكل ، وليس على الكل بمستوى واحد ، بل على من هو أقدر لتحققه ، ولهذا ألوم الشباب الذين لا يسعون لبلوغ المستوى في الفهم الذي يحتاج إليه هذا العصر .

وموضوع اختلاط المسلم بالمؤمن بحث طويل والنزاع فيه كثير ، وإنما سقت رأي ابن تيمية لما فيه من اختصار وحل لمواطن النزاع بتطبيق هذه القاعدة . فقد يكون الرجل مسلماً في الظاهر وليس عنده الإيمان كما قال الله تعالى عن الأعراب ؛ وقد يكون الرجل مؤمناً وليس عنده الإسلام إما لإهماله كالعُصاة الذين لا يقيمون أحكام الإسلام ، وإما لعجزه كالمسلم الفقير الذي لا يحج ولا يزكي . والأول هو الذي يترك الإسلام إهمالاً ، لا عدم إيمان ؛ فهذا الذي تنازع فيه المسلمون ومن أجله افترقوا إلى فرق كالخوارج والمعتزلة وأهل السنة ، وكل طائفة تحتها طوائف إلى درجة أن العدد لا ينضبط لكثرة الاختلافات . فالخوارج يكفّرون بالمعصية ، والمعتزلة يجعلونه لا كافراً ولا مؤمناً بل هو في منزلة بين المنزلتين ، وأهل السنة يجعلونه مؤمناً عاصياً ، ولا يكفرون مؤمناً بمعصية . وابن تيمية أطال الحديث عن هذه البحوث . وأقول : إن كثيراً من الشباب المتحمس اليوم يذهبون من غير شعور منهم إلى رأي الخوارج ، ويصيرون إلى هذا الرأي تحمساً وحرقة لأجل الإسلام ، وليس اعترافاً منهم برأي الخوارج .

وهنا ينبغي أن نبه إلى أمر ربما يفيد ، وهو أن إطلاق الكفر والنفاق على مرتكبي المعاصي كتصديق الكاهن ، حكم عام :

« من أتى كاهناً أو عرافاً فصدّقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد »[1] ، « ومن حلف بغير الله فقد أشرك »[2] .

هذا الإطلاق حكم عام لأن الشخص المعين الذي وقع منه هذا لا يشترط أن يكون كافراً ، وقد يحكم بعضهم بقتل من أصرَّ على ترك الصلاة ثم يختلفون هل قتله كفراً أم حدّاً أم سياسة ؟ والكل متفقون على أن هذه الأحكام أحكام دنيوية ، وأمره في الآخرة إلى الله .

وذكر الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار عند قوله تعالى :[« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (سورة المائدة – الآية 44) . قال : (إن حكيم بن جبير سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : « ومن لم يحكم ... ومن لم يحكم ... ومن لم يحكم ... » (سورة المائدة – الآيات 44 ن 45 ، 47) . قال : فقلت : زعم قوم أنها أنزلت على بني إسرائيل ولم تنزل علينا ، قال : اقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال : لا ، بل أنزلت علينا ، ثم لقيت مقسماً مولى ابن عباس فسألته عن هؤلاء الآيات التي في سورة المائدة ، قلت : زعم قوم أنها نزلت على بني إسرائيل ولم تنزل علينا . قال : إنه نزل على بني إسرائيل ونزل علينا ، وما نزل علينا وعليهم فهو لنا ولهم . ثم دخلت على علي بن الحسين فسألته – وذكر أنه ذكر له ما قاله سعيد ومقسم – فقال : قال صدق ، ولكنه كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك . فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال ، فقال سعيد بن جبير لابنه : كيف رأيته ؟ قال : لقد وجدت له فضلاً عظيماً عليك وعلى مقسم . والمراد أن عدم الحكم بما أنزل الله أو تركه إلى غيره – وهو المراد – لا يُعَدُّ كفراً بمعنى الخروج من الدين بل بمعنى أكبر المعاصي .] [1] .

ومما يتصل أيضاً بهذا الموضوع وتنازع يه المسلمون : هل الإيمان يزيد وينقص ؟

لعل وجهة نظر الذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ترجع إلى أن الإرادة يمكن أن تحدث مرة واحدة ، مثل الذي يتحول إلى الإسلام فجأة ، كما تحول عمر وحمزة رضي الله عنهما من الكفر إلى الإسلام ، وصارت إرادتهم كلها للإسلام ، وتحولت تحولاً كاملاً دفعة واحدة ، فهذا التحول لا شك فيه . ولكن يبقى للإنسان بعد ذلك أن يزيد معرفته بأحكام الإسلام . فإذا آمن أو تحولت إرادته إلى الإسلام ، فقد صار عنده استعداد لقبول كل أمر يأمر به الله فهو سلّم بهذا ، ولكن لم يعلم بعد كل ما سيأمر أو ما أمر به الله ، فإذا علم نفّذ ، فهذا إيمان كامل . ولكن ليس معنى هذا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، ولكن الإيمان أكثر ثباتاً من الإسلام ، وأسرع حصولاً ، وليس معناه أنه كتلة واحدة لا تقبل الحركة ، بل يزيد وينقص ويختلف من شخص لآخر ، وله صلة بالإسلام أيضاً ، فكلما ازداد الإنسان علماً ومعرفة ازداد إيماناً ، وازداد طلباً للفهم وتنفيذاً للحق .

والأمر الثاني الذي بسببه تختلط على المسلم القدرة والإرادة : هو أن الله سبحانه وتعالى يأمر بهما جميعاً ، يأمر بالإيمان وإرادة وجهه تعالى وابتغاء مرضاته ، كما يأمر بالعلم والإعداد والتبصر والفهم والتفكّر في آيات الله في الآفاق والأنفس والسير في الأرض والنظر إلى سنن الذين خلوا من قبل ، فكون الشيء موجوداً في القرآن لا يعني أنه موجود عند المسلم حتماً وضرورة . فإذا كان الله يأمر بإخلاص الوجه له وعبادته وحده ، فكذلك يأمر بالسير في الأرض ، وبفهم سنن الحياة وسنن الذين خلوا من قبل . إلا أن هذين الأمرين (الإخلاص والصواب) لم يتحققا في حياة المسلم بشكل متساوٍ فربما يقر المسلم بالأمر الذي في قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (سورة الأنفال : الآية 60) مهما كان حجم ما يأخذ به من هذا الأمر ضئيلاً ولكن تكاد تنعدم استجابة هذا المسلم لأمر الله تعالى في قوله :

---

[1] مسند الإمام أحمد – ج2 – ص429 .

[2] رواه الترمذي في كتاب النذور .

[1] رشيد رضا – تفسير المنار – ج 6 – ص 404 – الطبعة الأولى – 1331 هـ .

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (سورة العنكبوت : الآية 20) . « قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (سورة الأنعام : الآية 11) .

إن المسلم يشعر بالقصور ويدين نفسه حين لا يُعد القوة ، بينما لا يشعر بأدنى وخز في الضمير حين يقصرّ عن السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين خلوا من قبل .

إن السير في الأرض ورؤية ما عليه الناس من الخير والشر والسعادة والشقاوة ، ومعرفة أسباب ذلك قريباً أو بعيداً ، وفهم ذلك هو الذي يجمع خبرات العالم جميعاً ، ويكمل في نفس المسلم معنى أوامر الله .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن الذي ينقص المسلم الآن القدرات الفهمية أكثر من الإيمان – الإرادة – ولكن المسلم ينظر إلى هذا الموضوع على غير هذا الوجه ، فيقول : إن الذي ينقص العالم الإسلامي هو الإيمان ، وبأسلوب آخر ، يقول إن المسلمين لا يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله . وأقول : إن في المسلمين من يبذل نفسه وماله في سبيل الله ، ولكن الذين يبذلون سنين طويلة من البحث الجاد والدرس المتواصل لفهم المشكلات على مستوى العصر ، هم القلة بل لا وجود لهم إلا نادراً جداً .

إن عدداً قليلاً من المفكرين المسلمين اليوم فتحت أمامهم بعض النوافذ لدراسة آيات الآفاق والأنفس ، ولكن المشكلة أن هؤلاء لا يعترف لهم موجهو الشباب بالريادة ، ولا يعترفون بعلمهم لأنهم – حسب زعمهم – قد تأثروا بمشارب غير إسلامية .

ومن المؤسف أن يكون الموجهون الذين يمثلون حلقة الوصل بين المبدعين والسواد الأعظم لا يزالون يحملون كل عوامل التخلف التي قادت العالم الإسلامي إلى العصر الذي يمثل فيه المسلمون « القصعة » . وهنا لا بد من الإشارة إلى نقطة يحوطها الغموض أيضاً في حديث القصعة ، حيث يعلل الوهن الذي أصاب العالم الإسلامي بـ (حب الدنيا وكراهية الموت) ، وظاهر هذا التعليل يريح المسلم الذي يشعر أن الحديث يوضح أن ما ينقص العالم الإسلامي هو الإيمان والإخلاص والتفاني . إن من لا يعرف الطريق الصحيحة لبذل النفس ، يزهد في الموضوع وإن كان عنده استعداد لبذل النفس ، ويقول : ما جدوى بذل النفس إذا كان لا يغير الحال ؟! إن هذا يقودنا إلى أن نفرق بين من يمتنع عن بذل نفسه – وهم المعنيون في حديث القصعة – لزهده في الآخرة ، وبين من لا يبذل نفسه لأنه لا يرى المكان الذي يبذل فيه نفسه ، وهو معذور في هذا ، لأن الأمر ليس بذل نفس وكفى ... ولا شك أن هناك خلافاً في كيفية بذل النفس ، فإذا كان بعض اليائسين يظنون أنه ينبغي أن يحملوا السلاح ويقتلوا الناس الذين يعتبرونهم كفاراً ، وأنهم إن فعلوا هذا فقد أطاعوا الله ، وإن لم يفعلوه لا يكونون قد استجابوا لأمر الله والرسول . إن مثل هذا الفهم الخاطئ جدير أن ينتج عنه حب الدنيا وكراهية الموت ، كالذي قال عن عنقود العنب بأنه مرّ حين عجز عن فهم طريق الوصول إليه . إن الإسلام حين حثّ على الشهادة في سبيل الله لم يكن ذلك مجرد طلب الموت وهجوم عليه . إن هذا ليس هو المراد ، بل إن توفير شرط الموت الذي يباركه الإسلام أمر ضروري ، فإذا جهل إنسان شروط الموت أو فهمها فهماً خاطئاً ، سوف لا يرى النتائج الدنيوية – وهي عزة المجتمع السليم – التي أرادها الله من الموت في سبيله .

وينبغي أن يساعدنا النظر إلى النتائج الدنيوية على تصحيح مفاهيمنا لأن أمر الله حين يكون على وجهه يجب أن يعطي النتيجة حتماً بإذن الله ؛ أما إن لم يعط النتائج فينبغي أن نصحح فهمنا ولا نظل نقول : نحن قمنا بالأمر على وجهه إلا أن النتائج هي التي أخلفت . وهذا النظر يمنع من مراجعة الذات ، والبحث عن الأخطاء في أعمالنا وتصرفاتنا .. ولا بد من تنظيف هذه الزوايا حتى لا يستمر تخبط العالم الإسلامي في التيه بغرور . ونكرر أن الجزاء الأخروي يكون على حسب النية ، والجزاء الدنيوي على حسب الصواب ، وأنه يمكن بل يجب تحقيقهما معاً . وقد لا يفهم القارئ ما نقصده بهذا الكلام ، ولكي يفهم هذه الجملة ينبغي أن يكون قد فهم مشكلة المسلمين ، وفهم مستوى العصر الذي نعيش فيه في فهم المشكلات . وحين نُفهمه هذين الأمرين يمكنه أن يفهم أين المسلمون من مشكلاتهم الحقيقية ؟ وأين مستواهم في فهم ذلك ؟ ولكن إن زعمتُ أني أستطيع رفع المسلم بهذه الصفحات إلى فهم مشكلة المسلمين بمستوى آيات الآفاق والأنفس التي ظهرت ، أكون غير مقدِّر للمشكلة حق

قدرها ، وأُحمِّل ما أكتب فوق طاقته . ومع ذلك يجب أن نفاجئ الآخرين بنتائج البحوث – وإن لم نتمكن من سياق كل الأدلة لهم – ليعلموا أن هناك من يكسر إجماعاً يطمئنون إليه ، وأن هناك من ينظر إلى المشكلات بغير النظر الذي ينظرون به إليها حتى لا يقول قائلهم : ما سمعنا بهذا .

قد نضع للمسلم الآن العنوان ، وربما شيئاً فشيئاً على مرِّ السنين – إن كان مجتهداً – يبدأ في رؤية الأدلة . وقد نجد المئات من الشباب المتحرق للقضية الإسلامية والذين عنهم استعداد لبذل نفوسهم – ويبذلونها فعلاً – في سبيل الإسلام ، ولكن عدد الذين فهموا آيات الآفاق والنفس قليل . بل أستطيع أن أقول : إنه ليس في العالم الإسلامي رجل واحد رائد في فهم آيات الآفاق والأنفس ، وإن كل الذين يكتشفون اليوم آيات الآفاق والأنفس هم من غير العالم الإسلامي ، والمسلم إن اجتهد في فهم ذلك فمبلغه أن يستشهد بأقوالهم ليدعم بها وجهة نظره . وإنما يحدث هذا في الوقت الذي يتوقف فيه الجميع عن التفكير ، وقد كان يوماً ما عكس ذلك ، حيث كان كل الذين يفهمون ويبحثون آيات الآفاق والأنفس هم من العالم الإسلامي ، ولكنها سنة الله : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (سورة آل عمران – الآية 140) ؛ ويتم ذلك وفق سنة ، فإذا ترك المجتمع السيطرة على ما بنفسه يفقد زمام التاريخ ، وإلا فلن يفلت منه الزمام . وهل بعد هذا أيضاً نقول : إن الذي ينقص العالم الإسلامي إرادة أم قدرة ؟ وجدنا أصحاب الإرادات الذين بذلوا أنفسهم ولا يزالون يبذلونها ، ولكن أين أصحاب القدرات ؟ إن هذه المشكلة ليست مشكلة المسلمين وحدهم ، وإنما هي مشكلة العالم الثالث . إنني حين اكتب أتوجه إلى الشباب المسلم الذي يُعرف بأنه إسلامي ويريد أن يحيا حياة العبودية الحقة لله تعالى . ولكن لو توسعنا إلى إنسان منطقة الحضارة الإسلامية أو مجال دراسة الحضارة الإسلامية –كما يقول توينبي – لوجدنا أن مشكلة الإنسان تكاد تكون واحدة سواء عند الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية أو الذين يريدون الدخول إلى مجال الحياة المعاصرة عن طريق غير طريق الإسلام . إن الذي ينقصهم هو القدرات الفهمية للمشكلات وليست الإرادات ، لأن مرض الإنسان مرتبط ببيئته الثقافية ، وهي بيئة واحدة لأن الإنسان سواء كان يريد الإسلام الذي تاريخه من الضخامة والفخامة ما هو جدير بإرادة الحياة ، أو يريد فكرة القومية أو الاشتراكية أو ... كل هذه الاتجاهات المتنازعة لا تختلف في إرادتها الخير للأمة التي تسعى لخدمتها مهما اختلفت هذه الإرادات في قيمتها ... إن إرادتهم صادقة في مجموعها ، هم يريدون الخير والنصر و الغنى للأمة ، ولكن ما مقدار كفاءاتهم في تحقيق هذه الإرادات ؟ إنهم كذلك قد قدموا قوائم من الضحايا ، وهذا دليل على صدق إراداتهم . إنهم جميعاً أثبتوا إخلاصهم بتضحيتهم واستعدادهم لبذل النفس والمال ، ولكنهم لم يثبتوا كفاءاتهم الفنية في حل لمشاكل . إن هؤلاء لم يؤتوا من قلة إراداتهم ، وإنما من قلة قدراتهم الفهمية والفنية . وقد لا نبالي بعجز غير المسلم لأن المسلم قد لا يعترف بإرادة غيره ... وقصدنا أن يفهم المسلم مشكلته الخاصة وإن كان يحسن به أن يعرف مشكلات غيره ، ويعرف القاسم المشترك بينه وبين غيره من مشكلات ، وهذا الفهم العام مما يساعده على حل مشكلته بفعالية أكثر ، ويساهم مع الآخرين في حل مشكلاتهم . ولسنا الآن بصدد إثبات أو تقييم إرادة الآخرين أو نفيها ، وإنما الذي نريد أن نشير إليه هو أن المسلم أثبت عجزه أمام الآخرين . ففي قضية فلسطين – مثلاً – التي تؤكد المرض العام في المنطقة ، لا يريد المسلم أن يعترف بعجزه أمام هذه القضية ، لأن الذين دخلوا ميدان حلها لم يدخلوه تحت شعار الإسلام ، فالمسلم يرى نفسه قد أُبعد عن حل القضية . والحقيقة أنه قد عجز أن يثبت وجوده أمام هؤلاء الذين دخلوا ميدان القضية وعجزوا عن حلها ، فهو قد أثبت عجزه مرتين ؛ ولكن المسلم لا يريد أن يفهم هذا ولا يريد أن يعترف به .

لماذا يعجز المسلم عن رؤية هذه الواقعة الكبيرة ؟ لعل من أسباب ذلك أنه لم يفهم المشكلة بعد ولم تتوضح له ، لأن الإنسان في العادة لا يستطيع أن يعترف بخطئه إلا إذا عرف كيف يستطيع أن يتخلص منه ، فما دام لم يعرف بعد كيف يتخلص من خطئه ، فسيظل متمسكاً بالخطأ لأنه لم ير البديل ، ولم ير الحل الصائب ، ولم ير ما ينقصه للحل . وحين يدرك ما ينقصه حقاً تصير لديه القدرة على الاعتراف بالخطأ الذي كان يرتكبه في معالجة المشكلة ، ولا يعود يشعر بمركب النقص الذي يحمله

على تحدي الحقائق ، بل يصير يعترف بما كان يقع فيه من خطأ . وفهم الفرق ضروري بين من لا يقدر أن يسمع أحداً يتحدث عن خطئه ، وبين ما هو بنفسه يعترف بالخطأ الذي ارتكبه ، ولا يشعر أنه من العيب أن يقع في الخطأ ، ولكن العيب هو شعوره بالعيب عندما يعترف بالخطأ ، وهذه نقلة نفسية تغييرية كبيرة « كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم » (سورة النساء : الآية 94) . والقدرة على مثل هذا الانتقال تمثل الانتصار على النفس الذي هو سبب كل انتصار خارجي بعد ذلك . فحين تصير للمرء قدرة الهجوم على تلك الخنادق المنصوبة داخل نفسه ، يكون قد انتصر داخلياً .. وتحرر من أعماقه ...

وفرق كبير بين من يحمل في نفسه رهبة عبادة العجل ، وبين من تحرر فقال : « وانظر إلى إلهك الذي ظَلت عليه عاكفاً لنَحرقنَّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفاً » (سورة طه : الآية 97) .

كيف أخاف من التوبة وأنتم لا تخافون من الذنب ؟! كيف أخاف من الاعتراف بالخطأ وأنتم لا تخافون الالتزام بالخطأ ؟! كيف أخاف ما أشركتم وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن ؟

والشاهد هنا انقلاب المفاهيم ، وليس القصد الإدانة بالإشراك ، وإنما ضرورة أن يحدث عندنا تغيير في فهم المشاكل ، ومنها المشكلة التي أبحثها وهي مشكلة الإرادة والقدرة . والتغيير الذي أبغيه هو أن نعلم أن الذي ينقصنا هو القدرات وليست الإرادات . وإن كنتم تشعرون أنكم قد تجاوزتم فهم هذا الذي أُتعب نفسي وغيري لفهمه ، فاحمدوا الله على ذلك ، وارموا بهذا الكتاب عرض الحائط ، ثم امضوا إلى تطلعاتكم الجديدة واتركوني مع الأميين لأعلمهم هذه الأحرف الأبجدية في سنن الحياة .

3 – القدرة والإرادة كشريعة وحقيقة :

والمقصود من هذا العنوان بيان كل من القدرة والإرادة عند المتصوف والفقيه ، فالصوفية يسمون أنفسهم بأصحاب الإرادات ، ويسمون تلميذ المتصوف بالمريد ، ويعتبرون أنفسهم بأنهم بأصحاب الحقيقة . كما أنهم يرون إمكان وصول الأمي والعامي إلى درجات عالية في الإرادات ، وهو نموذج من التطبيقات على ما ذكرنا سابقاً من أن الإرادة قد ترتفع إلى درجة عالية عند العوام والأطفال ذكوراً وإناثاً بحيث يبلغون أقصى درجات الإرادة ، وذلك ببذل النفس والمال . بينما لا يمكنك أن يصل إلى القدرات إلا بجهود ، لا تتيسر للعوام والأطفال . وكذلك أمر التصوف والفقه ، فالمتصوف يمكن أن يقطع المراحل قفزاً ويصل ، ويسمونه (الواصل) . أما الفقيه فلا يمكن أن يصل إلا بالدرس والجد سنين طويلة . وقد يرمي المتصوف بأنه متعلق بالرسوم ، وبأن الفقهاء محجوبون . وليس هذا موضع بحثه الآن ، ولا يهم ما بين المتصوف والفقيه من خصام ووئام ، ولا أن المتصوف قد يغرق في الإرادة ولا يعود يفرق بين الإرادة الشرعية والكونية ، فيرى الكون كله مراداً لله ومنها المعاصي حيث يرى المعصية طاعة لله ... وهذا الاختلاط بين الإرادة الكونية والشرعية شائع مشوش ، وإن لم يصل عند الكل ما وصله عند الحلولية من المتصوفة . الإرادة الكونية هي إرادة الله في أن جعل الإنسان قادراً على فعل الطاعة والمعصية ، فإذا فعل طاعة يكون قد عملها بإرادة الله الكونية ، أي بأقدار الله له على ذلك ، وإن فعل المعصية فكذلك ... أما الإرادة الشرعية فهي إرادة الحلال والحرام (الواجب والمحظور) . فإذا استخدم الإنسان إرادة الله الكونية في الطاعة فقد رضي الله عنه ، وإن استخدمها في المعصية سخط الله عليه ... مثال ذلك شراء المصحف أو شراء الخمر ، ولكن أن تجعل الخمر حلالاً كالمصحف لأن الله أراد قدرتك على هذا وهذا ، فهنا مصدر الخطأ الذي يقع فيه الحلولي ، ومصدر التشويش الذي يقع فيه المسلم الطيب عادة حين يرى أن المعاصي من قدر الله ... ويمكن أن نرى الكوني والشرعي في قوله تعالى : « ألا له الخلق والأمر » (سورة الأعراف : الآية 54) فالله خلق المؤمن والكافر .. ولكن الله لا يأمر بالكفر ، وإنما يأمر بالطاعة :

« وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون » (سورة الأعراف : الآية 28) .

كما أن (الخلق) يتجه إلى الكوني ، و(الأمر) يتجه إلى الشرعي . إلا أنه قد تأتي الكلمة الواحدة يراد بها الكوني أحياناً ولشرعي أحياناً . فقوله تعالى :

« حرمت عليكم الميتة » (سورة المائدة : الآية 3) : أمر شرعي . ولكن قوله : « وحرمنا عليه المراضع » (سورة القصص : الآية : 12) : أمر كوني .. كذلك قوله تعالى : « أمر ألا تعبدوا إلا إياه » (سورة يوسف : الآية 40) : أمر شرعي ...

ويمكن الإشارة – ونحن نبحث موضوع المتصوف والفقيه – إلى جانب آخر ، وهو أن التخلف حينما أصاب العالم الإسلامي ، ظهر عند المتصوف (في شطحاته) ، وظهر عند الفقيه (في جموده) ؛ فكان المتصوف من قبل يملك المرونة بحسب الجانب الإرادي حيث تغلب عليه المقاصد ، أي كان مرناً في الجانب الفقهي . وكان الفقيه ملتزماً للقواعد بشكل ظاهر في بيان الحلال والحرام ... ولكن التخلف حينما أصاب كلاً من المتصوف والفقيه ، شطح المتصوف فلم تعد له كوابح ، وجمد الفقيه فلم يعد يستطيع حركة ولا اجتهاداً . وجانب ثالث ، هو أن المتصوف يغلب عليه جانب العبادة ، بينما الفقيه يغلب عليه جانب العلم وربما المنطق والفلسفة والحدود ... يقول ابن تيمية في هذا في عدة مواطن من الفتاوى : « إن فسد من عبادنا فيهم شبه بالنصارى ، ومن فسد من علمائنا فيهم شبه باليهود .. » لأن النصارى ضالون ففسادهم في القدرات أكثر لأنهم يخالفون عن جهل .. واليهود مغضوب عليهم ففسادهم في الإرادات أكثر أي فساد النيات عندهم أكثر لأنهم يخالفون عن علم .

4 – موقف أهل الدين والسياسة من نقص القدرة والإرادة :

ذكرنا فيما سبق أن ركني العمل هما القدرة والإرادة ، وأن النقص قد يكون في كليهما أو في أحدهما ... وأن النقص في حضارة عالم الإسلام اليوم إنما هو في جانب القدرات ، ولكننا ذلك نرى الناس يتجهون إلى إبراز أهمية الإرادات ويحاولون تلافي النقص فيها – وكان الأحرى بهم أن يتجهوا إلى تلافي النقص في القدرات – فيتجه أهل الدين إلى علم الكلام ، ويتجه أهل السياسة إلى مصادر جديدة للإرادات .

أما في موطن الاختلاف ، فكل من أهل الدين والسياسة يتجه إلى الإدانة في نقص الإرادات أو عدم وجودها ولا يتجهون إلى الإدانة في نقص القدرات : فيتجه أهل الدين إلى التزمت ورمي كل من يخالفهم بالزندقة والمروق عن الدين ، ويسارعون إلى الاتهام بالكفر ، فينشأ عن ذلك تكفير بعضهم بعضاً ، كما ينمو التشكك في الإخلاص والإرادات . وكان منشأ محاكم التفتيش من مثل هذا الاتجاه .

وفي العالم الإسلامي يبرز هذا النقص في التوجس خيفةً من كل محاولة لكسب القدرات ، أو وصف محاولة استخدام القدرات بأنها قنطرة اللادينية ، أو أنها أخطر بدعة تهدد الشريعة والدين . ويكون التنابز بألقاب الكفر بضاعة لمتخاصمين ، ويتوجه الشك مباشرة إلى الإيمان ، فيخشى على إيمان الذين يسعون لاكتساب القدرات . ويمكن أن يلاحظ ذلك – بسهولة – كل من راجع سجل الأفكار في العالم الإسلامي ...

أما في مجال السياسة ، فنجد الحالة نفسها ... فنراهم لا يدين بعضهم بعضاً في القدرات ، بل يتجهون مباشرة بكل عفوية إلى الإدانة في النيات والإرادات ، في صورة الاتهام بالخيانة والعمالة ؛ فكل من يخالفهم خائن وعميل . وما أسهل توزيع هذه الألقاب على بعضهم في أدنى خلاف ينشب بينهم ، ولست بحاجة إلى ذكر أمثلة ، إذ عليها نصبح وعليها نمسي ... فوسائل الإعلام التي تضخمت في هذا العصر عالمياً تطفح بمثل هذا الاتجاه ولا يكون الاتهام في مثل هذه الظروف الحضارية – عادة – بنقص القدرات أو بنقص العلم ، وباحتمال الخطأ في الفهم إذ « كل ابن آدم خطاء » بل يتوجه مباشرة إلى النيات وإدانة المقاصد والإرادات . ولعل السبب في هذا هو استخدام البضاعة المتوفرة وهي الإرادات حيث يغيب العلم ، فلا يستخدمونه في بحث القضايا ، بل يستخدمون الإخلاص فيكون الطعن في إخلاص المخالف ، لا في إظهار خطئه وجهله .

وهذا الأسلوب هو أسلوب السهولة في الإدانة ، لأن الإدانة في القدرات (في العلم وفي الفهم) ، تحتاج إلى جهد عقلي وإلى إبراز الأدلة .. أما الإدانة بالكفر أو الخيانة ، فلا تحتاج إلا لمجرد الكلام ...

هذا هو الواقع في مجتمع فقدت فيه الأفكار قيمتها الذاتية . وإن لهذا الأسلوب في الإدانة سيئات كثيرة من أبرزها : أن الإدانة تكون مؤلمة أكثر عندما يعرف المتهمُ في نفسه الإخلاص ، بل أنه صادق في إخلاصه ، سواء كان من أهل الدين أو من أهل السياسة . فالأول يحب الله ورسوله ويخلص لهما ، ومستعد لتقديم كل شيء في سبيل الله . والثاني يعرف في نفسه إخلاصه لأمته وبلده ، ولا يخطر في باله أن يخون أمته أو يبيعها . فإذا ما اتهم بهذه التهمة أهل الدين أو أهل السياسة ، تكون الجراحات مؤلمة مأساوية .. وكم تكون الصدمة شديدة حين يكشفون سوء ظن الآخرين بهم أو اتهامهم مباشرة ... حتى إن هذا الاتجاه يظهر في التجمعات الصغيرة ، فيكون همها كشف ذي الوجهين ، ولا يكون همهم في رفع مستوى إدراك الذين يلوذون بهم ، لهذا تحدث الانشقاقات والحرمانات ، والطرد ، وتحريم المطالعات غير المقررة ، وفرض الرقابات الشديدة على مصادر المعرفة في المدارس الدينية والعقائدية ، ويبذلون في ذلك كل جهد ووسيلة مشروعة أو غير مشروعة . ومن يراجع أساليب محاكم التفتيش في تنسم الاتهامات لأدنى الملابسات ، يعرف كيف أن النقص في القدرات يؤدي إلى دمار المجتمعات .

ومن سيئات الإدانة في الإرادة (الإخلاص) هو أن أصحابها يعوّلون فقط على المخلصين لهم دون النظر والتأكد من كفاءاتهم في أداء الواجب ... فتنحط نتائج الأعمال وتتعرقل الأمور ، وتنعقد السبل ، ولا ينتج عن ذلك تنافس في تحصيل القدرات ، بل التنافس في التقرب والتزلف قدر الإمكان مما يزيد الطين بلة . وهذا الأسلوب في الإدانة لا يحل المشكلة ، لأنه لا يعالج أسبابها ، بل يزيد المشكلة تعقيداً .

ثم إن الاتهام بنقص القدرات ليس مؤلماً كالاتهام بنقص الإرادات ، إذ يمكن للمرء أن يعترف بنقص القدرات دون شعور بوخز في الضمير ، ودون شعور بالإثم وبآلام مخاض ولادة جديدة .

قد يسهل علينا الآن الاعتراف بنقص قدراتنا المادية – الشيئية – وكذلك حين ندخل مستوى القدرات الفهمية ، سيسهل علينا الاعتراف بنقص قدراتنا الفهمية ، كما هو شأن أهل العلم والفهم ، إذ أن أقدر الناس على الاعتراف بالنقص في العلم أهل العلم . ولا يزال الإنسان يسعى لكتم جهله حتى يدخل باب العلم ، فإذا دخل دار العلم لم يعد يقلقه أن يظهر جهله ... وهذا ما حمل ابن تيمية على أن يسطّر في وقت مبكر عن عصرنا هذه الملاحظة التي لها أهميتها الخاصة لأن كل الذين ينظرون ويدققون النظر في آيات الله في الآفاق والأنفس يلاحظون هذه الظواهر . قال رحمه الله في وصف هذه الظاهرة :

« فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون » [1] .

فهذه إشارات خفيفة إلى مشكلات كبيرة نعانيها ، فهي لا تنتظر أصحاب الإشارات الخفيفة ، وإنما أصحاب قدرات علمية فهمية وليست مادية شيئية ، وذلك لتطهير مجتمعنا من المشكلات . وهذا واجبكم أيها الشباب المؤمن ، وقد أنعم الله عليكم بنعمة الصحة والفراغ ...

« ولتعلمن نبأه بعد حين » (سورة ص – الآية : 88) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دَليل الأفكَار

المقدمة : (ص : 4-8)

---

[1] مختارات عبد الرحمن السعدي ص76 .

إن جذور المشكلة التي يبحثها الكتاب عميقة في الأمة ، ولهذا فهي بحاجة إلى بسط وتفصيل . إن الدعوات والطرق التي تتبنى التغيير تأتي البيوت من ظهورها ، لذا لا بد من تغيير أساسي في أساليب العمل الإسلامي ليتوافق مع سنن التسخير .

ومن أمثلة ذلك : العمل على أساس الواجبات لا الحقوق ، وإصلاح المجتمع قبل السياسة ، وسلوك سبيل الإقناع والتربية لا سبيل العنف والإكراه .

الفصل الأول

مُصطلحات البَحث

(ص : 9-51)

لا يكون العمل ناجحاً إلا بإخلاص وصواب . أما الإخلاص أو الإرادة : فهو حب تحصيل أمر أو إرادته ، وأما الصواب أو القدرة : فهو معرفة كيفية تحصيل الأمر .

والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة .

1 – الإخلاص والصواب : (ص : 12-16)

مصطلح الإخلاص مرادف للإرادة ، ومصطلح الصواب مرادف للقدرة ، وقد استخدم القرآن اللفظين .

وكان ابن تيمية يؤكد أنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل – العمل – ضرورة ، وإذا تخلف العمل فينبغي البحث عن لسبب .

واليوم يؤمن أكثر المسلمين أن الأسباب والمقدمات لا تصنع النتائج بالضرورة ، وأن المؤمن يأخذ بالأسباب لمجرد أنه مأمور بها ، والله يقدر النتائج .

2 – إياك نعبد وإياك نستعين (ص : 16-19)

العبادة : إخلاص العمل لله ، والاستعانة تسخير ما خلق الله وهي الوسيلة . والناس مع العبادة أصناف أربعة ، ويغلب على المسلمين اليوم أنهم يعبدون ولا يستعينون . وأمة « إياك نعبد وإياك نستعين » هي الأمة الوسط .

3 – لا إله إلا الله محمد رسول الله : (ص : 19-23)

مدار الدين كله حول الشهادتين ، فالأولى تتضمن الإخلاص وهو توحيد الله ، والأخرى تتضمن الصواب وهو ما جاء به رسول الله ρ ؛ أو هي عبادة الله بما شرع . والله يأمرنا أن نأخذ سنن الشرع من الكتاب (القرآن) وسنن الطبيعة من (الكون) في آيات الآفاق والأنفس .

4 – الغاية والوسيلة : (ص : 23-25)

الغاية : هي الأمر أو المثل الأعلى الذي يتوجه إليه الإخلاص ، والوسيلة هي الاستخدام الصحيح للإمكانات المتاحة.

5 – لماذا وكيف ؟ (ص : 25-26)

« لماذا » ؟ سؤال عن الإرادة أو المبرر ، و « كيف » ؟ سؤال عن القدرة . فإن فقد الإنسان الإجابة عن « لماذا » فالعمل الذي يقوم به غير معقول . وإن فقد الإجابة عن « كيف » فالعمل مستحيل .

6 – البواعث المعللة والطرق التنفيذية : (ص : 26-28)

كل عمل مهما كان بائياً وبسيطاً ، فإنه ينطوي على بواعث وعلى طرق لتنفيذ هذا العمل .. وإن كان يظهر تفوق أحد الجانبين في مجتمع ما ، فالمجتمعات النامية تعاني من قلة الوسائل المادية وقصور الأفكار .

7 – الموثوق والمضطلع : (ص : 28-29)

مصطلحان قديمان ، يعني الأول : أن يكون الشخص أميناً مخلصاً . ويعني الثاني : أن يكون ذا كفاءة وقدرة للقيام بالعمل .

8 – العدل الضابط : (ص : 30-31)

مصطلح وضعه علماء الحديث ، حيث اشترطوا في راوي الحديث أن يكون عدلاً يتوفر فيه الإخلاص ، ضابطاً لا تشتبه عليه الأمور ويصل إلى الصواب بحفظه ووعيه .

9 – الأمانة والقوة : (ص : 31-33)

مصطلحان استخدمهما القرآن . والقوة : قد تكون مادية أو معنوية حسب العمل المطلوب .

10 – الحفظ العليم : (ص : 33)

الحفظ فيه جانب الأمانة والإخلاص ، والعلم فيه جانب المعرفة والكفاءة والصواب .

11 – القاعدة والقمة : (ص : 33-36)

القاعدة : هي الجمهور وهي موطن الإخلاص والطاقات والأعمال . والقمة : موطن الكفاءة والفهم لاستخدام تلك الطاقات . والقمة المقصودة هي القيادة الفكرية التي توجه وترشد ، وليست القيادة السياسية كما فهم جيلنا الراهن.

12 – اللاشعور والشعور : (ص : 36-39)

الإخلاص يقابل اللاشعور ، والصواب يقابل الشعور . وشبيه بهما الانفعال والفعل .

13 – العاطفة والفكر : (ص : 39-43)

ترتبط العاطفة باللاشعور وتتكون من ميول نتيجة لعوامل مختلفة ، والفكر يقصد به الشعور والوعي .

والعاطفة بحاجة إلى وعي لقيادتها . وآلة الفكر هي العقل ، وموضوعه ما في الكون .

14 – الأخلاق والعلم : (ص : 43-45)

الأخلاق : يقابل الإخلاص ، والعلم : يقابل الصواب . وينبغي أن تفهم الأخلاق كقيمة خلقية وجهد واع لا كمجرد هبة إلهية ، والعلم يبرز القيم الخلقية ويقيم أدلته عليها ، بل يصبح العلم أخلاقاً في عدم صبره على الخطأ حتى يصححه .

وما يراه بعض الناس من أن العلم محايد أخلاقياً فغير صحيح ، طالما أن العلم هو ميزان الحق والباطل ، وطالما أن الأخلاق علم .

15 – القلب والعقل : (ص : 46-47)

يستعمل القلب للدلالة على موطن العواطف والإخلاص ويستعمل العقل للدلالة على موطن الفكر والوعي والفهم . وقد استخدم لفظ القلب في القرآن للدلالة على أداة الفقه والعقل والوعي .

16 – مصطلحات أخرى : (ص : 47-51)

كمصطلح نفس وزمن أو الضمير والمجتمع أو الهمّام والحارث ... وسواها ... كلها تعطي المعنى نفسه للإرادة (الإخلاص) والقدرة (الصواب) .

الفصل الثاني

العَمَل

(ص : 52-78)

1 – منطلقات العمل : (ص : 52-68)

إن المواريث الثقافية التي يخلفها المجتمع ، تحدد مجال رؤية الفرد ، فيصبح يرى في الحياة وأحداثها جوانب دون الأخرى وهذا ما سماه القرآن : عمى القلوب ، وهذا المرض في قصور الرؤية وانحصار مجالها أشد فتكاً في الأمم منه في الأفراد .

آ – التسخير : (ص : 55-66)

يزداد تسخير الإنسان للكون بازدياد علمه به ومعرفته لسننه ، إلا أن تسخير الإنسان لسنن النفس ما يزال أقل – وخصوصاً – من تسخيره لسنن الكون ، فلم يصل الإنسان مثلاً حين يذكر أخاه بسوء إلى مرحلة النفور التي يشعر بها من يأكل لحم أخيه ميتاً .

وقد شهد تقدم العلم بصدق قوانين الجاذبية ، وسيشهد بصدق الإيمان بالله واليوم الآخر .

وإن كلمة السر في التسخير هي استخدام السمع والبصر والفؤاد « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » واستخدام هذا الجهاز الثلاثي جعل الإنسان متفوقاً أو جعله « خلقاً آخر » وهو مفهوم الأمانة التي حملها الإنسان .

إن القرآن الكريم يتحدث كثيراً عن سنن النفس الإنسانية لأن التاريخ الحقيقي يبدأ من تسخير الكون الداخلي . وإن الله جعل الإنسان آية عظمته بما علمه وبما هيأه له حين جعله خليفة في الأرض .

ب – انظروا كيف بدأ الخلق : (ص : 6-68)

يأمرنا الله بالنظر إلى « كيف بدأ الخلق » لنعرف كيف نسخر الكون وكيف نشكر الله .

وقد جعل الله سنة الكون في نموه وتغييره من الأزواج . فالله فرد صمد لم يلد ولم يولد ، وكل ما عداه خلق من زوجين .

2 – كيف يتولد العمل ؟ (ص : 69-78)

العمل حركة بقصد ، ولا يسمى عملاً إلا إذا توفرت فيه الإرادة والقدرة ، فهو يبدأ من تلاحقهما ... وهذا واضح في أصغر عمل كإطفاء مصباح أو إيقاده .. إلى أكبر عمل كبناء المجتمع . ويوضح الكتاب بمثل عملي هو أداء فريضة الحج .

الفصل الثالث

الإرادَة

(ص : 79 - 157)

1 – تعريفها : (ص : 79-86)

هي وظيفة العقل المميز ، ويمكن توضيح وظيفتها بمقارنتها بحاسة الشم وكيف يتم . إن العقل السليم يقبل الأفكار السليمة بالفطرة كما تقبل حاسة الشم الروائح الزكية ؛ ولكن هذه الفطرة يمكن إفسادها . والمهم في البحث معرفة كيف تصنع الإرادة ؟ وكيف تضعف ؟ وكيف تفسد ؟ وكيف تضيع وتُفقد ؟ .

2 – من أي شيء تتكون الإرادة : (ص : 86-110)

تتولد من عرض المثل الأعلى على عقل الإنسان ولكن الإنسان قد يختار مثلاً أعلى سيئاً بسبب جهله ، وإن إزالة الجهل هي مهمة الأنبياء والمصلحين وذلك عن طريق البلاغ المبين .

ودور البلاغ زيادة وضوح المثل الأعلى ومعرفة كيفية تحقيقه ، وبهذه الأمور تقوى الإرادة وتنمو .

ولا بد هنا من محاولة إزالة الشبهة عن دعوى نوح عليه السلام » ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » والرد على من رأى فيها عدم ضرورة نجاح العمل مع توفر الشروط وانتفاء الموانع ، بأن نجاح الفكرة إنما يتم على مستوى المجتمع ، وأن أسلوب دعوة محمد ρ وانتصاره كان بسنن طبيعية لا بمعجزات وخوارق ، وهو دليل على تطور مسألة النبوة إلى مستواه النهائي ، حيث يصنع المجتمع بجهود البشر العاديين . وإن قصد الكتاب من بحث هذا أن يتكون عند المسلم نظر سليم للمشكلات ، ومن أبرزها المشكلة الشائعة المتمثلة في القول « علي أن أسعى علي إدراك النجاح » وهي مرض يحول بين المسلم وبين مراجعة نفسه وأعماله لاعتقاده أن عمله صائب ، ولكن لم تأت النتائج لأمر أراده الله .

إن هذا الزعم قد يكون صحيحاً في مستوى الفرد في نتائج العمل الدنيوي ، ولكن النجاح حتمي في مستوى المجتمع حيث يتم نجاح الفكرة .

وهذا النظر الخاطئ قد اكتسب عند المسلم قداسة فامتنع من النقد وأخذ يدافع عن الخطأ . وكشف هذه الأمور هي مسؤولية رجال الفكر ، وهي مشكلة المفكر المسلم بالذات الذي لم يُخرج المسلمين من التيه الذي يضيعون فيه ، ولم يوح إلى قرائه أن عليهم أن يكملوا طريقاً بدأها .

إن المسلمين وكتّاب المسلمين يوزعون اللوم في تخلفهم وهزائمهم على سواهم لأنهم ما زالوا يعيشون في عالم الأشخاص والأشياء ولم يدخلوا عالم الأفكار بعد .

3 – بعض خصائص الإرادة : (ص : 110-146)

آ – يمكن أن تصبح الإرادة ميراثاً ، فيرث الفرد مثله الأعلى من مجتمعه . وما يجعل الوراثة إيجابية وجود عدد كاف ممن يعون القضية وعياً دقيقاً ، لأن ما ينتقل بالوراثة دون وعي قابل للفساد ، وهو ما أصاب المسلمين . (ص : 110-112) .

ب – للإرادة مستويات أعلاها إرادة المثل الأعلى الذي يحرك المجتمع ويعطي الإنسان قيمة عليا ، وهو المرجع لتنظيم الحياة وتحديد علاقات الإنسان ، وهو التوحيد في الإسلام . (ص : 112-116) .

جـ – قد توجد الإرادة دفعة واحدة وليست القدرة كذلك ، ومقياس الإرادة في مستوياتها : هو الاستعداد لبذل المال والنفس ، ولكن قد يصبح المال والنفس مثلاً أعلى يذل الإنسان نفسه في سبيله ، ويكون ذلك بالحرص على حياة .. أي حياة .

ولا قيمة لمثل أعلى لا يرفع إنسانية الإنسان ، فإرادة الرفاهية وزيادة الدخل و ... إرادات باطلة إذا أريدت لذاتها ، فلا قيمة للمال إلا بما يحقق من إنسانية الإنسان وإلا أصبح أداة إهلاك وإفساد للأمم . (ص : 116-122) .

د – عند الإنسان ميل فطري إلى التضحية بنفسه وماله في سبيل مثل أعلى . ولكن قد تبقى الفطرة خامدة فيكون أصحابها مستضعفين ، وقد تثار في سبيل مثل أعلى باطل فيكون أصحابها مستكبرين . وقد أدان الإسلام الفئتين ، ولام فاقد الإرادة وعذر فاقد القدرة ، وقد عذر فاقد الإرادة بشروط . (ص : 122-124) .

متى يعذر فاقد الإرادة ؟ (ص : 124-146)

إذا فقد الإنسان العقل ، أوْ لم ير المثل الأعلى ، أو لم يفهمه فهم معذور . وإن العقل ليس كافياً لإيجاد المثل الأعلى ، ولكنه كاف في قدرته على اختياره إذا عرض عليه .

فالهدى يتنزل من السماء وبه ارتقت البشرية إنسانياً إلى ما نراها عليه . وإن مولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي ، وإن ختم النبوة في الإسلام ينطوي على إدراك عميق لاستحالة بقاء الإنسان إلى الأبد متعمداً على مقود يقاد منه ، بعد أن بلغ مرحلة يعتمد فيها على وسائله وعقله .

منع الإسلام الإكراه في الدين لأن من فطرة العقل قبول المثل الأعلى إذا عرض عليه . وكما منع الإكراه فقد ألح على البلاغ المبين الذي هو أقوى دعائم الحق على الأرض ، وعدم وضوح قضية البلاغ جعل المسلمين يتجهون إلى العنف كبديل بينهما ، تجعل الإنسان الفطري يقبل دين الفطرة .

ولكن الناس يتهربون من المسؤولية ولا يعملون اليوم ما يستطيعون ، فيعجزون غداً ويبقون في التيه يرددون خطأً : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . وكل أحد في مستواه يستطيع البلاغ ، وقد وعد الله أن يعصم المبلغ من الناس ، وهي أيضاً عصمة للرسالة من الانحراف والاتهام ..

وإذا كانت الإرادة قد ولدت من المثل الأعلى والعقل ، فليس المهم أن نبحث عن أصل العقل وعلاقته بالمادة ، وإنما المهم أن نجعله يؤدي وظيفته وهي الفكر والذكر . الفكر في المخلوقات لتسخيرها والذكر للخالق لشكره ، فلا يتكبر على الله ولا يتعبد للكون وإلا نزل به العقاب . وإن القوانين الأخلاقية التي جاءت بها الأديان لا تختلف عن القواعد التي فرضتها الطبيعة في صرامتها وإنزالها العقاب فيمن يخالفها .

فالتحرر من نظم الأخلاق كعدم التمييز بين الحلال والحرام ، وعدم أداء وظيفة الأمومة ، وعقوق الوالدين وسوى ذلك ... يؤدي إلى عقاب صارم كعقاب مخالفة قوانين الفيزياء والكيمياء .

4 - الإرادة روح الأمة : (ص : 146-150)

إن السر في انضمام الخلايا بعضها إلى بعض لتكوين الجسد الحي ، كالسر في انضمام الأفراد إلى بعضهم حينما تحدث لهم إرادة واحدة بهدف إيجاد كائن هو الأمة . إن تولد الإرادة في الفرد يجعله ينضم إلى الآخر وهذا معنى لحديث : « مثل المؤمنين في توادهم ... » . وإن الأفراد الذين تنتمي إراداتهم الاجتماعية إلى أمة أخرى ، لا يمكن أن ينسجموا مع مجتمع لا يحملون الوفاء له .

وإذا فقدت الإرادة ماتت الأمة ورجعت اهتمامات أفرادها إلى أمورهم الأولية لحفظ الذات ، لا لنمو المجتمع ..

5 - الإرادة كقيمة وكصناعة : (ص : 150-157)

يقصد بالإرادة كقيمة ، تفاضل الإرادات أو كيف يكون مثل أعلى أفضل من آخر .

يحكم على قيمة المثل الأعلى بمقدار ما تشهد له حقائق الحياة والعلم بالصدق ، وبمقدار ما ينسجم مع المستقبل ويؤدي دوره في الحياة ، وذلك بالنظر إلى نماذج الناس الذين صنعهم هذا المثل الأعلى .

ومهما كان المثل الأعلى سامياً فهو لا يكفي لتوليد الإرادة ، إذ لا بد للزوج الآخر وهو العقل أن يكون على استعداد لقبول المثل الأعلى ، وهذا معنى قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وأما القصد من الإرادة كصناعة : فهو كيفية تحقيق المراد أو عملية البلاغ ، وهذا راجع إلى الجهاز الذي يقوم بتوليد الإرادة وحفظها . فالأمر لا يرجع إلى البرنامج أو المثل الأعلى الذي أنتج في يوم ما الصحابة رضوان الله عليهم ، وإنما إلى الذين يقومون بعملية توليد الإرادة ، أو المشرفين على عرض المثل الأعلى .. إنها مشكلة التطبيق لا مشكلة المبدأ ، مشكلة المثل الأعلى الحق مع الجهل في التطبيق ..

الفصل الرابع

القُدرَة

(ص : 158-209)

تعريفها : (158-159)

تعرف بأنها استطاعة أداء العمل ، وبأنها طاقة ، والطاقة قانون تحول المادة تؤول إلى حركة .

وقد التبس على بعض الناس أمر القدرة الإرادية بالقدرة المجردة عن الإرادة ، تساءلوا : هل نحن مسيرون أم مخيرون ؟

والقدرة نوعان مادية وفهمية :

فأما المادية فمتنوعة كثيرة . إن قدرات العالم الإسلامي المادية كثيرة ، ولكنها مهدورة لعدم استخدامه القدرات الفهمية .

وأما الفهمية أو العلمية : فهي معرفة استخدام القدرات المادية أو عملية التسخير وهي التي ترفع مكانة الإنسان وترتقي بحياته ، واستخدام هذه القدرات هو ما ينقص العالم الإسلامي اليوم وهو سر تخلفه .. والكتاب بمجمله محاولة لتحديد هذه المشكلة وشرحها .

1 - عمق المشكلة ومستويات القدرة : (ص : 159-171)

يحاول المؤلف تحديد مشكلة عجز المسلمين ليتوجه المسلم إلى موطن المشكلة . فيشرح خطأ من يزعم أم مشكلتنا راجعة إلى فقدان الإخلاص أو الإرادة ، ويؤكد أنها راجعة إلى فقدان الصواب أو القدرة . وقد سيطرت هذه الفكرة الخاطئة على أذهان الناس ، فحالت بينهم وبين رؤية الفكرة الصحيحة وإن كانت بدهية .

وأما كيف توجد القدرات ، فإن لنمو القدرات وتحصيلها قوانين وسنناً وقد اكتسب الإنسان القدرات وفقاً لها على مر العصور ، وأعطاها المجتمع لأفراده . ويوضح الكتاب أن للقدرة مستويين : طاقة مادية وطاقة عقلية فهمية .والمهم في هذا الإعطاء هو جانب القدرات الفهمية ولا سيما ما يلزم منها لصناعة المجتمع ، وفهم القوانين التي تخضع لها صلابة المجتمع وقوة تماسكه وأساليب علاجه وتغييره ، وهو ما يهتم به الكتاب .

2 - كيف يُحصل الإنسان القدرات ؟ (ص : 171-185)

إن القدرات الفهمية وليدة أبوين هما العقل وسنن الكون إذ يتفاعلان لينتجا القدرات الفهمية . إن أحداث التاريخ ووقائع الكون تُعرض على العقل فيكتشف سننها ويسخرها .

ودليل صحة الفهم لسنن الخلق هو تمام التسخير حيث تأتي النتائج كاملة ، ولهذا فإن القرآن يأمر بالنظر إلى العواقب وخاصة عواقب الذين خلوا من قبل لاكتشاف سنن المجتمعات ، ولكن المسلم اليوم ما يزال يعيش في مناخ صنعته عصور الضعف ، فهو لهذا مقيد بفهم خاطئ يبعده عن إدراك أسرار إلحاح القرآن على النظر في سن التاريخ وسير البشر . إن المسلم مصاب بمرض « الإعراض » كما يسميه القرآن الكريم .

وهذه المواريث التي تمنع الرؤية الصحيحة آصار وأغلال يجب التخلص منها . كما بحث الكتاب فكرة مهمة وهي :

ملكة البحث لتحصيل القدرات (ص : 183-185)

إن كتاب جيلنا ومن سبقهم لا يبثون في قرائهم اكتساب ملكة البحث لكشف السنن ، بل يكتفون بأن يجعلوا قراءهم مقلدين ، حيث يحتل الأشخاص مكان الفكرة والحقيقة ، وهذا داء يشل القدرة الفهمية في العالم الإسلامي .

3 - الإرادة كانت قدرة : (ص : 185-197)

القدرة هي الأصل ثم تأتي الإرادة التي تتفاعل معها . فالأصل أن يفهم الإنسان ما يريد ، فإن إمكان فهم الأفضل يُحدث الإرادة عند الإنسان . وتعود الإرادة فتدفع إلى طلب الصواب وزيادة تحصيل القدرات ، ويكون انتكاس الأمم والمجتمعات بأن ينشأ قوم يقصرون على جانب واحد ، فتبقى الإرادة عزلاء عن القدرة ، ويقل العلم .. وهو داء العالم الإسلامي الذي أصيب بذهاب العلم .

وقد أخطأ قوم حين ظنوا أن انهيار الأمم وانحطاطها يصاحبه توسع في العلم . وهذا الخطأ بسبب جهلهم أن علماً أساسياً فُقد ، وأن العلم الصحيح لا يكون سبباً للضلال .

ويبين الكتاب إمكانية إعطاء الإرادة قبل القدرة ، إذ أن الإنسان أعطي القدرة على إرادة المثل الأعلى قبل أن يتيسر له معرفة صوابه ، فقد أنزل الله على الناس الهدى الذي تظهر أدلته في كل جيل بما يناسب أحواله .

وإن تعليق أدلة الإيمان في الإسلام بآيات الآفاق والأنفس لدليل على أن البشرية قد بلغت النضج ، وأن الدين الإسلامي صالح لكل زمان ومكان .

إن دليل صحة العلم هو في عاقبته أو نتيجته ، ولهذا يصير الإيمان بالله واليوم الآخر علما طالما أن نتائجه ترى في حياة الناس ، وهذا ما يجعل الإيمان يقدم إلى الناس بالصورة نفسها التي تقدم بها بقية العلوم وبذلك يصبح الإيمان علماً .

والمسلم اليوم محتاج إلى هذه القدرات الفهمية ليدخل إلى العالم ومعه الهدى ، وإن عالم اليوم المتقدم تكنولوجياً ليمهد لمجيء المثل الأعلى كما مهدت الحضارة الرومانية الطريق للنصرانية .

4 - القدرة الأخلاقية الكامنة : (ص : 197-206)

إن الباحث التاريخي يرى قيمة البعد الأخلاقي في أحداث البشر ، وفي الاتجاه صوب إقامة الحياة الأخلاقية والتحرر الروحي بتسخير الطاقة المادية للسمو الأخلاقي . واستخدم الإنسان للقدرات المودعة فيه لبلوغ هذا السمو ، يخرج هذا الإنسان من توقعات الملائكة فيه حين توقعت له سفك الدماء والإفساد ، إلى ما علمه الله فيه .

وحتى تصبح القدرات المادية نعمة للإنسان ، يجب أن يتقدم في قدراته النفسية ، وأن تصبح الموازين والمقاييس في مجال التقدم المادي .

وبما أن اكتساب القدرات ولا سيما الفهمية يكون سبباً في التوصل إلى اختيار المثل الأعلى المناسب ، فإن القدرة تكشف أهمية الإرادة ، وتعود الإرادة فتبعث على تحصيل القدرة وهكذا .. فالعلاقة بين الإخلاص والصواب جدلية ، فالإخلاص يدفع إلى طلب الصواب ، والصواب يولد الإخلاص وينميه . وعدم وضوح هذه العلاقة يشوش موقف الغربي تجاه المسلم ، وموقف المسلم تجاه الغربي .

5 - أسلوب آخر لتعريف الصواب : (ص : 206-209)

إن الصواب هو كشف العلاقة السليمة بين الإنسان وخالقه بالعبودية ، وبين الإنسان والإنسان بالعدل والإحسان ، وبين الإنسان والكون بالتسخير . والقدرة الفهمية هي التي توصل إلى كشف هذه العلاقة عن طريق دراسة آيات الآفاق والأنفس التي تشهد لآيات الكتاب .

الفصل الخامس

تطبيقات

(ص : 210-245)

1 - هل عند العالم الإسلامي إرادة ؟ (ص : 210-223)

إرادة العالم الإسلامي موجودة وهي أن يعيش حياته وفقاً للإسلام ، وأكثرية المسلمين توافق على اختيار الإسلام نظاماً للحياة . ولكن سبب إحجام المسلم عن التضحية بالنفس والمال هو عدم وضوح جدوى التضحية ، أو جهل الطريقة المجدية للبذل .

ولكن أكثر الذين يتحدثون عن مصائبنا وهزائمنا ، يرون السبب في عدم الإيمان أو نقص الإرادة ، لأن النصر في زعمهم لا يحتاج لغير الإيمان الذي انتصر به الصحابة ، وبهذا يرفعون عن كاهل الجيل مسؤولة عبء الدرس لتحصيل القدرات الفهمية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي ليخرج من محنته .

إن العلم المطلوب تحصيله هو الذي يغير ما بالنفوس ، ولكن جهود العلماء المسلمين في العصر الحديث اتجهت في الغالب إلى تصحيح العقيدة والدفاع عن الإسلام وتمجيده .

ولكن لمَ لمْ تصنع إرادات المسلمين قدراتهم طالما عندهم إرادات ؟ (ص : 217-223) .

أولاً : لأن المسلم فقد العلم والمعرفة لما يقوم به ويؤديه على الوجه الصحيح حتى يحقق إرادته ، ولهذا فإن الإخلاص مع الجهل لا يجدي . ومن الجهل فقدان المقياس الموضوعي الذي نميز به المسلم النافع من الضار ، هذا يؤدي إلى الخوف والانكماش أمام كل جديد وإن كان يحمل النفع .

ثانياً : الفهم الخاطئ لقدر الله ، وذلك أن المسلم زهد في بذل الجهد حين رأى أن إرادته لا تتحقق بجهده الشخصي وإنما بأمر الله ، فتبقى إرادته لا تحمله على السعي لإيجاد القدرات .

ثالثاً : نظر المسلم إلى أحداث الكون والحياة نظراً يخلو من البحث عن القانون والسبب وبداية الأمور وتكوّنها « كيف بدأ الخلق » ؟

2- عمى الألوان : (ص 223 - 238)

العمى الفكري هو الذي يجعل الإنسان لا يرى الأمور والأحداث متكاملة مترابطة ، بل يرى جانباً منها دون الآخر ويغفل عن الأسباب ، وهذا ما يجعله يتخبط ويقع في حيرة ... وقد سمى القرآن هذا الأمر : « عمى القلوب » . وقد يكون المصاب به مؤمناً مستعداً للتضحية ، ولكنه يجهل السبل القومية ، كما أنه لا يظهر عند العامة فقط بل عند الخاصة الذين يجهلون سبل استخدام أنفس وأموال الذين يستعدون للتضحية .

والخلاص منه إما يتم بالقدرة الفهمية التي يحتاج إليها المسلم ، وإنما فهم الناس العكس وهو أن الحاجة إلى زيادة الإيمان .

وعدم وضوح هذا الأمر سبَّب الخلط بين القدرة والإرادة ، أو بين الإيمان والإسلام . وقد أدى اختلاط موضوع المؤمن بالمسلم إلى تفرقة وآراء متشعبة ، وإن أكثر شبابنا المتحمس اليوم يذهب من غير شعور إلى رأي الخوارج الذين يكفّرون بالمعصية . إن الإيمان أكثر ثباتاً من الإسلام وأسرع حصولاً عند الإنسان ، وقد يتم دفعة واحدة ، بينما الإسلام معرفة وتطبيق ، والصلة بينهما جدلية .

إن وجد من يستعد لبذل المال والنفس بين المسلمين في سبيل الله ، وقلة من يبذل سنين طويلة من البحث الجاد لفهم مشكلات المسلمين على مستوى العصر ... إن هذا الأمر لدليل على وجود الإرادة أو الإيمان ، ونقص القدرة وخاصة الفهمية وهي مشكلة العالم الثالث - لا مشكلة المسلمين وحدهم - حيث تفتقد الكفاءات في تحقيق الارادات . وحيث يكون التقصير فالسبب نقص القدرات وليس انعدام الإخلاص والإيمان .

والمسلم لا يريد أن يعترف بعجزه ، ولا يستطيع أن يعترف بخطئه لأنه لا يعرف كيف يتخلص منه ، ولا يرى البديل .

3- القدرة والإرادة كشريعة وحقيقة (ص : 238 - 241)

يسمي الصوفية أنفسهم أصحاب الارادات ويعتبرون أنفسهم أصحاب الحقيقة ، إلا أن المتصوف يغرق في الإرادة ولا يعود يفرق بين إرادة كونية وأخرى شرعية ، وذلك حين يرى الكون كله مراداً لله بما في ذلك المعاصي ، فتنشأ الشطحات والتشويش . بينما يظهر الجمود عند الفقيه الذي لا يعود يستطيع حركة ولا اجتهاداً . ويظهر هذا ويكثر في عصور التخلف .

4- موقف أهل الدين والسياسة من نقص القدرة والإرادة : (ص : 241 - 245)

إن النقص عند المسلمين اليوم هو في جانب القدرات أو جانب الصواب ، مع الادعاء لديهم بأن النقص في جانب الإرادة أو الإيمان أو الإخلاص . وبسبب من هذا الخطأ فإن أهل الدين يتزمتون ويرمون من يخالفهم بالكفر ويشككون في إيمان من يسعى لاكتساب قدرات جديدة ، وإن أهل السياسة يدين بعضهم البعض الآخر بنيته وإخلاصه ، ويتهمه بالخيانة والعمالة ، ولا يتهمه بنقص القدرة أو العلم . والأسلوب عند أهل السياسة والدين واحد وهو أسلوب السهولة ؛ لأن تحصيل القدرات يحتاج إلى جهد وأدلة . إن أسلوب السهولة يجد أرضاً خصبة في مجتمع فقدت فيه الأفكار قيمتها ، ولهذا الأسلوب خطره في فرض الرقابة ومصادرة الفكر ، والاعتماد على الإخلاص دون الوعي .

كتب للمؤلف

مذهب ابن آدم الأول : أو

(مشكلة العنف في العمل الإسلامي)

يبرز المؤلف في هذا البحث الأسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الأول من أول نزاع حدث في مطلع البشرية ..

ليكون هذا الأسلوب المزكى من قبل الله نبراساً للبشرية في خط سيرها الطويل . ويهدف إلى إيجاد أسلوب آخر لحل مشكلات البناء . وهو وإن كان يوجه الكلام إلى الإسلاميين ليدلهم على الطريق ، إلا أنه لم يقصد الاقتصار عليهم ، بل يريد أن

يضع أمام ضمير الآخرين هذا الأسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم . ويبين أن على المسلمين من أجل استئناف الحياة الإسلامية أن يقوموا بعملية البلاغ المبين ، وان يؤدوا واجباتهم بصرف النظر عن الحق الذي لهم .

فقدان التوازن الاجتماعي

يدرس الكتاب إنسان مجتمعنا الذي يتردد بين مبدئه وضغط الواقع . ويبين أن الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم ، هو الذي يفقده توازنه ويحمله على الانسحاب من المجتمع أو الذوبان فيه . وان من الشروط الأساسية لتحقيق التوازن الاجتماعي :

- أن ندخل المجتمع ونحن نعتقد أن لدينا عقيدة تنقذه .
- أن ندخل المجتمع لنغيِّرَه ، لا لنقلِّده .
- أن نقدم الإيمان بأدلته من عالم الشهادة .

حتى يغيروا ما بأنفسهم

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ويحاول أن يوضح أن أساس مشكلة تخلف المسلمين ، هو جهلهم أن مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها .. وبالتالي اصبحوا ألعوبة بيد أعدائهم الذين يفرضون أن المشكلات تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها ..

ويبين المؤلف أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية ، إنما بدأت تأثيرها على نفس الإنسان وفكره فغيرتهما ؛ وان هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع أو يتخلف بحسبها ...

الإنسان : حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى : « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » .

ويهدف إلى بيان أن البشر يمكنهم باستخدام سنن تغيير النفس والمجتمع ، رفع أو خفض مستوى الأفراد والمجتمعات . ويشرح فكرة « الفعالية » ، ويبين أن أهم شروطها .

ـــ أن نبحث أسباب الأحداث ، ونعترف بجهد الإنسان فيها .

ـــ أن يتحرك الإنسان بين حدّي الرجاء والخوف ، من أجل خير يجلبه أو شر يدفعه ..

المحتوى

كتب قيِّمة

أولاً – أبحاث في سنن النفس والمجتمع

تأليف : الأستاذ جودت سعيد

1- مذهب ابن آدم الأول (مشكلة العنف في العمل الإسلامي) .

2- الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً .

3- حتى يغيروا ما بأنفسهم .

4- فقدان التوازن الاجتماعي .

5- العمل قدرة وإرادة .

ثانياً – دراسات نفسية وتربوية :

تأليف : الدكتور عبد الحميد الهاشمي

1- الرسول العربي المربي

ثالثاً – نظرات في كتاب الله تعالى :

1- قبس من الإعجاز للأستاذ : هشام الحمصي .

2- توجيهات قرآنية للأستاذ : هشام الحمصي .

3- أضواء من سورة يس للأخت : حنان لحام .

4- أضواء من سورة لقمان للأخت : حنان لحام .

رابعاً – من أخبار الصحابيات :

تأليف : السيدة حنان لحام

1 سمية بنت خياط (الشهيدة الأولى) .

2- أم سليم بنت ملحان (الزوجة المؤمنة) .

هذا الكتاب

إذا توفرت للعمل الإرادة الجازمة والقدرة التامة مع استيفاء شروطه وانتفاء موانعه ، وجب وجود الفعل ضرورة ، وتم حصول العمل بإذن الله تعالى .

إن لدى المسلمين من الإرادة والقدرة المادية ما يكفيهم للإقلاع ، وإنما عوزهم الحقيقي قي القدرات الفهمية .

وهذا الكتاب يتناول مشكلة العمل بأسلوب موضوعي على صورة قوانين رياضية :

الإرادة الجازمة + القدرة التامة = العمل الناجح .

العقل + المثل الأعلى = الإرادة .

العقل + وقائع الكون وأحداث التاريخ = القدرة التسخيرية .

وإذا كانت الكيمياء قد خرجت من عالم السحر والغموض لتصبح علماً بخضوعها للتحليل والتركيب ، كذلك العمل الإنساني لا يصير علماً تسخيرياً إلا بعد تحليل عناصره وإعادة تركيبها ...